حسين أحمد أمين

الحروب الصليبية

في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها

الجزء الأول : من جودفري إلى صلاح الدين

الجزء الثاني : صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

الجزء الثالث : الأيوبيون وغزو مصر

الجزء الرابع : المماليك واستئصال شأفة الصليبيين

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي
القاهرة

سين أحمد أمين

الحروب الصليبية

فى كتابات المؤرخين العرب

المعاصرين لها

١٩٨٣

الجزء الأول : من جود فرى إلى صلاح الدين
الجزء الثانى : صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة
الجزء الثالث : الأيوبيون وغزو مصر
الجزء الرابع : المماليك واستئصال شأفة الصليبيين

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

الجزء الثالث

الأيوبيون وغزو مصر

رقم الصفحة

مقدمة

لم ينهض أحد من المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى بتأليف كتاب يُفرِدُه لأحداث الحروب الصليبية. فهم بالرغم من عنايتهم بتسجيل وقائعها وبواعثها فى تفصيل واف — إنما أوردوا ما كتبوه عنها ضمن تواريخهم العامة، أو التواريخ المكتوبة عن الأقاليم المختلفة، أو عن الأسر المالكة، أو فى التراجم. فليس ثمة كتاب عربى من العصور الوسطى عن « تاريخ الحروب مع الفرنج ». وعلى من يتصدّى لمهمة إعداد مثل هذا الكتاب أن ينتقى ويوفق ويربط بين فصول من كتب عربية شتى، فى هذه الفروع المختلفة من الكتابة التاريخية.

والكتاب الذى بين يدى القارىء يحوى فصولا منتقاة من مؤلفات المؤرخين العرب الذين عاصروا الحروب الصليبية، منذ بدايتها عام ١٠٩٧ م حتى إزالة آخر معقل للفرنج بالشام سنة ١٢٩١ م. وقد اعتمدنا بصورة أساسية على المادة الوفيرة التى جمعها المستشرق الإيطالى فرانشيسكو جابرييلى من كتابات هؤلاء المؤرخين.

وأملنا هو أن نتمكن فى وقت قريب، أو يتمكن غيرنا، من إعداد مجلد آخر مماثل يحوى فصولا مختارة من مؤلفات المؤرخين الفرنج المعاصرين لتلك الحروب. فبمثل هذين المجلدين، يتوفر لدى القارىء العربى وجهتا النظر المتباينتان، وهو ما لا غنى عنه للباحث الذى يستهدف النظرة الموضوعية الخالصة.

حسين أحمد أمين

المؤرخون ومؤلفاتهم

الفصول التالية منتقاة من ثمانية عشر كتابا لسبعة عشر مؤلفا . وفيما يلى نبذة عن كل من هؤلاء المؤرخين .

أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى
المعروف بابن القلانسى
(٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م — ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)

مؤرخ دمشقى ، أتم تاريخ هلال الصابى الذى وقف عند عام ٤٤٨ هـ ، فوصل به إلى عام ٥٥٥ هـ فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » . وهو أول من تعرّض للحروب الصليبية من المؤرخين العرب . وقد شغل ابن القلانسى عدة مناصب إدارية هامة فى دمشق والشام مما أتاح له أن يتخبَّر عن قرب أحداث الحربين الصليبيتين الأولى والثانية حتى وقت دخول نور الدين محمود دمشق . فإن كانت روايته للأحداث قد تميزت بشىء من الجفاف ، فهى رواية موضوعية دقيقة لشاهد عيان ، وكثيراً ما استعان فى كتابتها بالوثائق المتوفرة لديه ، مما يجعل كتابه من المصادر الأساسية للحقبة الأولى من هذه الحروب .

٢ — أسامة بن منقذ
(٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م — ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م)

من فرسان العرب ومن الأدباء المقربين من الملوك والسلاطين . ولد بشيزر شمالى حماة ، وتوفى فى دمشق عن ثلاثة وتسعين عاما . وقد استولى الصليبيون على بيت المقدس وهو فى الرابعة من عمره ، واستعادها صلاح الدين قبل وفاة أسامة بعام واحد . وكان طوال حياته على صلات مستمرة

بالفرنج ، يخاصمهم حينا ويصادقهم حيا ، ويشترك فى الحرب ضدهم وفى الخروج للصيد معهم . واشترك مع نور الدين محمود ابن مولاه السابق زنكى فى القيام بعدة حملات على الصليبيين . وقد خلف لنا فى كتابه « الاعتبار » صوراً قوية حية للعصر الذى عاش فيه حالتى الحرب والسلم . وهو عبارة عن مذكرات لها أهمية فريدة خاصة بين المصنفات العربية .

٣ — عماد الدين الكاتب الأصفهانى
(٥١٩ هـ / ١١٢٥ م — ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م)

ولد بأصفهان ، ثم انتقل إلى بغداد فدمشق ، حيث أصبح كاتباً لنور الدين ورئيسا لديوان رسائله . ولقد لحق بصلاح الدين وكتب له وصار فى مرتبة وزرائه . وأرخ لأحداث عصره التى شارك فيها بنفسه ، فى عدة كتب ، منها « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وهو تاريخ مسجوع موشى بالمحسنات اللفظية الثقيلة ، كثيرا ما يصعب على الباحث استخراج الحقائق التاريخية منه . وهو مع ذلك خال من أى تزوير للحقائق قد يقتضيه التزام السجع . كما أن إعجاب المؤلف بصلاح الدين لم يحل دون انتقاده إياه عند الضرورة .

٤ — عز الدين بن الأثير
(٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م — ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)

ولد بجزيرة ابن عمر الواقعة على نهر الفرات ، وتوفى بالموصل . وقد نشأ نشأة علمية ارستوقراطية فى كنف أمراء البيت الزنكى ، وتنقل بين المدن الإسلامية الكبرى كالموصل وبغداد و دمشق والقدس . ويعتبر كتابه المشهور « الكامل فى التاريخ » مصدراً رئيسيا ذا قيمة عظيمة فيما يتعلق بالسنوات حتى عام ٦٢٨ هـ . وهو يتميز بالإشراق والبساطة والحيوية ،

ويوازن التأريخ للأقطار الإسلامية موازنة تتسم بشمول النظرة . وبالرغم من ولاء ابن الأثير العميق لأسرة زنكى ، وما نتج عن هذا الولاء من عداء لصلاح الدين ، فهو يبدى تقديره لصلاح الدين وإعجابه به ، وإن لم يخل تعرضه له من النقد فى كثير من الأحيان .

٥ — بهاء الدين بن شداد

(٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م · ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤)

ولد فى الموصل ودرس بها وببغداد . والتحق بخدمة صلاح الدين عام ١١٨٨ فعينه قاضى العسكر لبيت المقدس ، وظل صديقه الحميم المقرب حتى وقت وفاة السلطان . وأهم تصانيفه سيرته التى كتبها عن صلاح الدين بعنوان « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، وهو مصدر تاريخى ممتاز فيما يختص بشخصية صلاح الدين وأحداث السنوات الأخيرة من حياته ، وهى أحداث شارك ابن شداد فى معظمها .

٦ — كمال الدين بن العديم

(٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م — ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م)

مؤرخ مدينة حلب التى ولد ونشأ فيها . وقد ألف فى تاريخ هذه المدينة كتابا هو « زبدة الحلب من تاريخ حلب » ينتهى بأحداث عام ١٢٤٣ ، ويعتبر مصدرا هاما بالنسبة لأحداث الحروب الصليبية فى شمال الشام .

٧ — شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بأبى شامة

(٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م — ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م)

قضى حياته كلها بدمشق عدا سنه واحدة أمضاها فى مصر للدرس ،

وزيارات قصيرة لبيت المقدس والحجاز . أهم مؤلفاته «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين» ، وهو تاريخ نور الدين وصلاح الدين ، يستقى فيه من مصادر هامة مباشرة ، بعضها لم يصل إلينا كتاريخ ابن أبي طيّ المؤرخ الشيعى ، كما يدعم روايته بوثائق مستقاة فى جوهرها من القاضى الفاضل والعماد الكاتب .

٨ — سبط ابن الجوزى
(٥٨٢هـ / ١١٨٦م ٦٥٤هـ / ١٢٥٦)

ولد ببغداد وعاش معظم حياته فى دمشق صديقاً لأمراء البيت الأيوبى ، ومشتغلا بالوعظ وكتابة تاريخه الكبير «مرآة الزمان» . وهو مصدر هام فيما يتعلق بأحداث الشام زمن حياة المؤلف .

٩ — أبو الفضائل الحموى
(القرن الثالث عشر الميلادى)

لا نعلم عن حياته سوى أنه عمل فى خدمة أمراء الأيوبيين بالشام ، وأهدى كتابه فى التاريخ إلى الملك المنصور صاحب حمص ، وأسماه بالتاريخ المنصورى . وهو يتعرض للأحداث حتى عام ١٢٣٣م ، ويمدنا بمعلومات شيقة عن حملة الأمبراطور فردريك الثانى على الشام .

١٠ — عز الدين بن شداد
(توفى عام ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)

مؤرخ عربى يختلط اسمه فى كثير من الأحيان بهاء الدين بن شداد صاحب كتاب «النوادر السلطانية» . وقد صنف عز الدين كتابا قيما عن الشام والجزيرة عنوانه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة»،

جمع بين دفتيه كافة البحوث الطوبوغرافية المتعلقة بالشام ، وحوى معلومات نادرة عن الأماكن الإسلامية والمسيحية فيه .

١١ — محيى الدين بن عبد الظاهر
(٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م — ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م)

مؤرخ مصرى كان له شأن هام إبان حكم الظاهر بيبرس والمنصور قلاون والأشرف خليل ، من سلاطين المماليك البحرية . فقد كان كاتب السر أو صاحب ديوان الإنشاء لهم . وكان عليه بحكم منصبه أن ينشئ جميع الرسائل والوثائق الهامة للسلاطين . وقد ألف كتابا فى سيرة بيبرس وصلتنا أجزاء منه ، وكتاب « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » وضمنه العديد من الوثائق الرسمية . أما ترجمته للأشرف فلم يبق إلا ثلثها .

١٢ — جمال الدين بن واصل
(٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م — ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)

ولد بحماة وعمل بها مدرساً حتى استدعى إلى القاهرة عام ١٢٦١ للخدمة بها . وقد بعثه الظاهر بيبرس فى مهمة إلى صقلية عند الملك مانفريد فمكث هناك مدة طويلة . وهو صاحب كتاب هام فى تاريخ الأيوبيين ، عنوانه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » وصل فيه إلى أحداث عام ١٢٨٢ م . وهو بالتالى من أهم المصادر الخاصة بالحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر .

١٣ — أبو الفداء إسماعيل بن على الأيوبى
(٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م — ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

أمير شامى ومؤرخ وجغرافى من الأسرة الأيوبية . حضر وهو فى الثانية عشرة صحبة أبيه وابن عمه المظفر أمير حماة حصار المرقب عام ١٢٨٥ م ،

وشارك أيضاً فى الحملات التى شنت بعد ذلك ضد الصليبيين . له كتاب مشهور فى التاريخ هو « المختصر فى أخبار البشر » يتناول تاريخ الإسلام حتى سنة ١٣٢٩ . وقد ظل هذا الكتاب زمناً طويلا مصدراً من المصادر العمدة للمستشرقين .

١٤ — ناصر الدين بن الفرات
(٧٣٥ ﻫ / ١٣٣٤ م — ٨٠٧ ﻫ / ١٤٠٥م)

مؤرخ مصرى ، له كتاب شامل فى التاريخ بعنـــوان « تاريخ الدول والملوك » من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثامن . وقد نقل فى كتابه مقتطفات من مصنفات من تقدمه نقلا حرفياً ، مما زاد كثيراً فى قيمة هذا المصنف الذى يحوى معلومات شيقة عن عصر المماليك .

١٥ — تاج الدين أحمد بن على المقريزى
(٧٧٦ﻫ/١٣٦٤م — ٨٤٥ ﻫ / ١٤٤٢م)

أعظم المؤرخين المصريين . ولد بالقاهرة وعمل بديوان الإنشاء ثم قاضياً فإماما لجامع الحاكم . واختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى . له مؤلفات قيمة فى تاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى قبيل وفاته ، أهمها كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » فى تاريخ الأيوبيين والمماليك .

١٦ — بدر الدين العينى
(٧٦٢ ﻫ / ١٣٦٠ م — ٨٥٥ ﻫ / ١٤٥١ م)

مؤرخ من عصر المماليك . ولد فى عينتاب وتوفى بالقاهرة . اختير لوظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحرى عام ١٣٩٩ بدلا من المقريزى ، وتولى منصب قاضى قضاة الحنفية . له تاريخ شامل ضخم بعنوان « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » لم ينشر بعد ، ويرجع إليه فيما يختص بما نقله عن مؤرخين لم تصل إلينا كتبهم .

١٧ – أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
(٨١٢ هـ / ١٤١٠م – ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

كان أبوه فى عهد السلطان الناصر فرج القائد الأعلى للجيوش المصرية ، ثم نائب السلطان فى دمشق. واشترك أبو المحاسن نفسه مشاركة فعالة فى الحملة الشامية للسلطان برسباى . أصبح بوفاة المقريزى والعينى أهم مؤرخ مصرى لأحداث عصره . أهم كتبه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » وهو تاريخ لمصر من الفتح العربى حتى عام ١٤٦٧ م ، اختصر فيه المؤلفات التاريخية لمن سبقوه ، وأضاف إليه ذكر ما عاصره من أحداث .

الجزء الأول

من جود فرى إلى صلاح الدين

الفصل الأول

ابن القلانسي وابن الأثير هما أهم مراجعنا عن الحرب الصليبية الأولى : فأما ابن القلانسي فيكاد يقتصر على عرض بسيط متسلسل للأحداث . وأما ابن الأثير فيربط بين المراحل المختلفة للحرب وبين الصورة الشاملة لهبّة المسيحيين ضد الاسلام ، بادئا بالعودة إلى فتح أسبانيا والغزو النورماندى لصقلية . وتعتبر روايته أكمل الروايات عن سقوط أنطاكية وبيت المقدس ، وإقامة الممالك المسيحية فى الأراضى المقدسة ، ومحاولات المسلمين الأولى للرد على هجوم الإفرنج .

(١)

ذكر ملك الفرنج مدينة أنطاكية

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، من صفحة ٢٧٢ — ٢٧٥]

كان ابتداء ظهور دولة الفرنج ، واشتداد أمرهم ، وخروجهم إلى بلاد الإسلام ، واستيلائهم على بعضها ، سنة ٤٧٨ هـ [١٠٨٥ — ١٠٨٦ م] ، فملكوا مدينة طُلَيْطُلَة وغيرها من بلاد الأندلس .... ثم قصدوا سنة ٤٨٤ هـ [١٠٩١ م] جزيرة صقلية وملكوها (١) ... وتطرقوا إلى أطراف إفريقية ، فملكوا منها شيئا وأُخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه .

---

(١) من الواضح أن هذا التاريخ يشير إلى نهاية الفتح النورماندى .

فلما كان سنة ٤٩٠ هـ [١٠٩٧ م] خرجوا إلى بلاد الشام ، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بَرْدويل [بولدوين] (١) جمع جمعاً كثيرا من الفرنج ، وكان نسيب رُجار [روجر] الفرنجى الذى ملك صقلية . فأرسل إلى رجار يقول له قد جمعت جمعاً كثيرا ، وأنا واصل إليك ، وسائر مين عندك إلى أفريقيا أفتحُها ، وأكون مجاوراً لك .

فجمع رُجار أصحابه ، واستشارهم فى ذلك ، وقالوا « وحق الإنجيل هذا جيِّد لنَا ولهم . وتصبح البلاد بلاد النصرانية » فرفع رجلَه وحَبَّق حبقة عظيمة (٢) ؛ وقال : « وحقّ دينى ، هذه خير من كلامكم ! » قالوا : « وكيف ذلك ؟ » قال : « إذا وصلوا إلىّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ، ومراكب تحملهم إلى إفريقية ، وعساكر من عندى أيضاً ، فإن فتحوا البلاد كانت لهم ، وصارت المؤونة لهم من صقلية ، وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة . وإن لم يُفلحوا رجعوا إلى بلادى ، وتأذّيت بهم ، ويقول تميم (٣) غدرتَ بى ، ونقضتَ عهدى ، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا ؛ وبلاد إفريقية باقية لنا ، متى وجدنا قوّة أخذناها » .

وأحضر رسوله (٤) وقال له : « إذا عزمتم على جهاد المسلمين ، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس ، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم

---

(١) بلدوين هذا شخصية خرافية ، فهو إما نتيجة خلط بين بودوين الفلاندرزى ، وبولدوين القدس ، أو أن المؤلف حسب خطأ أن الأول كان وقتها ملكاً فى الشرق .

(٢) أى ضرط ضرطة عظيمة .

(٣) تميم بن المعز ، أمير تونس .

(٤) أى رسول بولدوين .

الفخر . وأما إفريقية فبيني وبين أهلها إيمان وعهود . » فتجهزوا وخرجوا إلى الشام .

وقيل : إن أصحاب مصر من العلويين (١) ، لما رأوا قـوة الدولة السلجوقية ، وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ، ودخول أقسيس (٢) إلى مصر وحصرها ، خافوا ، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين (٣) والله أعلم .

فلما عزم الفرنج على قصد الشام ، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز (٤) إلى بلاد المسلمين ، ويسيروا في البر ، فيكون أسهل عليهم فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم (٥) من الاجتياز ببلاده ، وقال : « لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام ، حتى تحلفوا لى أنكم تسلمون إلى أنطاكية » . وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الاسلام ، ظنا منه أن الأتراك لا يُبقون منهم أحدا ، لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد .

فأجابوه إلى ذلك ، وعبروا الخليج عـند القسطنطينية سنة ٤٩٠ هـ [١٠٩٧ م] ، ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ، وهى قونية وغيرها . فلما وصلوا إليها لقيهم قلج أرسلان في جموعه ، ومنعهم ، فقاتلوه فهزموه في رجب سنة ٤٩٠ هـ [يوليو ١٠٩٧] . واجتازوا في

---

(١) يقصد الفاطميين .

(٢) أحد القادة في جيش السلطان ملكشاه السلجوقى ، وكان قد هاجم مصر عام ١٠٧٦ م عن طريق فلسطين .

(٣) يعنى السلاجقة .

(٤) أى المضايق .

(٥) الامبراطور البيزنطى في الشرق ، وكان العرب يسمون البيزنطيين بالروم ، والمسيحيين الأوروبين بالفرنجة أو الفرنج .

بلاده إلى بلاد ابن الأرمنى (١) ، فسلكوها ، وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها .

ولما سمع صاحبها ياغي سيان بتوجههم إليها ، خاف من النصارى الذين بها فأخرج المسلمين من أهلها ، ليس معهم غيرهم ، وأمرهم بحفر الخندق ، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضا ، ليس معهم مسلم ، فعملوا فيه إلى العصر . فلما أرادوا دخـــول البلد منعهم ، وقال لهم : « أنطاكية لكم ، [ولكن] تهبونها لى حتى أنظر ما يكون منّا ومن الفرنج » فقالوا له : « من يحفظ أبناءنا ونســاءنا ؟ » . فقال : « أنا أخلفكم فيهم » . فأمسكوا ، وأقاموا فى عسكر الفرنج ، فحصروها تسعة أشهر .

وظهر من شجاعة ياغى سيان وجودة رأيه ، وحزمه واحتياطه ، ما لم يشاهد من غيره . فهلك أكثر الفرنج موتا ، ولو بقوا على كثرتهم التى خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام . وحفظ ياغى سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم ، وكفّ الأيدى المتطرّقة إليهم .

فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية ، راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ، وهو زرّاد (٢) يعرف بروزبه (٣) وبذلوا له مالا وأقطاعا ، وكان يتولى حفظ برج يلى الوادى ، وهو مبنى على شباك فى الوادى (٤) . فلما تقرّر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزرّاد ، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه ، وصعد جماعة كثيرة بالحبال . فلما زادت عدّتهم على خمسمائة ، ضربوا

(١) الإسم العربى لسيليزيا (أرمينيا الصغرى) .

(٢) الزراد : صانع الدروع .

(٣) وفى رواية أخرى : فيروز .

(٤) أى أن البرج كان قائما عند حوض النهر فى الموقع الذى يتدفق عنده النهر خارجاً من المدينة إلى الوادى .

البوق ، وذلك عند السَّحَر ، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة فاستيقظ ياغى سيان ، فسأل عن الحال ، فقيل : إن هذا البوق من القلعة ، ولاشك أنها قد مُلكت . ولم يكن من القلعة ، وإنما كان من ذلك البرج . فدخله الرعب ، وفتح باب البلد ، وخرج هاربا فى ثلاثين غلاما على وجهه . فجاء نائبه فى حفظ البلد ، فسأل عنه فقيل إنه هرب . فخرج من باب آخر هاربا . وكان ذلك معونة للفرنج ، ولو ثبت ساعة لهلكوا .

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب، ونهبوه ، وقتلـــوا من فيه من المسلمين ، وذلك فى جمادى الأولى [إبريل — مايو ١٠٩٨] (١) .

وأما ياغى سيان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله . وكان كالولهان ، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ (٢) . فقال لمن معه : أين أنا ؟ فقيل : على أربعة فراسخ من أنطاكية . فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يُقتل . وجعل يتلهّف ويسترجع على على ترك أهله وأولاده والمسلمين . فلشدّة ما لحقه سقط عن فرسه مغشيا عليه، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يُركبوه ، فلم يكن فيه مُسكة فإنه كان قد قارب الموت . فتركوه وساروا عنه . واجتاز به إنسان أرمنى كان يقطع الحطب ، وهو بآخر رمق ؛ فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية .

وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لانقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم ، لانطلب سواها ، مكرا منهم وخديعة ، حتى لايساعدوا صاحب أنطاكية .

---

(١) تذكر المصادر الأوروبية أن تاريخ دخول الفرنج أنطاكية هو ٣ يونيو ١٠٩٨ م .
(٢) الفرسخ : نحو أربعة أميال .

(٢)

ذكر مسير المسلمين إلى الفرنج وما كان منهم

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، من صفحة ٢٧٦ — ٢٧٨]

لما سمع قوام الدولة كربوقا(١) بحال الفرنج وملكهم أنطاكية ، جمع العساكر وسار إلى الشام ، وأقام بمرج دابق . واجتمعت معه عساكر الشام ، تُركها وعربها ، سوى من كان بحلب ، فاجتمع معه دُقاق بن تُتُش(٢) وطُغتكين أتابك ، وجناح الدولة صاحب حمص ، وأرسلان تاش ، صاحب سِنجار ، وسليمان بن أرتُق ، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم . فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم ، وخافوا لما هم فيه من الوهن ، وقلة الأقوات عندهم . وسار المسلمون ، فنازلوهم على أنطاكية . وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين ، وأغضب الأمراء وتكبّر عليهم ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال . فأغضبهم ذلك ، وأضمروا له فى أنفسهم الغدر ، إذا كان قتال ، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة(٣) .

وأقام الفرنج بأنطاكية ، بعد أن ملكوها ، اثنى عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه . وتقوتَ الأقوياء بدوابّهم ، والضعفاء بالمَيْتة وورق الشجر . فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد ، فلم يعطهم ما طلبوا ، وقال « لا تخرجون إلا بالسيف » .

---

(١) الأمير التركى للموصل .

(٢) الأمير السلجوقى لدمشق . وسيخلفه بعد زمن قصير قائد جيشه الأتابك طغتكين الوارد إسمه بعده ، والذى أصبح من أنشط وأعند المحاربين ضد الصليبيين خلال الطور الأول من الحرب .

(٣) أى التخلى عنه عند احتدام القتال .

وكان معهم من الملوك بردويل [بولدوين](١) ، وصَنْجيل [سان جيل] وكُنْدفرى [جودفرى](٢) ، والقُمُّص (٣) صاحب الرها ، وبَيْمُنْت [بوهيموند] صاحب انطاكية ، وهو المقدم عليهم . وكان معهم راهب مُطاع فيهم ، وكان داهية من الرجال ، فقال لهم « إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان(٤) الذى بأنطاكية ، وهو بناء عظيم . فإن وجدتموها فإنكم تظفرون ، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق » .

وكان قد دفن قبل ذلك حربة فى مكان ما ، وعفّى أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ، ومعهم عامتهم ، والصناع منهم . وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر(٥) . فقال لهم « أبشروا بالظفر » فخرجوا فى اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوقا : ينبغى أن تقف على الباب ، فتقتل كل من يخرج ، فإنّ أمرهم الآن ، وهم متفرقون ، سهل . فقال : « لا تفعلوا : أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » ولم يمكّن من معالجتهم . فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم هو بنفسه ، ومنعهم ونهاهم .

فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ، ضربوا مصافّا (٦) عظيما ، فولّى المسلمون منهزمين ، لما عاملهم به كربوقا أوّلا من

---

(١) « Baldwin of le Bourg » الذى عرف فيما بعد باسم بولدوين الثانى .

(٢) « Godfrey of Bouillon » .

(٣) القمص : الكونت ، وهو تعريب اللفظ اللاتينى « comes » .

(٤) لإسم العربى لكنيسة القديس بطرس فى أنطاكية ، نسبة إلى الرجل الذى يزعمون أن بطرس أحيا ولده بعد موته .

(٥) هذه هى رواية المسلمين العقلانية لنبأ العثور على « الحربة المقدسة » الذى جاء بناء على إيعاز من بطرس برتلوميو .

(٦) المصاف : الهجوم .

الاستهانة ، والإعراض عنهم ، وثانيا من منعهم من قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم ، ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم . وآخر من انهزم سُقمان بن أرتُق جناح الدولة ، لأنهما كانا فى الكمين . وانهزم كربوقا معهم . فلما رأى الفرنج ذلك ظنّوه مكيدة ، إذ لم يجر قتال يُنهزم من مثله . وخافوا أن يتبعوهم . وثبت جماعة من المجاهدين ، وقاتلوا حِسبة وطلبا للشهادة . فقتل الفرنج منهم ألوفا ، وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة ، فصلحت حالهم ، وعادت إليهم قوتهم .

(٣)

ذكر مُلك الفرنج مَعَرّة النعمان

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، صفحة ٢٧٨]

لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ، ساروا إلى معرّة النعمان ، فنازلوها وحصروها ، وقاتلهم أهلها قتالا شديدا . ورأى الفرنج منهم شدّة ونكاية ، ولقوا منهم الجدّ فى حربهم ، والاجتهاد فى قتالهم . فعملوا عند ذلك برجا من خشب يوازى سور المدينة ، ووقع القتال عليه ، فلم يضرّ المسلمين ذلك . فلما كان الليل ، خاف قوم من المسلمين ، وتداخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصّنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور ، وأخلوا الموضع الذى كانوا يحفظونه فرآهم طائفة أخرى ، ففعلوا كفعلهم ، فخلا مكانهم أيضا من السور .

ولم تزل تتبع طائفة منهم التى تليها فى النزول ، حتى خلا السور فصعد الفرنج إليه على السلاليم ، فلمّا علوه تحيّر المسلمون ، ودخلوا دورهم . فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتلوا ما يزيد على ألف ، وسبوا السبى الكثير ، وملكوه ، وأقاموا أربعين يوما ، وساروا إلى عَرْقة فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدّة ثقوب ، فلم يقدروا عليها

وراسلهم مُنقِذ صاحب شَيْزَر ، فصالحهم عليها . وساروا إلى حمص وحصروها . فصالحهم صاحبها جناح الدولة وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا ، فلم يقدروا عليها .

(٤)

ذكر مُلك الفرنج ، لعنهم الله ، البيت المقدّس

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، من صفحة ٢٨٢ — ٢٨٥]

كان البيت المقدّس لتاج الدولة تُتُش (١) ، وأقطعه للأمير سُقمان بن أرتُق التركمانىّ . فلما ظفر الفرنج بالأتراك على أنطاكية وقتلوا فيهم ، ضعفوا وتفرّقوا . فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا إليه ، ومقدّمهم الأفضل ابن بدر الجمالى (٢) ، وحصروه وبه الأمير سقمان ، وأيلغازى إبنا أرتق ، وابن عمهما سونج ، وابن أخيهما ياقوتى . ونصبوا عليه نيّفا وأربعين منجنيقا ، فهدموا مواضع من سوره ، وقاتلهم أهل البلد فدام القتال والحصار نيّفا وأربعين يوما ، وملكوه بالأمان فى شعبان سنة ٤٨٩ هـ [أغسطس ١٠٩٦ م] (٣) .

وأحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغازى ومن معهما ، وأجزل لهم العطاء ، وسيّرهم فساروا إلى دمشق ، ثم عبروا الفرات ، فأقام سقمان ببلد الرُّها ، وسار إيلغازى إلى العراق . واستناب المصريون فيه رجلا يُعرف بافتخار

---

(١) أخو ملكشاه السلجوقى .

(٢) الوزير الفاطمى .

(٣) لو كان هذا التاريخ صحيحاً لما كانت هناك صلة بين هذا الحدث والاستيلاء على أنطاكية . والصواب هو أن المصريين أخذوا البيت المقدس فى أغسطس ١٠٩٨ م .

الدولة ، وبقى فيه إلى الآن . فقصده الفرنج بعد أن حصروا عكّا فلم يقدروا عليها . فلما وصلوا إليه حصروه نيفا وأربعين يوما ، ونصبوا عليه برجين ، أحدهما من ناحية صِهْيَوْن ، وأحرقه المسلمون ، وقتلوا كل من به .

فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر ، وملكوها من جهة الشمال منه ضَحوة نهار يوم الجمعة ٢٢ شعبان (سنة ٤٩٢ هـ/١٥ يوليو ١٠٩٩م). وركب الناسَ السيفُ ، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين . واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود (١) ، فاعتصموا به ، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذل لهم الفرنج الأمان ، فسلّموه إليهم . ووفى لهم الفرنج ، وخرجوا ليــلا إلى عسقلان فأقاموا بها .

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف . وأخذوا من عند الصخرة (٢) نيفّا وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ٣٦٠٠ درهم ، وأخذوا تَنّورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء .

وورد المستنفَرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهَرَوِى ، فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون ، وأوجع القلوب.

---

(١) هو ما تسميه المصادر الأوروبية برج داود ، وهو فى قلعة القدس .

(٢) هى الصخرة التى بنى عليها مسجد عمر ، ومنه استولى الصليبيون على الغنائم المذكورة . ويقع المسجد الأقصى بالقرب من مسجد عمر . وكثيراً ما تخلط المصادر العربية والأوروبية بين المسجدين .

وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا . وذكر مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحرم والأولاد ونهب الأموال ، فلشدّة ما أصابهم أفطروا .

* * *

واختلف السلاطين على ما نذكره ، فتمكّن الفرنج من البلاد ، فقال أبو المظفّر الآبِيوَرْدِي (١) في هذا المعنى أبياتا منها :

مَزَجْنَا دِماءً بالدّموع السَّواجِمِ
فلم يبقَ منا عُرضَةٌ للمَراحِمِ

وشرُّ سلاح المرءِ دَمْعٌ يُفيضُه
إذا الحربُ شُبَّتْ نارُها بالصَّوارِمِ

فإيهاً ، بنى الاسلام ، إنّ وراءكُم
وقائعَ يُلحقن الذُّرى بالمَناسِمِ

أتَهْوِيمَةٌ في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ
وعيشٍ كنُوّارِ الخَميلةِ ناعمِ ؟

وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها
على هفواتٍ أيقظتْ كلّ نائمِ ؟

وإخوانُكم بالشام يُضحى مَقيلُهم
ظهورَ المذاكى ، أو بطونَ القَشاعِمِ

---

(١) شاعر عراقى من القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

تسومُهُمُ الرومُ الهوانَ ، وأنتُمُ
تجرّون ذيلَ الخَفْضِ فِعلَ المُسالِمِ

وكم من دماءٍ قد أبيحت ، ومن دُمًى
تَــوارَى حيــاءً حُسنُها بالمعــاصمِ

بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحمرةُ الظُّبَى
وسُمْــرُ العــوالِي داميــاتُ اللّهاذِمِ

وبين اختلاس الطعنِ والضرب وقفةٌ
تَظَــلُّ لها الولدانُ شيبَ القوادمِ

وتلك حروبٌ من يغبْ عن غِمارِها
لِيسلَمَ ، يقْرَعْ بعدَها سِنَّ نادمِ

سَلَلْنَ بأيــدى المشركين قواضبــا
ستُغْمَدُ منهم فى الطُّلى والجماجمِ

يــكاد لَهنَّ المُستَجِنُّ بطيبــة (١)
يُنادِي بأعلى الصوت يا آل هاشمِ !

أرَى أمَّتى لايَشْرعَون إلى العِــدَى
رماحَهم ، والدينُ واهى الدعــائمِ

ويجتنبون النار خــوفا من الرَّدَى
ولا يحسَبون العــارَ ضــربةَ لازمِ

---

(١) يقصد الرسول فى قبره بالمدينة .

أترضى صناديد الأعـــاريب بالأذى
ويُغْضِي على ذلٍ كماةُ الأعاجم ؟

(٥)

ذكر ظفر المسْلمين بالفرنج

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، صفحة ٣٠٠]

.. فى ذى القعدة من هذه السنة (٤٩٣هـ/سبتمبر ١١٠٠) ، لقى كمشتكين ابن الدانِشْمند طايلو ، (وإنما قيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلما للتركمان و تقلبت به الأحوال حتى مَلَكَ) . وهو صاحب مَلَطْية وسيواس وغيرهما ، (لقى) بيمند الفرنجى (بوهيموند) ، وهو من مقدّمى الفرنج ، قريب ملطية . وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه إليه ، فورد عليه فى خمسة آلاف ، ، فلقيهم ابن الدانشمند ، فانْهزم بيمند وأُسر .

ثم وصل من البحر سبعة قمامصة (١) من الفرنج ، وأرادوا تخليص بيمند ، فأتوا إلى قلعة تسمى أنكوريّة فأخذوها وقتلـــوا من بها من المسلمين . وساروا إلى قلعة أخرى فيها اسماعيل بن الدانشمند ، وحصروها . فجمع ابن الدانشمند جمعا كثيرا ، ولقى الفرنج ، وجعل له كمينا وقاتلهم ، وخرج الكمين عليهم فلم يفلت أحد من الفرنج ، وكانوا ثلاثمائة ألف ، غير ثلاثة آلاف هربوا ليلا وأفلتوا مجروحين .

(١) جمع قمص وهو الكونت ، كما سبق القول .

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية . فملكها وأسر صاحبها . ثم خرج إليه عسكر الفرنج من أنطاكية ، فلقيهم وكسرهم . وكانت هذه الوقائع فى شهور قريبة .

(٦)

ذكر ما ملك الفرنج من الشام

(من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير الجزء العاشر ص ٣٢٤ و ٣٢٥)

فيها [أى فى سنة ٤٩٣ هـ — ١١٠٠ م] سار كُنُدفرى [جود فرى] ملك الفرنج بالشام ، وهو صاحب البيت المقدس ، إلى مدينة عكا ، بساحل الشام ، فحصرها فأصابه سهم فقتله (١) وكان قد عمّر مدينة يافا وسلّمها إلى قمّص من الفرنج إسمه طنكرى [تانكْرد] . فلما قتل كندفرى سار أخوه بَغْدَوين [بولدوين] إلى البيت المقدّس فى خمسمائة فارس وراجل . فبلغ الملك دقاق ، صاحب دمشق ، خبره ، فنهض إليه فى عسكره ومعه الأمير جنــاح الدولة فى جموعه ، فقاتله ، فنُصِر على الفرنج .

وفيها ملك الفرنج مدينة سَرُوج من بلاد الجزيرة . وسبب ذلك أن الفرنج كانوا قد ملكوا مدينة الرُّها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل . فلما كان الآن ، جمع سُقمان بسروج جمعاً كثيراً من التركمان ، وزحف إليهم ، فلقوه وقاتلوه ، فهزموه فى ربيع الأول [يناير — فبراير ١١٠٠ م] . فلما تمّت الهزيمة على المسلمين

---

(١) تجمع كافة المصادر العربية على أن جودفرى قتل فى الحرب .

سار الفرنج إلى سروج ، فحصروها وتسلموها ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وسَبَوا حريمهم ونهبــوا أموالهم ، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً .

وفيها ملك الفرنج مدينة حيفا ، وهي بالقرب من عكة على ساحل البحر ، ملكوها عَنْوة ، وملكوا أرْسُوف بالأمان، وأخرجوا أهلها منها . وفيها ، فى رجب [مايو] ، ملكوا مدينــة قَيْسارية بالسيف ، وقتلوا أهلها ، ونهبوا ما فيها .

(٧)

ذكر حال صِنجيل الفرنجي وما كان منه فى حصار طرابلس

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، ص ٣٤٣ و ٣٤٤]

كان صنجيل (١) [سان جيل] الفرنجي ، لعنه الله ، قد لقى قِلِيج أرسلان بن سليمان بن قُتُلْمِش : صاحب قونية. وكان صنجيل فى مائة ألف مقاتل (٢) ، وكان قلج أرسلان فى عدد قليل . فاقتتلوا ، فانهزم الفرنج وقتل منهم كثير ، وأسر كثير . وعاد قلج أرسلان بالغنائم والظفر الذى لم يحسبه .

ومضى صنجيل مهزوماً فى ثلاثمائة ، فوصل إلى الشام . فأرسل فخر الملك بن عمار ، صاحب طرابلس إلى الأمير ياخز ، خليفة جناح الدولة على حمص ، فإلى الملك دُقاق بن تُتُش (٣) ، يقول : « من

---

(١) Raymond of Saint-Gilles, Count of Toulouse ، مؤسس أسرة الفرنج الحاكمة فى طرابلس

(٢) لا شك فى أن هذا العدد مبالغ فيه ، وكذا معظم الأعداد الواردة هنا .

(٣) ملك دمشق .

الصواب أن يعالج صنجيل ، إذ هو فى هذه العدّة القريبة » فخرج الأمير ياخز بنفسه ، وسيرّ دقاق ألفى مقاتل . وأتتهم الأمداد من طرابلس ، فاجتمعوا على باب طرابلس ، وصافّوا صنجيل هناك ، فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ، ومائة إلى عسكر دمشق ، وخمسين إلى عسكر حمص ، وبقى هو فى خمسين .

فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة ،وولّوا منهزمين ، وتبعهم عسكر دمشق . وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المـــائة الذين قاتلوهم ، فلما شاهد ذلك صنجيل ، حمـــل فى المائتين الباقيتين ، فكسروا أهـــل طرابلس ، وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل . ونازل صنجيل طرابلس وحصرها .

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها ، وكذلك أهل السواد ، وأكثرهم نصارى. فقاتل من بها أشدّ قتال ، فقتل من الفرنج ثلاثمائة . ثم إنه هادنهم على مال وخيل ، فرحل عنهم إلى مدينة أنْطَرسوس ، وهى من أعمال طرابلس ، فحصرها وفتحها وقتل من بها من المسلمين . ورحل إلى حصن الطُّوبان ، وهو يقارب رَفَنيّة ، ومقدّمه يقال له ابن العريض . فقاتلهم فنصر عليه أهل الحصن. وأسر ابن العريض منه فارساً من أكابر فرسانه . فبذل صنجيل فى فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير ، فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك .

(٨)

ذكر ما فعله الفرنج

[من كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، الجزء العاشر، ص ٣٤٥ و ٣٤٦]

فى هذه السنة [٤٩٥ هـ – ١١٠٢ م] أطلق الدانشمندُ بيمندَ [بوهيموند]، صاحبَ أنطاكية، وكان قد أسره، وقد تقدّم ذكر ذلك. وأخذ منه مائة ألف دينار، وشرط عليه إطلاق إبنة ياغى سيان الذى كان صاحب أنطاكية، وكانت فى أسره.

ولما خلص بيمند من أسره عاد إلى أنطاكية، فقويت نفوس أهلها به. ولم يستقرّ حتى أرسل إلى أهل العواصم وقِنَّسْرِين وما جاورها، يطالبهم بالإتاوة، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التى بناها الدانشمند.

وفيها سار صنجيل إلى حصن الأكراد (١) فحصره. فجمع جناح الدولة عسكره ليسير إليه ويكبسه، فقتله باطنى (٢) بالمسجد الجامع، فقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه مَن قتله. فلما قُتل صبَّح صنجيل حمص من الغد ونازلها، وحصر أهلها وملك أعمالها.

ونزل القُمّص على عكة فى جمادى الآخرة [إبريل ١١٠٢]، وضيّق عليها، وكاد يأخذها، ونصب عليها المنجنيقات والأبراج. وكان له فى البحر ست عشرة قطعة. فاجتمع المسلمون من سائر

---

(١) حصن منيع فى شمال شرق طرابلس، وكان له شأن هام فى تاريخ الحروب الصليبية.

(٢) الباطنية أو الإسماعيلية أو الحشاشون «Assassins» فرقة إسلامية كان لها نشاط إرهابى خطير إبان الحرب الصليبية، وكانوا مصدر متاعب جمة للصليبيين والمسلمين على السواء.

السواحل ، وأتوا إلى منجنيقاتهم وأبراجهم فأحرقوها . وأحرقوا سفنهم أيضاً . وكان ذلك نصراً عجيباً أذلّ الله به الكفار .

وفيها صار القمص الفرنجي صاحب الرُّها إلى بيروت من ساحل الشام ، وحصرها وضايقها ، وأطال المقام عليها ، فلم ير فيها طمعاً فرحل عنها .

وفيها ، في رجب [مايو ١١٠٢] ، خرجت عساكر مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عمّا بقي في أيديهم من البلاد الشامية . فسمع بهم بردويل [بولدوين] صاحب القدس ، فسار إليهم في سبعمائة فارس وقاتلهم ، فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم . وانهزم بردويل فاختفى في أجمة قصب ، فأحرقت تلك الأجمة ولحقت النار بعض جسمه . ونجا منها إلى الرملة فتبعه المسلمون وأحاطوا به ، فتنكّر وخرج منها إلى يافا . وكثر القتل والأسر في أصحابه .

(٩)

ذكر ملك الفرنج جُبَيْل وعكا من الشام

[من كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، ص ٣٧٢ و٣٧٣]

في هذه السنة [٤٩٧ هـ / ١١٠٣ — ١١٠٤ م] ، وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية ، فيها التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك. واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس ، فحصروها معه براً وبحراً ، وضايقوها وقاتلوها أياما ، فلم يروا فيها مطمعاً . فرحلوا عنها إلى مدينة جُبَيل ، فحصروها وقاتلوا عليها قتالا شديداً . فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج ، أخذوا أمانا وسلّموا البلد إليهم . فلم تفِ الفرنج لهم بالأمان ، وأخذوا أموالهم ، واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب.

فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا ؛ استنجدهم الملك بغدوين [بولدوين] ملك الفرنج : صاحب القدس ، على حصارها . فنازلوها وحصروها فى البر والبحر .

وكان الوالى بها اسمه بَنّا ، ويُعرف بزهر الدولة الجيوشىّ ، نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل (١) . فقاتلهم أشدّ قتال ، فزحفوا إليه غير مرّة ، فعجز عن حفظ البلد ، فخرج منه . وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً ، وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة . وسار الوالى إلى دمشق ، فأقام بها ثم عاد إلى مصر ، واعتذر إلى الأفضل فقبل عذره .

---

(١) الأفضل الجمالى : الوزير الفاطمى بمصر .

الفصل الثاني

تتعرض الصفحات التالية ، وهي أيضاً من ابن الأثير لتطورين هامين : الأول ، رد الفعل القـوى لدى المسلمين إزاء هجوم الفرنج على حران ، على الطريق إلى بغداد ، والثاني ، وهو أهم ، للمحالفات بين الفرنج والمسلمين في ذلك الوقت لشن الغارات فيما بينهم . وقد أدّى افتقار المسلمين إلى سياسة موحّدة ، وهو الافتقار الذي ساعد الصليبيين على تحقيق أغراضهم ، إلى سريان عدواه إلى الظافرين أنفسهم ، فلم يتورع بولدوين صاحب الرُّها ، وتانكرد صاحب أنطاكية ، عن التحالف مع أمراء مسلمين متنافسين ، والتنازع فيما بينهما .

(١)

ذكر غزو سُقمان وجِكِرْمِش الفرنج

[من كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، من صفحة ٣٧٣ — ٣٧٥]

لمّا استطال الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا ، تفرّقت حينئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الأهواء ، وتمزّقت الأحوال .

وكانت حرّان لمملوك من مماليك ملكشاه إسمه قَرَاجَه . فاستخلف عليها إنسانا يقال له محمد الأصبهاني . وخرج في العام الماضي ، فعصى

الأصبهانى على قراجة ، وأعانه أهل البلد لظلم قراجه . وكان الأصبهانى جلداً شهما ، فلم يترك بحران من أصحاب قراجه سوى غلام تركى يُعرف بجاولى ، وجعله أصْفَهْسَلار العسكر (١) ،وأنس به . فجلس معه يوماً للشرب .فاتفق جاولى مع خادم له على قتله فقتلاه وهو سكران فعند ذلك سار الفرنج إلى حرّان وحصروها .

فلما سمع معين الدولة سُقمان ، وشمس الدولة جكرْمش (٢)ذلك، وكان بينهما حرب ، وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه (٣) ، وكل منهما يستعد للقاء صاحبه(وأنا أذكر سبب قتل جكرمش له ، إن شاء الله تعالى) أرسل كلّ منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافى أمر حرّان،ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى ، وثوابه ، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه ، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا ، وسارا إلى لقاء الفرنج .

وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك و العرب والأكراد . فالتقوا على نهر البليخ ، وكان المصافّ بينهم هناك . فاقتتلوا ، فأظهر المسلمون الانهزام ، فتبعهم الفرنج نحو فرسخين ، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا . وامتلأت أيدى التركمان من الغنائم ، ووصلوا إلى الأموال العظيمة ، لأن سواد الفرنج كان قريباً (٤) وكان بيمند [بوهيموند] صاحب أنطاكية ، وطنكرى [تانكرد] صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب . فلما خرجا رأيا الفرنج منهزمين ، وسوادهم منهوباً . فأقاما

---

(١) قائد الجند .

(٢) كان الأول أمير حصن كيفا ، و الثانى أمير الموصل .

(٣) أى يطلب الثار منه لقتله ابن أخيه .

(٤) أى أن أراضى الإفرنج كانت قريبة منهم .

إلى الليل وهربا ، فتبعهما المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك ، وأفلتا فى ستة فرسان .

وكان القمص بردويل [بولدوين] صاحب الرُّها ، قد انهزم مع جماعة من قمامصتهم وخاضوا نهر البليخ . فتوحلت خيولهم ، فجاء تركمانىّ من أصحاب سقمان فأخذهم ، وحمل بردويل إلى خيم صاحبه ، وقد سار فيمن معه لاتباع بيمند . فراى أصحاب جكرمش أن أصحاب سقمان قد استولوا على مال الفرنج ، ويرجعون هم من الغنيمة بغير طائل . فقالوا لجكرمش : « أى منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا ؟ » . وحسّنوا له أخذ القُمّص . فأنفذ فأخذ القمص من خيم سقمان . فلما عاد سقمان شق عليه الأمر ، وركب أصحابه للقتال ، فردّهم وقال لهم : « لا يقوم فرح المسلمين فى هذه الغزاة بغمهم باختلافنا . ولا أوثر شفاء غيظى بشماتة الأعداء بالمسلمين » . ورحل لوقته ، وأخذ سلاح الفرنج وراياتهم ، وألبس أصحابه لبسهم ، وأركبهم خيلهم ، وجعل يأتى حصون شَيْحَان ، وبها الفرنج ، فيخرجون ظنا منهم أن أصحابهم نُصروا ، فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم . فعل ذلك بعدّة حصون .

وأما جكرمش فإنه سار إلى حرّان فتسلمها ، واستخاف بها صاحبه ، وسار إلى الرها فحصرها خمسة عشر يوما . وعاد إلى الموصل ومعه القمص الذى أخذه من خيام سقمان ، ففاداه بخمسة وثلاثين دينارا(١) ، ومائة وستين أسيرا من المسلمين . وكان عدّة القتلى من الفرنج يقارب اثنى عشر ألف قتيل .

---

(١) كذا فى الأصل ، والأرجح أن تكون قيمة الفدية ٣٥٠٠٠ دينار .

(٢) الأمير التركى الذى استولى على الموصل من جكرمش والذى أسر بولدوين .

(٢)

ذكر إطلاق جاولى للقُمَّص الفرنجى

[من كتاب الكامل فى التاريخ « لابن الأثير » الجزء العاشر ، صفحة ٤٦٠]

لما وصل [جاولى] (١) إلى ماكِسين ، أطلق القُمص الفرنجى كان أسيرا بالموصل وأخذه معه . واسمه بردويل [بولدوين] . وكان صاحب الرُّها وسَروج وغيرهما ، وبقى فى الحبس إلى الآن ، وبذل الأموال الكثيرة فلم يُطلق . فلما كان الآن أطلقه جاولى ، وخلع عليه . وكان مقامه فى السجن ما يقارب خمس سنين [من ١١٠٤ — ١١٠٨ م] . وقرّر عليه أن يفدى نفسه بمال ، وأن يطلق أسرى المسلمين فى سجنه ، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله .

فلما اتفقا على ذلك سيّر القمص إلى قلعة جَعْبَر ، وسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك ، حتى ورد عليه ابن خالته جوسلين ، وهو من فرسان الفرنج وشجعانها ، وهو صاحب تل باشِر وغيره . وكان أُسر مع القمص فى تلك الوقعة ، ففدى نفسه بعشرين ألف دينار . فلما وصل جوسلين إلى قلعة جعبر أقام رهينة عوض القمص ، وأُطلق القمص ، وسار إلى أنطاكية وأخذ جاولى جوسلين من قلعة جعبر فأطلقه ، وأخذ عوضه أخا زوجته، وأخا زوجة القمص. وسيّره إلى القمص ليقوى به ، وليحثه على إطلاق الأسرى وإنفاذ المال وماضمنه . فلما وصل جوسلين إلى مَنْبِج أغار عليها ونهبها . وكان معه جماعة من أصحاب جاولى ، فأنكروا عليه ذلك ونسبوه إلى الغدر . فقال : إن هذه المدينة ليست لكم .

---

(١) الأمير التركى الذى استولى على الموصل من جكرمش والذى أسر بولدوين .

(٣)

ذكر ما جرى بين هذا القمص وبين صاحب أنطاكية

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر :
ص ٤٦١ و ٤٦٢]

لما أطلق القمص وسار إلى أنطاكية ، أعطاه طنكرى [تانكرد] صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلا وسلاحا وثيابا وغير ذلك . وكان طنكرى قد أخذ الرّها من أصحاب القمص حين أسر ، فخاطبه الآن فى ردّها عليه ، فلم يفعل فخرج من عنده إلى تل باشر . فلما قدم عليه جوسلين ، وقد أطلقه جاولى ، سرّه ذلك وفرح به .

وسار إليه طنكرى ، صاحب أنطاكية ، بعساكره ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكرا ، ويلتحق بها جاولى وينجدهما . فكانوا يقتتلون ، فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا ، وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا !

وأطلق القمص من الأسرى المسلمين . مائة وستين أسيرا ، كلهم من سواد حلب ، وكساهم وسيّرهم .

وعاد طنكرى إلى أنطاكية من غير فصل حال فى معنى الرّها . فسار القمص وجوسلين وأغارا على حصون طنكرى ، صاحب أنطاكية ، والتجآ إلى ولاية كَواسيل ، وهو رجل أرمنى ، ومعه خلق كثير من المرتدين (١) وغيرهم ، وهو صاحب رَعْبان وكَيْسوم وغيرهما من القلاع شمالىّ حلب . فأنجد القمص بألف فارس من المرتدين ،

(١) يقصد المرتدين عن الإسلام إلى المسيحية .

وألفى راجل . فقصدهم طنكرى ، فتنازعوا فى أمر الرّها ، فتوسّط بينهم البَطْرك(١) الذى لهم ، وهو عندهم كالإمام الذى للمسلمين ، لا يخالف أمره ، وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين أن بيمُند [بوهيموند] خال طنكرى قال له لما أراد ركوب البحر والعود إلى بلاده ، أن يعيد الرها إلى القمص إذا خلص من الأسر . فأعادها عليه طنكرى تاسع صفر [٥٠١ هـ / ٢٩ سبتمبر ١١٠٨ م] . وعبر القمص الفرات ليسلم إلى أصحاب جاولى المال والأسرى ، فأطلق فى طريقه خلقا كثيرا من الأسرى من حرّان وغيرها .

وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضَعَفَى ، فعمّر أصحاب جاولى مساجدهم . وكان رئيس سروج مسلما قد ارتدّ ، فسمعه أصحاب جاولى يقول فى الإسلام قولا شنيعا ، فضربوه . وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع ، فذُكر ذلك للقمص : فقال : « هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين » ، فقتله .

(٤)

ذكر الحرب بين جاولى والفرنج

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الاثير ، الجزء العاشر ، ص ٤٦٤ — ٤٦٦]

وفى السنة [التالية] ، فى صفر [٥٠٢ هـ / سبتمبر ١١٠٩ م] كان المصاف بين جاولى سقاوو وبين طنكرى الفرنجى صاحب أنطاكية .

وسبب ذلك أن الملك رضوان [صاحب حلب] ، كتب إلى طنكرى صاحب أنطاكية يعرّفه ما هو جاولى عليه من الغدر والمكر والخداع ، ويحذره منه ، ويعلمه أنه على قصد حلب ، وأنه إن ملكها لا يبقى

---

(١) بطرك الرها .

للفرنج معه بالشام مقام . وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه . فأجابه طنكرى إلى منعه وبرز من أنطاكية ، فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس . فلما سمع جاولى الخبر أرسل إلى القمص صاحب الرُّها يستدعيه إلى مساعدته ، وأطاق له ما بقى عليه من مال المفاداة . فسار إلى جاولى فلحق به وهو على منْبِج . فوصل الخبر إليه ، وهو على هذه الحـال ، بأن الموصل قد استولى عليها عسكر السلطان (١) ، وملكوا خزائنه وأمواله . فاشتد ذلك عليه ، وفارقه كثير من أصحابه، منهم أتابك زنكى بن آقسنقر (٢) ، وبكتاش النهاوندى ، وبقى جاولى فى ألف فارس ، وانضم إليه خلق من المطوِّعة (٣) ، فنزل بتل باشر .

وقاربهم طنكرى وهو فى ألف وخمسمائة فارس من الفرنج ، وستمائة من أصحاب الملك رضوان ، سوى الرَّجَّالة . فجعل جاولى فى ميمنته الأمير أقسيان ، والأمير التونتاش الأبرىّ ، وغيرهما ، وفى الميسرة الأمير بدران بن صَدَقة ، وأصبهبذ صباوة ، وسُنْقر دراز ، وفى القلب القمص بغدوين [بولدوين] وجوسلين الفرنجيين . ووقعت الحرب ، فحمل أصحاب أنطاكية على القمص صاحب الرها ، واشتد القتال ، فأزاح طنكرى القلب عن موضعه ، وحملت ميسرة جاولى على رجّالةصاحب أنطاكية فقتلت منهم خلقا كثيراً، ولم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية . فحينئذ عمد أصحاب جاولى إلى جنائب القمص وجوسلين وغيرهما من الفرنج . فركبوها وانهزموا فمضى جاولى وراءهم ليردّهم ، فلم يرجعوا . وكانت طاعته قدزالت عنهم حين أخذت الموصل منه . فلما

---

(١) السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه (١١٠٤ — ١١١٧) وهو السلطان على كافة هؤلاء الأمراء

(٢) الأتابك الشهير ، والد نور الدين محمود .

(٣) أى من المتطوعين .

رأى أنهم لا يعودون معـــه أهمّته نفسه ، وخاف من المقام فانهزم ، وانهزم باقى عسكره .

فأما أصبهبذ صنباوة فسار نحو الشام . وأما بدران بن صدقة فسار إلى قلعة جعبر . وأما ابن جكرمش فقصد جزيرة ابن عمر . وأما جاولى فقصد الرَّحبة . وقتل من المسلمين خلق كثير ، ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم ، وعظم البلاء عليهم من الفرنج . وهرب القمص وجوسلين إلى تل باشر ، والتجأ إليهما خلق كثير من المسلمين ، ففعلا معهم الجميل وداويا الجرحى ، وكسوا العراة . وسيّراهم إلى بلادهم .

الفصل الثالث

تقدم لنا الصفحات التالية من ابن القلانسي صورة حية دقيقة لسقوط المدن الساحلية الشامية ،طرابلس وبيروت وصيدا ثم صور ، ولرد الفعل الذى أحدثه تدفق غزاة الفرنجة ، فى عاصمة الخلافة الإسلامية ، بغداد . لقد أزعج الرأى العام الإسلامى روايات اللاجئين من الشام عن الأحداث ، وطالب الخليفة والسلطان السلجوقى بالتدخل العسكرى الحاسم ، فوعداه ، كالعـــادة ، « بالمسير إلى الجهاد ».

(١)

[ذكر ملك الفرنج طرابلس]

[من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى ص ١٦٣ — ١٦٤]

فى شعبان من هذه السنة [٥٠٢ هـ / مارس ١١٠٩] وصل [برتران] (١) ابن صنجيل ، الذى كان نازلا على طرابلس ، من بلاد الأفرنج ، فى جملة ستين مركبا فى البحر ، مشحونا بالأفرنج والجنويين (٢) . فنزل

---

(١) فى الأصل « ريمند » ، والصحيح ما أثبتناه وهو برتران بن ريموند دوسان جيل . وكان والده سان جيل قد توفى عام ١١٠٥ دون أن يحقق أمله فى الاستيلاء على طرابلس . وقد خلفه الكونت دو سردانى أحد أقربائه ، حتى وصل برتران ، الذى يسميه العرب بدران ، للمطالبة بحقه .

(٢) أى أهل جنوا بإيطاليا .

على طرابلس، ووقع بينه وبين السرداني (١) ابن أخت صنجيل مشاجرة . ووصل طنكرى صاحب أنطاكية إليه لمعونة السرداني ، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره ، فأصلح بينهم . وعاد السرداني إلى عرقة ، ووجد بعض الإفــرنج في زرعها، فأراد ضربه، فضربه الافرنجي فقتله ، ولما بلغ الخبر برتران بن صنجيل ، وجه من تسلم عرقة من أصحابه (٢) .

ونزل الإفرنج بمجموعهم وحشدهم على طرابلس ، وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها منذ أول شعبان إلى الحادي عشر من ذى الحجة من السنة [من ٦ مارس إلى ١٢ يوليو ١١٠٩] . وأسندوا أبراجهم إلى السور . فلما شاهد أهل البلد الجند والمقاتلة، سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك وذلت نفوسهم ،لاشتمال اليأس من تأخر وصول الأسطول المصرى في البحر والميرة(٣) والنجدة . وكانت علة الأسطول أزيحت وسير الريح تردده لما يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضي (٤) : فشد الافرنج القتال عليها وهجومها من الأبراج ، فملكوها بالسيف في يوم الأثنين ١١ من ذى الحجة من السنة [١٢ يوليو ١١٠٩ م] ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها (٥) وما كان منها في خزائن أربابها مالا يحد عدده ولا تحصر فيذكر . وسلم الوالي بها وجماعة من جنده كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها ، فلما ملكت أطلقوا ،ووصلوا إلى دمشق بعد أيام من

---

(١) « Count of Cerdagne » .

(٢) أى من أصحاب السرداني المقتول .

(٣) الميرة : المؤن .

(٤) أى أن شحة المؤن والرياح المعاكسة عطلت وصول الأسطول المصرى .

(٥) هى مكتبة ومدرسة شهيرتان أقامهما بنو عمار من أمراء طرابلس .

فتحها . وعوقب آهلها واستُصفيت أموالها واستثيرت ذخائرها من مكانها ونزل بهم أشد البلاء ومؤلم العذاب .

وتقرر بين الأفرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد وما نُهب منه ، والثلثان لبرتران بن صنجيل . وأفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به . وكان طنكرى لما لم ينل ما أراد من نصرة السرداني قد عاد ونزل بانياس وافتتحها وأمّن أهلها فى شوال من السنة [مايو ١١٠٩] ، ونزل على ثغر جبيل (١) وفيه فخر الملك ابن عمّار ، والقوت فيه نزر قليل . فلم يزل مضايقا له ولأهله إلى يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة [٢٣ يوليو ١١٠٩] . فراسلهم وبذل لهم الأمان ، فأجابوه إلى ذلك . فتسلمه بالأمان ، وخرج منه فخر الملك ابن عمار سالما ، وقد وعده بإحسان النظر والإقطاع . ووصل عقيب ذلك الأسطول المصرى ، ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعُدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة ، مع تقوية ما فى المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله (٢) . ووصل إلى صور فى يوم الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها . وأقام بالساحل مدة وفرقت الغلة فى جهاتها . وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت ، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الإفرنج . ولم يمكن الاسطول المقام ، فأقلع عائدا عند استقامة الريح إلى مصر .

---

(١) لا شك أن ابن القلانسي يقصد جبلة لا جبيل . فقد سبق أن ذكرنا أن سان جيل كان قد استولى على جبيل عام ١١٠٤ . أما جبلة فبلدة تقع شمالى طرابلس .

(٢) أى تقوية ما يملكه فاطميو مصر من ثغور الشام .

(٢)

[ذكر ملك الفرنج بيروت]

[من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي ، ص ١٦٧—١٦٨]

وفى هذه السنة [٥٠٣ هـ / ١١٠٩ — ١١١٠ م] خرج طنكرى فى حشده ولفيفه المخذول إلى الثغور الشامية فملك طرسوس وماوالاها ، وأخرج صاحب ملك الروم منها وعاد إلى أنطاكية . ثم خرج إلى شيزر وقرّر عليها عشرة آلاف دينار مُقاطعة (١) تُحمل إليه ، بعد أن عاث فى عملها . ونزل على حصن الأكراد فتسلّمه من أهله ، وتوجّه إلى عرقة . وكان الملك بغدوين وابن صنجيل قد نزلا على ثغر بيروت برا وبحرا ، فعاد طنكرى إلى أنطاكية . وسار جوسلين صاحب تل باشر إلى ثغر بيروت لمعاونة النازلين عليه من الافرنج ، ويستنجد بهم على عسكر الأمير مودود (٢) النازلين على الرها . وشرع الافرنج فى عمل البرج ونصبه على سور بيروت . فحين نجز وزحفوا به ، كُسر بحجارة المجانيق وأفسد فشرعوا فى عمل غيره ، وعمل ابن صنجيل برجاً آخر .

ووصل فى [هذا] الوقت من أسطول مصر فى البحر تسعة عشر مركبا حربية . فظهروا على مراكب الإفرنج ، وملكوا بعضها ، ودخلوا بالميرة إلى بيروت ، فقويت بها نفوس من فيها من الرعية . وأنفذ الملك بغدوين إلى السويدية (٣) يستنجد بمن فيها من الجنوية فى مراكبهم . فوصل منها إلى بيروت أربعون مركبا مشحّنة بالمقاتلة . فزحف الإفرنج فى البر والبحر إليها بأسرهم فى يوم الجمعة ١١ من شوال [١٣ مايو ١١١٠] ، ونصبوا

---

(١) جزية أو إتاوة .

(٢) قال سبط ابن الجوزى إنه ، أى الأمير مودود ، كان قد طرد جاولى عن الموصل وملك الجزيرة بأمر السلطان السلجوقى .

(٣) ميناء مدينة أنطاكية .

على نسور برجين ، واشتدوا فى القتال فقُتل مقُدم الأسطول المصرى وخلق كثير من المسلمين ، ولم ير الإفرنج مما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا . وانخذل الناس فى البلد وأيقنوا بالهلاك . فهجم الإفرنج على البلد آخر نهار هذا اليوم فلكوه بالسيف قهرا وغلبة . وهرب الوالى الذى كان فيه فى جماعة من أصحابه ، وحُمل إلى الإفرنج فقُتل ومن كان معه ، وغنموا ما كان استصحبه من المال . ونُهب البلد وسُبى من كان فيه وأسر ، واستُصفيت أموالهم وذخائرهم . ووصل عقيب ذلك من مصر ثلثمائة فارس نجدة لبيروت . فحين حصلوا بالأردن خرجت عليهم فرقة من الإفرنج يسيرة العدد ن فانهزموا منهم إلى الجبال ، فهلك منهم جماعة .

فلما تقرر أمر بيروت ، رحل الملك بغدوين فى الإفرنج ونزل على ثغر صيدا وراسل أهله يلتمس منهم تسليمه فاستمهلوه مدة عيّنوها ، فأجابهم إلى المهلة بعد أن قرر عليهم ستة آلاف دينار تحمل إليه مقاطعة ، وكانت قبل ذلك ألفي دينار (١) . ورحل عنها إلى بيت المقدس للحج .

(٣)

[ذكر ملك الفرنج صيدا]

[من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى ، ص ١٧١]

ووردت الأخبار فى هذه السنة [٥٠٣ ﻫ / ١١٠٩ — ١١١٠] بوصول بعض ملوك الإفرنج (٢) فى البحر ، ومعه نيف وستون مركبا مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو فى بلاد الإسلام . فقصد بيت المقدس وتوجه إليه بغدوين واجتمع معه ، وتقرر بينهما قصد البلاد الإسلامية . فلما عادا

---

(١) أى أنه كان قد طلب قبل ذلك ألفي دينار ، ثم رفعها إلى ستة آلاف .

(٢) هو سيجورد الأول ملك النرويج .

من بيت المقدس نزلا على ثغر صيدا فى ٣ شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ [١٩ أكتوبر ١١١٠ م] وضايقوه برا وبحرا ، وكان الأسطول المصرى مقيما على ثغر صور ،، ولم يتكن من إنجاد صيدا . فعملوا البرج وزحفوا به إليها وهو ملبس بخطب الكروم والبسط وجلود البقر الطرية تمنع من الحجارة والنفط . وكانوا إذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكـر(١) تركب تحته ، فى عدة أيام متفرقة . فإذا كان يوم الحرب وقرب من السور ، زحفوا به وفيه الماء والخل لطفى النار ، وآلة الحرب .

فلما عاين من بصيدا هذا الأمر ضعفت نفوسهم ،وأشفقوا من مثل نوبة بيروت . فأخرج إليها قاضيها وجماعة من شيوخها ، وطلبوا من بغدوين الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وامنهم ، والعسكرية معهم ، على النفوس والأموال وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق . واستحلفوه على ذلك وتوثقوا منه . وخرج الوالى والزمام(٢) وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من أهل البلد ، وتوجهوا إلى دمشق لعشر بقين من جمادى [الأولى] سنة ٥٠٤ هـ [٤ ديسمبر ١١١٠ م] . وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما . ورتب بغدوين الأحوال بها والحافظين لها ، وعاد إلى بيت المقدس. ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى صيدا ، فقرر على من أقام بها نيفا وعشرين ألف دينـار ، فأفقرهم واستغرق أحوالهم ، وصـادر من عـلم أن له بقية منهم(٣) .

(١) عجلات .
(٢) صاحب الخزانة .
(٣) أى صادر من علم أنه أخفى أموالا له .

(٤)

[وقع أحداث الشام فى بغداد]

[من كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسى صفحة ١٧٣ — ١٧٤]

وفيها وصل السلطان غياث الدنيا والدّين محمد بن ملكشاه من همذان إلى بغداد فى جمادى الأولى منها [٥٠٤ هـ / نوفمبر — ديسمبر ١١١٠ م] . ووردت الكتب والرسل إليه من الشام بإنهاء الحال وما جرى من الإفرنج بعد عودهم عن الفرات ، ونوبة صيدا والأثارب وأعمال حلب . ولما كان أول جمعة من شعبان ، حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب ، وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء ، إلى جامع السلطان ببغداد ، فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه ، وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال ، ومنعوا الناس من الصلاة ، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان بما يُسكّنهم من إنفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الإفرنج والكفار . وعادوا فى الجمعة الثانية المصير إلى جامع الخليفة (١) وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب . ووصلت عقيب ذلك الخاتون السيدة أخت السلطان زوجة الخليفة إلى بغداد من أصفهان ، ومعها من التجمّل والجواهر والأموال والآلات وأصناف المراكب والدواب والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجوار والحواشي مالا يدركه حزر فيُحصر ، ولا عدّ فيذكر . واتفقت هذه الاستغاثة فتكدّر ما كان صافيا من الحال والسرور بمقدمها . وأنكر الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين ماجرى ، وعزم على طلب من كان الأصل والسبب ليوقع به

---

(١) كان لبغداد فى ذلك الحين حاكمان : الخليفة العباسى ، وسيادته صورية بحتة ، والسلطان السلجوقى ، وهو الحاكم الفعلى لفارس والعراق وإقطاعيات الشام . وكانت وشائج المصاهرة تربط أحياناً بين الخليفة والسلطان ، غير أن العلاقات بينهما لم تكن دائماً على خير وجه .

المكروه . فمنعه السلطان من ذلك، وعذر الناس فيما فعلوه، وأوعز إلى الأمراء والمقدَّمين بالعود إلى أعمالهم ، والتأهب للمسير إلى جهاد أعداء الله الكفار .

وفى جمادى الآخرة منها [ديسمبر ١١١٠ - يناير ١١١١] وأصل رسول متملك الروم (١) بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الإفرنج والإيقاع بهم ، والاجتماع على طردهم من هذه الأعمال، وترك التراخي فى أمرهم ، واستعمال الجدّ والاجتهاد فى الفتاك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم ، ويقول إنه قد منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم ، فإن طمعوا فيها بحيث تتواصل عساكرهم وإمدادهم إلى البلاد الإسلامية ؛ احتاج إلى مداراتهم وإطلاق عبورهم ومساعدتهم على مقاصدهم وأغراضهم للضرورات القائدة إلى ذلك ، ويبالغ فى الحث والتحريض على الاجتماع على حربهم ، وقلعهم من هذه الديار بالاتفاق عليهم .

(٥)

[ذكر حصار الفرنج لصور]

[من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي ، من صفحة ١٧٨ - ١٨١]

وفى هذه السنة [٥٠٥ هـ / ١١١١ - ١١١٢ م] جمع بغدوين الملك من أمكنه جمعه من الأفرنج ، وقصد ثغر صور . فبادر عز الملك واليه وأهـــل البلد بمراسلة ظهير الدين أتابك [طغتكين] بدمشق يستصرخون به ويستنجدونه ، ويبذلون تسليم البلد إليه ، ويسألونه المبادرة والتعجيل بإنفاذ عدّة وافرة من الأتراك تصل إليهم سرعة لمعونتهم وتقويتهم ؛ وإن تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الأفـــرنج ، ليأسهم من نُصرة الأفضل صاحب مصر .

---

(١) هو الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨)

فبادر أتابك بإنفاذ جماعة وافرة من الأتراك بالعُدد الكاملة تزيد على المائتين فرسانا رماة أبطالا . فوصلت إليهم ، وأتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة رغبوا فى ذلك، مع رجالة من دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عندهم . وشرع أتابك فى إنفاذه عدة أخـرى . فحين عرف بغدوين ما تقرر بين أتابك وأهل صور بادر النزول عليها فيمن جمعه وحشده فى ٢٥ من جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ (٢٩ نوفمبر ١١١١م)، وتقدّم بقطع الشجر والنخل ، وبنى بيوت الإقامة عليها ، وزحف إليها فقاتلها عدة دفعات ويعود خاسرا لم ينل منها غرضا . وقيل إن أهل صور رشقوا فى بعض أيام مقاتلتها فى يوم واحد بعشرين ألف سهم .

وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور ، وخيمّ ببانياس ، وبثّ سراياه ورجالة الحرامية فى أعمال الإفرنج ، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والإخراب والحرق طلبا لإزعاجهم وترحيلهم عنها ، فتدخل العدّة الثانية إلى صور . فلم يتمكن من الدخول . ونهض ظهير الدين إلى الحَبيس الذى فى السواد (١) ، وهو حصن منيع لا يُرام ، فشدّ القتال عليه ، وملكه بالسيف قهرا ، وقتل من كان فيه قسرا . وشرع الإفرنج فى عمل بُرْجَيْن خشب للزحف بهما إلى سور صور . وزحف ظهير الدين إليهم عدّة دفعات ليشغلهم ، بحيث يخرج عسكر صور فيحرق البرجين. وعرف الافرنج قصده فى ذلك ، وخندقوا عليهم من جميع الجهات ، ورتبوا على الخندق الرجال بالسلاح لحفظه وحفظ الأبراج ، ولم يحفلوا بما يفعل وما يجرى على أعمالهم من الغارات عليها والفتك بمن فيها .

وهجم الشتاء فلم يضرّ بالافرنج لأنهم كانوا نزولا فى أرض رملة صلبة ، والأتراك بالضدّ من ذلك ، قد كابدوا من مقامهم شدة عظيمة

---

(١) الحبيس : اسم حصن وراء نهر الأردن .

ومشقة مؤلمة . إلا أنهم لايخلون من غارة وقائدة وقطع ميرة عن الافرنج ومادة وأخذ مايحمل إليهم .

وقطع الأتراك الجسر الذى كان يُعبر عليه إلى صيدا ليقطع المادة أيضا عنها . فعدلوا (أى الافرنج) عن ذلك إلى استدعاء الميرة فى البحر من جميع الجهات . ففطن ظهير الدين الملك ونهض فى فريق من العسكر إلى ناحية صيدا ، وغار على ظاهرها ، فقتل جماعة من البحرية وأحرق تقدير عشرين مركبا على الشط ، وهو مع ذلك لا يُهمل إصدار الكتب إلى أهل صور بتقوية قلوبهم وتحريضهم على استعمال المصابرة للإفرنج ، والجدّ فى قتالهم .

وتم عمل البرجين وكباشهما (١) التى تكون فيهما فى تقـــدير خمسة وسبعين يوما ، وشرع (الإفرنج) فى تقديمهما والزحف بهما فى عاشر شعبان [١١ فبراير] ، وقرّبا من سور البلد ، واشتد القتال عليهما وكان طول البرج الصغير منهما نيفا وأربعين ذراعا ، والكبير يزيد على الخمسين ذراعا . ولما كان أول شهر رمضان [٢ مارس] خرج أهل صور من الأبراج بالنفط والحطب والقطران وآله الحرق ، فلم يتمكنوا من الوصول إلى شئ منهما . فألقوا النار قريبا من البرج الصغير بحيث لم يتمكن الأفرنج من دفعها . فهبت ريح وألقت النار على البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة الشديدة عليه ، والمكافحة العظيمة عنه . ونهب منه زرَديات كثيرة وطوارق وغير ذلك . واتصلت النار بالبرج الكبير . واتصل الخبر بالمسلمين بأن الافرنج قد هجروا حربة البلد للاشتغال بحريق البرج ، وانثنوا عن المقاتلة على الأبراج ، وشد الإفرنج عليهم وكشفوهم عن البرج ، وأطفأوا ما علق به من النار ، ورتبو عدة وافرة من أبطالهم لحفظ البرج والمنجنيقات من جميع

---

(١) الكباش : آلة حربية كانت تستخدم فى دك أسوار المدن المحاصرة .

الجهات . وواظبوا الزحف إليها إلى آخر شهر رمضان . وقرّبوا البرج إلى بعض أبراج البلد ، وطمّوا (١) الثلاثة الخنادق التى أمامه . وعمد أهل البلد إلى تعليق حائط البرج الذى بإزاء برج الإفرنج ، وأطلقوا النار فيه ، فاخترق التعليق وسقط وجه الحائط فى وجه البرج ، فمنع من تقديمه إلى السور والزحف به ، وصار الموضع الذى قصدوه قصيرا وأبراج البلد تحكم عليه ، وبطل تقديمه من ذلك الوجه . وكشف الإفرنج الردم ، وجرّوه إلى برج آخر من أبراج البلد ، ودفعوه إليه ، وقربوه من سور البلد ، وصدموا بالكباش التى فيه السور فزعزعوه ، ووقع منه شئ من الحجارة ، وأشرف أهل البلد مع الهلاك . فعمد رجل من مقدّمى البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب ، إلى عمل كلاليب حديد تمسك الكبش إذا نطح به السور من رأسه ومن جانبه بحبال يجذبها الرجال ، حتى يكاد البرج الخشب يميل من شدة جذبهم بها ، فتارة تكسره الافرنج [أى تكسر الكبش] خوفا [على] البرج ، وتارة يميل [الكبش] أو يفسد ، وتارة ينكسر بصخرتين تُلقيان عليه من البلد ، مشدودة أحداهما إلى الأخرى . فعملوا عدة من الكباش وهى تُكسر على هذه الصفة واحدا إبعد واحد . وكان طول كل واحد منها ستين ذراعا ، معلّقا فى البرج الخشب بحبال ، فى رأس كل واحد من الكباش حديد يزيد وزنه على عشرين رطلا . فلما طال تجديد الكباش وقربوا البرج من السور ، عمد هذا الرجل البحرى المقدّم ذكره إلى خشبة طويلة جافية قوية أقامها فى برج البلد الذى بإزاء برج الإفرنج ، وفى رأسها خشبة على شكل الصليب طولها أربعون ذراعا ، تدور على بكر بلولب كيفما أراد متولّيها ، على مثال ما يكون فى الصوارى البحرية . وفى طرف الخشبة التى تدور ، سهم حديد ، وفى طرفها الآخر حبال مُدارة بها على ما يريد متوليها ، وكان يرفع فيها جرار الكذر

---

(١) أى : ردموا .

والنجاسة (١) ليشغلهم بطرح ذلك عليهم فى البرج عن الكباش. وضاق الأمر بالناس ، وشغلهم ذلك عن أمواهم وأشغالهم . وعمد البحرى المذكور إلى سلال العنب والقفاف ، فيجعل فيها الزيت والقير (٢) والسراقة(٣) والقلفونية (٤) وقشر القصب ،ويطلق فيها النار . فإذا علقت بذلك، وقع ذلك فى الآلة المذكورة حتى يوازى برج الإفرنج ، فتقع النار فى أعلى البرج ، فيبادروا بإطفائها بالخل والماء ، فيبادر برفع أخرى . ومع هذا يرمى أيضا بالزيت المغلى فى قدور صغار على البرج ، فيعظم الوقيد . فلما كثرت النار وحمل بعضها بعضا وقويت، قهرت الرجلين المتوليين لرأس البرج، وقتل أحدهما، وانهزم الآخر ونزل منه، فتمكنت النار من رأسه، ونزلت إلى الطبقة الثانية من رأسه ، ثم إلى الوسطى ، وعملت فى الخشب ، وقهرت من كان حوله فى الطبقات ، وعجزوا عن أطفائها ، وهرب كل من فيه وحوله من الإفرنج : وخرج أهل صور إليه فنهبوا ما فيه ، وغنموا من السلاح والآلات والعدد ما لا يحده وصف .

فعند ذلك وقع يأس الإفرنج منه ، وشرعوا فى الرحيل عنه ، وأحرقوا البيوت التى كانوا قد عمروها فى المنزل لسكناهم ، وأحرقوا كثيرا من المراكب التى كانت لهم على الساحل ، لأنهم كانوا أخذوا صواريها وأرجلها وآلاتها للأبراج . وكانت عدتهم تقدير مائتى مركب كبارا وصغارا، منها تقدير ثلاثين مركبا حربية. وحملوا فى بعضها ما خف من أثقالهم، ورحلوا فى العاشر من شوال من السنة [١٠ إبريل ١١١٢] ، وكانت مدة إقامتهم على محاصرة صور أربعة أشهر ونصف شهر . وقصدوا عكا وتفرقوا إلى أعمالهم . وخرج أهل صور وغنموا ما ظفروا به منهم .

---

(١) القمامة والخراء .
(٢) الزفت .
(٣) قشارة الخشب .
(٤) الصمغ .

وعادت الأتراك المندوبون لإسعادهم إلى دمشق وقد فقد منهم فى الحرب نحو عشرين رجلا ، وكان لهم فيها الجراية والواجب فى كل شهر . ولم يتم على برج من أبراج الإفرنج ، فى القديم والحديث ، مثل ما تمّ على هذا البرج من إحراقه رأسه إلى أسفله . والذى أعان على هذا هو تساوى البرجين فى الارتفاع (١) ولو طال أحدهما على الآخر لهلك أقصرهما . وكان عدد المفقودين من أهل صور أربعمائة نفس ، ومن الإفرنج فى الحرب أيضا — على ماحكى الحاكى العارف — تقدير ألفى نفس . ولم يفِ أهل صور بما كانوا بذلوه لظهير الدين أتابك من تسليم البلد إليه ، ولم يظهر لهم فى ذلك قولا ، وقال « إنما فعلتُ ما فعلت لله تعالى وللمسلمين ، لا رغبة فى مال ولا مملكة » . فكثر الدعاء له ، والشكر بحسن فعاله . ووعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا ، سارع إليه ، وبالغ فى المعونة عليه . وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقّة فى مقابلة الإفرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور . وشرع أهل صور فى ترميم ما شعّثه الإفرنج من سورها ، وأعادوا الخنادق إلى حالها ورسمها بعد طمّها ؛ وحصنوا البلد ، وتفرق من كان فيه من الرجّالة (٢)

---

(١) يقصد برج الصليبيين المستخدم فى الحصار ، وذلك البرج بالمدينة المواجه له .

(٢) عاد طغتكين إلى مساعدة صور وحمايتها فى وقائع أخرى تالية ، غير أن الإفرنج تمكنوا فى النهاية من قهره عام ١١٤٢ م .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الفصل الرابع

لم تأت الضربة القوية الأولى ضد الفرنجة من بغداد ، وإنما نتيجة العمل المشترك الذى قام به الأمير إيلغازى صاحب ماردين ، و طغتكين أتابك دمشق. و قد شن إيلغازى عام ١١١٩ هجوما مفاجئاً على روجر صاحب أنطاكية فى البلاطة غربى حلب ، و هزمه فى معركة طاحنة و قتله . و فيما يلى روايتان لهذه المعركة ، الأولى لكمال الدين بن العديم ، وهى أصدق و أضبط الروايات عن هذا الحدث ، و الثانية لابن القلانسى الذى يعلق فيها على عجز المسلمين عن استعادة أنطاكية .

(١)

ذكر هزيمة روجير صاحب أنطاكية فى البلاطة ومصرعه

[من كتاب « زبدة الحلب من تاريخ حلب » لكمال الدين بن العديم ؛ الجزء الثانى ، ص ١٨٧ — ١٩٠]

وتوجه إيلغازى إلى ماردين ومعه أتابك (طغتكين) . وراسلا مَن بَعُد وقرُب من عساكر المسلمين والتركمان ، فجمعا عسكراً عظيما . وتوجه إيلغازى فى عسكر يزيد عن أربعين ألفاً فى سنة ٥١٣ [١١١٩]، وقطع الفرات من عَبَرْ بدايا وسَنجة . وامتدت عساكره فى أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنمـوا كل ما قدَروا عليه .

ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب ، وإياس أهلها من أنفسهم . فسار إلى مرج دابق ، ثم إلى المسلمية ، ثم إلى قنسرين فى أواخر صفر من سنة ٥١٣ [يونيو ١١١٩] . وسارت سراياه فى أعمال الرّوج والفرنج يقتلون ويأسرون. وأخلوا حصن قسطون فى الروج . وجمع سرجال [سير روجر] ، صاحب أنطاكية ، الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج إلى جسر الحديد ، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاطة بين جبلين مما يلى درب سرمدا شمالى الأثارب ، وذلك فى يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول [٢٠ يونيو ١١١٩] .

وضجر الأمراء من طول المقام ، وإيلغازى ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه . فاجتمعوا وحثّوا إيلغازى على مناجزة العدو . فجدّد إيلغازى الأيمان على الأمراء والمقدّمين ، أن يُناصحوا فى حربهم ويُصابروا فى قتال العدو ، وأنهم لا ينكلون، ويبذلون مُهَجَهُم فى الجهاد . فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة .

وسار المسلمون جرايد ، وخلّفوا الخيام بقنسرين ، وذلك فى يوم الجمعة ١٦ من شهر ربيع الأول [٢٧ يونيو] . فباتوا قريبا من الفرنج وقد شرعوا فى عمارة حصن مطل على تل عفرين ، والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زَرْدَنا . فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضى أبو الفضل بن الخشّاب يحرّض الناس على القتال ، وهو راكب على حَجَر (١) وبيده رمح فرآه بعض العسكر فازدراه ، وقال : « إنما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المُعَمَّم ! » فأقبل على الناس وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم واستر هف هممهم بين الصفين ، فأبكى الناس وعظُم فى أعينهم .

---

(١) بغل .

ودار طُغان أرسلان بن دملاج من ورائهم ونزل فى خيامهم وقتل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل .

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقُوهم فيها . وكانت السهام كالجراد . ولكثرة ما وقع فى الخيل والسواد من السهام ، عادت منهزمة ، وغُلبت فرسانها ، وطُحنت الرجّالة والأتباع والغلمان بالسهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقُتل سرجال فى الحرب ، وفُقد من المسلمين عشرون نفرا ، منهم سليمان بن مبارك بن شبل . وسَلِمَ من الفرنج مقدار عشرين نفرا لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقُتل فى المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفا من الفرنج . وكانت الوقعة يوم السبت [٢٨ يونيو] وقت الظهر . فوصل البشير إلى حلب بالنصر ، والمصاف قائم ، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب ، سمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب . ولم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج ، فوجد فى رماد فارس واحد وأربعون نصل نشاب . ونزل إيلغازى فى خيمة سرجال ، وحمل إليه المسلمون ما غنموه ، فلم يأخذ منهم إلا سلاحا يهديه لملوك الإسلام ، وردّ عليهم ما حملوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدى إيلغازى ، كان فيهم رجل عظيم الخلقة ، مشتهراً بالقوة ، وأسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح . فلما حضر بين يدى إيلغازى قال له التركمان : « أما تستحى يأسرك مثل هذا الضعيف ، وعليك مثل هذا الحديد ؟ » . فقال : « والله ما أخذنى هذا ،

ولا هو مولای . وإنما أخذنی رجل عظیم ، أعظم منی وأقوى ، وساقنی إلى هذا . وكان علیه ثوب أخضر ، وتحته فرس أخضر ! (١) .

(٢)

[وقعة البلاطة]

[من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى ، ص ٢٠٠ — ٢٠١]

ولما وصل ظهير الدين أتابك [طغتكين] إلى حلب مع نجم الدين [إيلغازى] على الأمر المقرر بينهما ، بعد مضى الأجل المعيّن عليه بتدبيرهما ، وجد التركمان قد اجتمعوا إليه من كل فج وكل صوب ، فى الأعداد الدثرة الوافرة ، والقوة الظاهرة ، كأنهم الأسود تطلب فريسها ، والشواهين إذا حامت على مكاسرها . ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده من طوائف الأفرنج ورجالة الأرمن من سائر أعمالهم وأطرافهم ، بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل ، سوى الأتباع ، وهو العدد الكثير ، فى أتم عدة وأكمل شكّة ، وأنهم قد نزلوا فى الموضع المعروف بشرمدا ، وقيل دانيث البقل ، بين أنطاكية وحلب . فحين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور . فما كان بأسرع من وقوع العين على العين ، وتقارُب الفريقين ، حتى حمل المسلمون عليهم وأحاطوا بهم من جميع الجهات وسائر الجنبات ، ضربا بالسيوف ورشقا بالسهام . ومنح الله تعالى وله الحمد حزب الإسلام النصر على المَرَدة الطغام ، ولم تمض ساعة من نهار يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من سنة ٥١٣ [٢٨ يونيو ١١١٩] .

---

(١) يقصد محمدا النبى أو أحد الملائكة .

إلا والإفرنج على الأرض سطحة واحدة، فارسهم وراجلهم، بخيلهم وسلاحهم، بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم. ووجد مقدّمهم روجير صريعا بين القتلى. ولقد حكى جماعة من المشاهدين لهذه الموقعة أنهم طافوا فى مكان هذه المعركة لينظروا آية الله تعالى الباهرة، وأنهم شاهدوا بعض الخيول مصرعة كالقنافذ من كثرة النشاب الواقع فيها. وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح، لم يتفق مثله للإسلام فى سالف الأعوام، ولا الآنف من الأيام. وبقيت أنطاكية شاغرة خالية من حُماتها ورجالها، خاوية من كُماتها وأبطالها، فريسة الواثب، نهزة الطالب. فوقع التغافل عنها لغيبة ظهير الدين أتابك عن هذه الوقعة لتسرُّع التركمان إليها من غير تأهب لها، للأمر النافذ، والقدر النازل، واشتغال الناس بإحراز الغنائم التى امتلأت بها الأيدى، وقويت بها النفوس، وسُرَّت بحسنها القلوب. فتلك بيوتهم خاوية، والحمد لله رب العالمين.

(٣)

[ذكر وفاة بغدوين وصفته]

[من كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسى، صفحة ٢٣٣]

فى هذه السنة [٥٢٦ هـ / ١١٣١ — ١١٣٢ م] ورد الخبر من ناحية الافرنج بهلاك بغدوين [بولدوين] الرُّوَيْس ملك الإفرنج، صاحب بيت المقدس بعكا فى يوم الخميس ٢٥ من شهر رمضان منها [٨ أغسطس ١١٣٢] (١). وكان شيخا قد عركه الزمان بحوادثه، وعانى الشدائد من

---

(١) الواقع أن تاريخ وفاة بولدوين هو قبل هذا التاريخ بنحو عام. فقد توفى فى بيت المقدس يوم ٢١ أغسطس ١١٣١، الموافق ٢٥ رمضان سنة ٥٢٥ هـ.

نوائبه وكوارثه ، ووقع فى أيدى المسلمين عدة دفعات أسيرا فى محارباته ومصافاته ، وهو يتخلص منهم بحيله المشهورة ، وخُدعه المخبورة . ولم يخلف بعده فيهم صاحب رأى صائب ولا تدبير صالح . وقام فيهم بعده الملك القمص الجديد الكند إيجور(١) الواصل إليهم فى البحر من بلادهم . فلم يتسدد فى رأيه ولا أصاب فى تدبيره . فاضطربوا لفقده ، واختلفوا من بعـــده .

(١) فولك ، كونت دانجو « Fulk, Count of Anjou ».

الفصل الخامس

بدأ الهجوم المضاد الحقيقى للمسلمين ؛ بظهور زنكى أتابك الموصل وحلب (١١٢٩ — ١١٤٦) على مسرح الأحداث . وقد كان ابن الأثير أثيراً لدى الأتابكة ، ومؤرخ دولتهم ، والمشيد المتحمس بأفضالهم . وهو يرى أن العناية الإلهية هى التى ألقت فى يد زنكى بمملكة دمشق التى خلّفها أول مناهض حقيقى للصليبيين ، وهو طغتكين ؛ الذى توفى عام ١١٢٨ . وكانت دمشق هى الهدف الرئيسى لزنكى حتى أثناء حربه للصليبيين ، وكانت قد آلت السلطة الإسمية فيها لأولاد طغتكين الضعفاء ، بينما تولى مقاليد الأمور فيها معين الدين أُنُر . ولم يتورع أى من هؤلاء عن التحالف مع الفرنجة ضد زنكى . وتعرض الصفحات التالية صورتين لزنكى، الأولى حافلة بالثناء عليه من ابن الأثير ، والأخرى على العكس منها لابن القلانسى ، الوفى لمدينته ولأسرة طغتكين .

(١)

(ولاية عماد الدين زنكى)

(من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء العاشر ، صفحة ٦٥١)

ولولا أن الله تعالى منّ على المسلمين بملك أتابك [زنكى] ببلاد الشام لملكها الفرنج ، لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية ، وإذا علم ظهير الدين طغتكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها ، فيضطر الفرنج إلى الرحيل لدفعه عن بلادهم . فقدّر الله تعالى أنه توفى هذه السنة (٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م) ، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله . فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين ، ففعل بالفرنج مانذكره إن شاء الله تعالى .

(٢)

ذكر مُلك زنكى قلعة بَعْرين وهزيمة الفرنج

(من كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، من صفحة ٥١ — ٥٣)

وفى هذه السنة ، فى شوال (٥٣١هـ — ١١٣٧م) سار أتابك زنكى من الموصل إلى الشام ، وحصر قلعة بعرين ، وهى تُقارب مدينة حماة ، وهى من أمنع معاقل الفرنج وأحصنها . فلما نزل عليها قاتلها ، وزحف إليها . فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا فى قضّهم وقضيضهم ، وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم (١) ، إلى أتابك زنكى ليرحّلوه عن بعرين . فلم يرحل وصبر لهم ، إلى أن وصلوا إليه ، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ، ثم أجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب . واحتمى ملوكهم وفرسانهم (٢) بحصن بعرين لقربه منهم ، فحصرهم زنكى فيه ، ومنع عنهم كل شئ حتى الأخبار . فكان من به منهم لايعلم شيئا من أخبار بلادهم ؛ لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنده .

ثم إن القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وماوالاها ، مستنفرين على المسلمين . وأعلموهم أن زنكى إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ، ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت ، وأن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس . فحينئذ اجتمعت النصرانية ، وساروا على الصعب والذلول ، وقصدوا الشام ، وكان منهم ما نذكره .

وأما زنكى فإنه جدّ فى قتال الفرنج ، فصبروا وقلّت عليهم الذخيرة ،

---

(١) كنود ، جمع كند : وهو الكونت أو البارون.

(٢) فولك ملك القدس وكنوده.

فإنهم كانوا غير مستعدين ، ولم يكونوا يعتقدون أن أحدا يقدم عليهم ، بل كانوا يتوقّعون مُلك باقى الشام . فلما قلّت الذخيرة ، أكلوا دوابهم ، وأذعنوا بالتسليم ليؤمّنهم ويتركهم يعودون إلى بلادهم . فلم يجبهم إلى ذلك . فلما سمع باجتماع من بقى من الفرنج ووصـول من قرب إليهم ، أعطى لمن فى الحصن الأمان ، وقرّر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه . فأجابوه إلى ذلك فأطلقهم ، فخرجوا وسلموا إليه . فلما فارقوه ، بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم ، فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم . وكان لا يصلهم شئ من الأخبار البتّة ، فلهذا سلّموا .

وكان زنكى فى مدّة مقامه عليهم قد فتح المعرّة وكفر طاب من الفرنج . فكان أهلها وأهل سائر الولايات التى بين حلب وحماة مع أهل بعرين فى الخزى ، لأن الحرب بينهم قائمة على ساق ، والنهب والقتل لا يزال بينهم . فلما ملكها أمن الناس ، وعمرت البلاد وعظم دخلها . وكان فتحا مبينا ومن رآه علم صحة قولى .

ومن أحسن الأعمال وأعدلها ما عمله زنكى مع أهل المعرّة . فإن الفرنج لما ملكوا المعرّة كانوا قد أخذوا أموالهم وأملاكهم . فلما فتحها زنكى الآن ، حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك ، وطلبـوا أملاكهم . فطلب منهم كتبها ، فقالوا : إن الفرنج أخذوا كل مالنا ، والكتب التى للأملاك فيها . فقال : أطلبوا دفاتر حلب ، وكل من عليه خراج على ملك يسلّم إليه . ففعلوا ذلك ، وأعاد على الناس أملاكهم . وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها .

(٣)

(اتفاق دمشق والفرنج على صدّ زنكى)

(من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى ، من ص ٢٧٠—٢٧٣)

(وفى هذه السنة ، ٥٣٤هـ/١١٣٩ — ١١٤٠ م) ورد الخبر بفراغ عماد

الدين أتابك [زنكى] من ترتيب أمر بعلبك وقلّتها (١) ، ولرميم ما تشعّث منها ، وشروعه فى التأهب للنزول على مدينة دمشق لمضايقتّها . وورد عقيب ذلك الخبر برحيله عنها فى العسكر ، ونزوله فى البقاع فى شهر ربيع الأول منها [نوفمبر ١١٣٩] . وأنفذ رسوله إلى الأمير جمال الدين(٢) محمد بن تاج الملوك بورى بن أتابك صاحبها ، فى التماس تسليم البلد إليه ، ويعوض عنه بما يقع الاختيار والاقتراح عليه ، فلم يُجب إلى ما رُغب فيه . فرحل من البقاع ونزل على داريّا ظاهر دمشق فى يوم الأربعاء ١٣ ربيع الآخر منها [٦ ديسمبر] . وكان عند نزوله على داريّا قد التقت الطلائع ، فظفر بجماعة ، وانهزم الباقون إلى البلد . وزحف بعد ذلك إلى البلد فى عسكر من ناحية المُصلّى فى يوم الجمعة ٢٨ من شهر ربيع الآخر من من السنة [٢١ ديسمبر] ، فظفر بجماعة وافرة من أحداث البلد والغوطة ، وأطلق السيف فيهم ، فمنهم من مضى قتيلا وأسيرا ، ومنهم من عاد إلى البلد سالما وجريحا . وأشرف البلد فى هذ اليوم على الهلاك ، لولا لطف الله تعالى . وعاد إلى مخيمه بمن أسر بعد من قتل ، وأمسك أياما عن الحرب . وتابع المراسلة والتلطف فى تسليم للبلد وأخذ العوض عنه بعلبك وحمص وما يقترح معهما ، فآثر جمال الدين محمد بن تاج الملوك الدخول فى هذا الأمر لما فيه من الصلاح وحقن الدماء وعمارة الأعمال وسكون الدهماء ، وأباه غيرُه عند الاستشارة فيه . وجعل يزحف بعسكره فى أيام متفرقة بحيث لم يصدق فى القتال ولا بالغ فى التضييق والنزال ، إشفاقا من سفك الدماء كالكاف المسالم والمتأنى فى الوقائع والغنائم . وابتدأ بجمال الدين محمد بن تاج الملوك مرض اتصل به فى جمادى الأول من السنة ، فصار يخفّ تارة ويثقل ويمضى ويعود ،

---

(١) القلعة .

(٢) خليفة طغتكين الرابع فى إمارة دمشق .

ويقلّ ويزيد ، إلى أن اشتدبه اشتدادا وقع اليأس معه منه، ولم يكن له فيه طب ولا راقٍ . ولم يزل على هذه الحال إلى أن قضى محتوم نحبه وصار إلى رحمة ربه فى ليلة الجمعة ٨ شعبان منها (٢٩ مارس ١١٤٠) ، فى الوقت الذى أصيب فيه أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمهما الله . فعجب الناس من ذلك واتفاق الوقت والساعة ، وسبّحوا الله وقدّسوه ، وجُهز ودفن فى تربة جدّته بالفراديس .

فاجتمع رأى المقدّمين وأصحاب الأمر من بعده على سدّ ثلمة فقده بنصب ولده الأمير عضب الدولة أبى سعيد آبق بن جمال الدين محمد فى مكانه ، وأخذت له بذلك العهود المؤكدة بالأيمان المشـــددة على الإخلاص فى الطاعة والصدق فى الخدمة والمناصحة . فاستقام الأمر وصلح التدبير وزال الخُلف وسكنت الأمور بعد اضطرابها ، وقرّت النفوس بعد استيحاشها . وحين عرف عماد الدين أتابك هذه القضية ، زحف فى عسكره إلى البلد طامعا فى خُلف يجرى بين المقدّمين بوفاته فينال به بعض طلباته . فكان الأمر بالضدّ مما أمّل ، والحال بالعكس فيما ظن . ولم يصادف من أجناد دمشق وأحداثها إلا الثبات على القراع ، والصبر على المناوشة والمصاع . فعاد منكفئا إلى عسكره وقد ضعفت نفسه وضاق لهذا الأمر صدره . وقد كان تقرر الأمر مع الإفرنج على الاتفاق والاعتضاد والموازرة والإسعاد ، والامتزاج فى دفعه ، والاختلاط فى صدّه عن مراده ومنعه . ووقعت المعاهدة على ذلك بالأيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه ، والتمسوا على ذلك مالا معينا يُحمل إليهم ليكون عونا لهم على ما يحاولونه ، وقوةً ورهانا تسكن بها نفوسهم . وأجيبوا إلى ذلك ، وحُمل إليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين . وشرعوا فى التأهب للإنجاد ، والاستعداد للموازرة والإسعاد . وكاتب بعضهم بعضا بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد على إبعاد أتابك وصدّه عن نيل الأرب من دمشق والمراد ،

قبل استفحال أمره وإعضال خطبه وقوة شوكته واستظهاره على عُصَب الإفرنج وقصد بلادهم .

فحين تيقّن صورة الحال فى هذا العزم، وتجمّعهم لقصده مع عسكر دمشق رحل عن منزله بداريا فى يوم الأحد الخامس من شهر رمضان ، طالبا ناحية حوران للقاء الافرنج إن قربوا منه ، وطلبهم إن بعدوا عنه . وأقام على هذا الاعتزام مُدّة ، ثم عاد إلى ناحية غوطة دمشق (١) ، ونزل بعذراء يوم الأربعاء ٢٤ من شوال (١٢ يونيو) ، فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حَرَسْتَا التين ، ورحل يوم السبت تالية متشاملا (٢) حين تحقق نزول الإفرنج بالمدان فى جموعهم . وكان الشرط مع الإفرنج أن يكون فى جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد إبراهيم بن طُرغُت ، وتسليمها إليهم . فاتفق أن إبراهيم بن طغرت واليه كان قد نهض من أصحابه إلى ناحية صور للإغارة عليها . فصادفه ريمند صاحب أنطاكية فى قصده واصلا إلى إسعاد الإفرنج على إنجاد أهل دمشق . فالتقيا فكسره، وقتل (إبراهيم) فى الوقعة ومعه نفر يسير من أصحابه ، وعاد من بقى منهم إلى بانياس، فتحصنوا بها ، وجمعوا إليها رجال وادى التيم وغيرهم ومن أمكن جمعه من الرجال للذبّ عنها والمراماة دونها . فنهض إليها الأمير معين الدين (أُنُر) (٣) فى عسكر دمشق ، ونزل عليها . ولم يزل محاربا بالمنجنيقات ومضايقا لها بأنوع المحاربات ومع فريق وافر من عسكر الافرنج عامة شوال (مايو — يونيو ١١٤٠) .

وورد الخبر بأن الأمير عماد الدين أتابك قد نزل على بعلبك وأنفذ يستدعى التركمان من مَطانهم فى شوال لقصد بانياس ودفع المنازلين لها عنها.

---

(١) الغوطة : الحدائق والجنائن حول دمشق . وتشير أسماء الأماكن فى هذه الفترة إلى مواقع داخل دمشق وحولها .

(٢) أى : متجهاً نحو الشمال .

(٣) قائد تركى كان الحاكم الفعلى لدمشق خلال هذه السنوات نيابة عن الأمير الصبى آبق .

ولم تزل الحالية جارية على هذه القضية إلى آخر ذى الحجة من السنة . . .
ولم تزل بانياس على حالها فى المضايقة والمحاصرة إلى أن نفدت منها الميرة وقل قوت المقاتلة. فسلّمت إلى معين الدين ، وعوّض عنها الوالى الذى كان بها بما أرضاه من الإقطاع والإحسان ، وسلّمها إلى الافرنج ووفى لهم بالشرط ، ورحل عنها منكفئا إلى دمشق ظافرا بأمله ، حامدا لعمله ، فى أواخر شهر شوال .

وفى صبيحة يوم السبت السابع من ذى القعدة من السنة (٢٢ يونيو)، حصل عماد الدين أتابك بعسكره جريدة بظاهر دمشق ، ووصل المصلّى وقرب من سور البلد . ولم يشعر به أحد لكون الناس فى أعقاب نومهم . فلما تبلّج الصباح وعُرف خبره ، علت الجلبة والصياح ، ونفر الناس ، واجتمعوا إلى الأسوار ، وفتح الباب وخرجت الخيل والرجالة . وكان قد فرّق عسكره إلى حوران والغوطة والمرج وسائر الأطراف للغارة ، ووقف هو فى خواصة إزاء عسكر دمشق بحيث لا يمكن أحدا من أصحابه فى اتباع أحد من خيله المغيرة . ونشبت الحرب بينه وبين عسكر دمشق ، وخرج من الفريقين جملة وافرة ، وأحجم عنهم لاشتغاله بمن بثه من سراياه فى الغارات. وحصل فى أيديهم من خيول الجشار والأغنام والأحمال والأبقار والأثاث مالا يحصى كثرة لأنهم جاءوا على غفلة وغـــرّة . ونزل من يومه بمرج راهط إلى أن اجتمعت الرجال والغنائم ، وسار عائدا على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة المتناهية فى الكثرة .

الفصل السادس

بعد فشل زنكي فى الاستيلاء على دمشق، عاد فدعّم مركزه بفتح الرُّها عام ١١٤٤، وهى أول ما سقط من الإمارات المسيحية الأربع الناجمة عن الحرب الصليبيه الأولى. وفيما يلى روايتان عن هذا الفتح لابن القلانسى وابن الأثير. ويتعرض الثانى منهما، كعادته، لأثر هذه الأحداث فى مجرى الصراع بين المسيحية والإسلام بأسره. وقد اغتيل زنكى بعد قرابة عامين من هذا النصر، أثناء حرب له مع بعض أمراء المسلمين الآخرين. وورث عنه إبنه نور الدين، سلطان حلب، طموحه السياسى والعسكرى.

(١)
ذكر مُلك زنكى للرُّها
(من كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسى، ص ٢٧٩ — ٢٨٠)

وفى هذه السنة (٥٣٩هـ — ١١٤٤م) وردت الأخبار من ناحية الشمال بأن الأمير عماد الدين أتابك افتتح مدينة الرّها بالسيف مع ماهى عليه من القوة والحصانة، والامتناع على قاصديها، والحماية على طالبيها من العساكر الجمة ومنازلتها. وأن السبب فى ذلك أن الأمير عماد الدين أتابك لم يزل لها طالبا، وفى تملكها راغبا، ولانتهاز الفرصة فيها مترقبا، لا يبرح ذكرها جائلا فى خَلَدَه وسرّه، وأمرها ماثلا فى خاطره وقلبه، إلى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها فى جُلّ رجاله وأعيان حُماته وأبطاله، لأمر اقتضاه وسببٍ من أسبابٍ إلى البعد عنها دعاه، للأمر المقضى والقدر النازل. فحين تحقق ذلك بادر بقصدها، وسارع إلى النزول فى العسكر الدثر عليها لمضايقتها والحصر لمن

فيها . وكاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها والإسعاد وأداء فريضة الجهاد . فوصل إليه منهم الخلق الكثير والجم الغفير ، بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات ، وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من الميرَ والأقوات ، والطائر لايكاد يقرب منها خوفا على نفسه من صوائب سهام منازليها ، ويقظة المُضَيِّقين عليها . ونصب على أسوارها المناجيق ترمى عليها دائما ، والمحاربة لأهلها مصرًا ومواظبا . وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع النقوب الماضون فيها ، فنقبوا فى عدة مواضع عرفوا أمرها ، وتيقنوا نفعها وضرّها . ولم يزالوا على هذه الحال فى الإيغال فى النقب والتمادى فى بطن الأرض ، إلى أن وصلوا إلى تحت أساس أبراج السور ، فعلّقوه بالأخشاب المحكمة ، والآلات المنتخبة ، وفرغوا من ذلك ولم يبق غير إطلاق النار فيها . فاستأذنوا عماد الدين أتابك فى ذلك فأذن لهم بعد أن دخل فى النقب وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله . فلما أُطلقت النار فى تعايق النقوب ، تمكّنت من أخشابها وإبادتها ، فوقع السور فى الحال . وهجم المسلمون البلد بعد أن قُتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم ، وقُتل من الإفرنج والأرمن وجُرح ما أوجب هزيمتهم عنه ، وملك البلد بالسيف فى يوم السبت ٢٦ من جمادى الآخرة منها ضحوة النهار [٢٣ ديسمبر ١١٤٤م] . وشُرع فى النهب والقتل والأسر والسبى والسلب ، وامتلأت الأيدى من المال والأثاث والدواب والغنائم والسبى ماسُرّت به النفوس وابتهجت بكثرته القلوب. وشرع عماد الدين أتابك ، بعد أن أمر برفع السيف والنهب ، فى عمارة ما انهدم وترميم ماتشعث ، ورتّب من رآه لتدبير أمـــرها وحفظها والاجتهاد فى مصالحها ، وطيّب بنفوس أهلها ، ووعدهم بإجمال السيرة فيهم وبسط المعدلة فى أقاصيهم وأدانيهم . ورحل عنها وقصدسروج وقد هرب الإفرنج منها ، فملكها ، وجعل لا يمر بعمل من أعمال ولامعقل من معاقلها فينزل عليه إلا سُلّم إليه فى الحال .

(٢)

ذكر فتح الرّها وغيرها من بلاد الجزيرة مما كان بيد الفرنج

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ،
الجزء الحادى عشر ، من صفحة ٩٨ — ١٠٠]

فى هذه السنة ، سادس جمادى الآخرة (١) ، فتح أتابك عماد الدين زنكى بن آقْسُنْقُر مدينة الرّها من الفرنج ، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة (٢) أيضاً . وكان ضررهم قد عمّ بلاد الجزيرة ، وشرّهم قد استطار فيها ، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها ، وبلغت آمد ونَصيبين ورأس عين والرَّقّة .

وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسَروج والبيرة وسن ابن عُطَير وحملين والموزر والقرادىّ وغير ذلك . وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين ، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدّم على عساكرهم ، لما هو عليه من الشجاعة والمكر .

وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذّر عليه مُلكها لما هى عليه من الحصانة . فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرّغ لقصد بلادهم . فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الملوك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر ، حيث أنه محارب لهم ، اطمأنّوا ، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاد الغربية . فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته ، فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه . وجمع الأمراء عنده وقال : قدّموا الطعام .

---

(١) الصحيح ٢٦ من جمادى الآخرة ، كما ورد فى ابن القلانسى .
(٢) شمالى العراق .

وقال : لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غدا معي على باب الرها . فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يُعرف ، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحدا لا يقدر على مساواته في الحرب . فقال الأمير لذلك الصبي : ما أنت في هذا المقام ؟ فقال أتابك : دعه ، فوالله إني أرى وجها لا يتخلّف عني .

وسار والعساكر معه ، ووصل إلى الرّها . وكان هو أوّل من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبي . وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضاً فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله ، وسلم الشهيد ، ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما ، فزحف إليه عدة دفعات ، وقدم النقّابين فنقبوا سور البلد . ولجّ في قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه . فسقطت البدنة التي نقبها النقّابون ، وأخذ البلد عنوة وقهرا ، وحصر قلعته فملكها أيضا ، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرّية وقتلوا الرجال .

فلما رأى أتابك البلد أعجبه ، ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة . فأمر فنودي في العساكر برد من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم ، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم . فردّوا الجميع عن آخرهم لم يفقد منهم أحد إلا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من أخذه العسكر . فعاد البلد إلى حاله الأول ، وجعل فيه عسكرا يحفظه . وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقيّ الفرات ماعدا البيرة فإنها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار إليها وحصرها ، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها . فبقي على حصارها إلى أن رحل عنها ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

حُكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ . قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سريّة في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين ، وهو من أهل الصلاح .

وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ، ويرجع إلى قوله ، ويقدّمه على من عنده من القسوس والرهبان . وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب .

ففي بعض الأيام ، كان جالسا فى منظرة له تشرف على البحر ، إذ قد أقبل مركب لطيف ، وأخبره من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام . وغنموا وظفروا . وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى . فقال له الملك : يا فلان ! أما تسمع مايقولون ؟ قال : لا ! قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا . أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال له : كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرّها ، وقد فتحها المسلمون الآن . فضحك منه من هناك من الفرنج ، فقال الملك : لاتضحكوا ، فوالله ما يقول إلا الحق . فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها(١) .

وحكي لى جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانا صالحا رأى الشهيد [زنكى] فى منامه فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بفتح الرُّها .

(٣)

ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكى وشيء من سيرته

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، من صفحة ١١٠ — ١١٢]

فى هذه السنة [٥٤١ ه] لخمس مضين من ربيع الآخر [١٤ سبتمبر ١١٤٦] . قُتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، صاحب المَوْصل والشام ، وهو يحاصر قلعة جَعْبَر على ما ذكرناه . قتله جماعة

---

(١) التزامن هنا خاطىء . وقد يكون المقصود هو الحملة التى أرسلتها صقلية إلى المغرب عام ١١٢٤ أو ١١٤٦ . أما ملك صقلية المذكور فهو روجير الثانى المعروف باهتمامه بالعالم الإسلامى وتسامحه الدينى . أما العالم المسلم فقد يكون الجغرافى الشهير الإدريسى .

من مماليكه ليلا غيلة ، وهربوا إلى قلعة جعبر . فصاح من بها من أهلها إلى العسكر يعلمونهم بقتله ، وأظهروا الفرح ، فدخل أصحابه إليه ، فأدركوه وبه رمق .

حدثني والدي عن بعض خواصّه ، قال : دخلتُ إليه في الحال وهو حيّ . فحين رآني ظن أني أريد قتله ، فأشار إليّ بإصبعه السبابة يستعطفني فوقعت من هيبته ، فقلت : يا مولاي ، من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه لوقته ، رحمه الله .

قال : وكان حسن الصورة ، أسمر اللون مليح العينين ، قد وخطه الشيب . وكان قد زاد عمره على ستين سنة ، لأنه كان لما قُتل والده (١) صغيرا ، كما ذكرناه قبلا . ولما قُتل دُفن بالرَّقَّة .

وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته ، عظيم السياسة ، لايقدر القوى على ظلم الضعيف . وكانت البلاد ، قبل أن يملكها ، خـــرابا من الظلم وتنقّل الولاة ومجاورة الفرنج . فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا .

حكى لي والدي قال : رأيتُ الموصل وأكثرها خراب ، بحيث يقف الإنسان قريب محلّة الطبالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ، ليس بين ذلك عمارة . وكان الإنسان لايقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه ، لبُعده عن العمارة . وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها أرض براح . وحدثني أيضا أنه وصل إلى الجزيرة في الشتاء ، فدخل الأمير عز الدين الدّبيسى ، وهـــو من أكابر أمرائه ، ومن جملة أقطاعه مدينة دقوقا ، ونزل في دار إنسان يهودى . فاستغاث اليهودى إلى أتابك وأنهى حاله إليه . فنظر إلى الدبيسى فتأخر ودخل البلد ، وأخرج بركه وخيامه . قال : فلقد رأيت غلمانه ينصبون

---

(١) الأمير أقسنقر الذى تمرد عام ١٠٩٤ على تتش سلطان حلب فأعدم .

خيامه في الوحل، وقد جعلوا على الأرض تِبْناً يقيهم الطين، و خرج فنزلها . وكانت سياسته إلى هذا الحد .

وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة ، فصارت فى أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك .

وكان أيضا شديد الغيرة ولاسيما على نساء الأجناد . وكان يقول : إن لم تحفظ نساء الأجناد بالهيبة ، وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن فى الأسفار .

وكان أشجع خلق الله . أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبريّة ، وهى للفرنج ، فوصلت طعنته باب البلد وأثّر فيه . وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية ، وهى على جبل عال ، فوصلت طعنته إلى سورها ، إلى أشياء أُخر .

وأما بعد المُلك ، فقد كان الأعداء محدقين ببلاده : وكلهم يقصدها ، ويريد أخذها ؛ وهو لا يقنع بحفظها ، حتى إنه لا ينقضى عليه عام إلا ويفتح من بلادهم . فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره فى ناحية تكْريت ، وقصد الموصل وحصرها . ثم إلى جانبه ، من ناحية شَهرَزُور وتلك الناحية ، السلطان مسعود ، ثم ابن سقمان صاحب خِلاط ، ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ، ثم صاحب آمد وماردين ؛ ثم الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق ، ثم أصحاب دمشق . فهذه الولايات قد أحاطت بولايته من كل جهاتها ، فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ، ويأخذ من هذا ويُصانع هذا ، إلى أن ملك من كل من يليه طرفا من بلاده . وقد أتينا على أخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة أولاده ، فيُطلب من هناك .

الفصل السابع

كان فشل الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق عام ١١٤٨ ، أهم أحداث الحملة الصليبية الثانية التى التى لم تسفر عن نتيجة حاسمة ، والتى بدأت فى أعقاب سقوط الرها. وقد شهد ابن القلانسي حصار دمشق ، وروايته عنه تكمل رواية ابن الأثير ، بينما تزودنا رواية سبط ابن الجوزى ببعض التفاصيل الشيقة عن الحصار . ويعتبر استشهاد الفقيه الشيخ الفندلاوى فى سبيل دينه وبلده ، رمـــزاً لأصدق وأنبل مظاهر مقاومة المسلمين .

(١)

[الحرب الصليبية الثانية ــ حصار دمشق]

[من كتاب« ذيل تاريخ دمشق »لابن القلانسي ، من صفحة ٢٩٧ ــ ٣٠٠]

وفى أوائل سنة ٥٤٣ هـ [١١٤٨م] تواترت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الإفرنج المقدم ذكرهم إلى ساحل البحر وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجتماعهم مع من كان بها من الإفرنج. ويقال إنهم ، بعد ما فنى منهم بالقتل والمرض والجوع ، تقدير مائة ألف عنان . وقصدوا بيت المقدس وقضوا مفروض حجتهم ، وعاد بعد ذلك من عاد إلى بلادهم فى البحر . وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم ، وهلك من ملوكهم من هلك ، وبقى ألمان (١) أكبر ملوكهم ومن هو دونه . واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية والأعمال الشامية ، إلى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكها ، وتبايعوا ضياعها وجهاتها .

---

(١) هو كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا . ويكاد المؤرخون المسلمون يغفلون تماماً الدور الذى لعبه هنا لويس السابع ملك فرنسا .

وتواصلت الأخبار بذلك ،وشرع متولى أمرها الأمير معين الدين آنر فى التأهب والاستعداد لحربهم ، ورفع شرهم : وتحصين ما يخشى من الجهات ، وترتيب الرجال فى المسالك والمنافذ ، وقطع مجارى المياه إلى منازلهم ، وطمّ الآبار ، وعفى المناهل . وصرفوا أعنتهم إلى ناحية دمشق فى حشدهم وحدّهم وحديدهم فى الخلق الكثير على ما يقال تقدير الخمسين ألف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والأبقار ما كثروا به العدد الكثير . ودنوا من البلد ، وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدوماً فيه ، مقطوعاً عنه . فقصدوا ناحية المزّة ، فخيموا عليها لقُربها من الماء ، وزحفوا إليه بخيلهم ورجالهم . ووقف المسلمون بإزائهم فى يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ [٢٤ يوليو ١١٤٨ م] ، ونشبت الحرب بين الفريقين . واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك القُتَّال وأحداث البلد والمطّوعة والغُزاة الجم الغفير . واشتجر القتل بينهم ، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعُدد ، وغلبوا على الماء وانتشروا فى البساتين وخيّموا فيها . وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً ولا حديثاً منه . واستشهد فى هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوى المالكى ، رحمه الله ، قريب الربوة على الماء ، لوقوفه فى وجوههم وترك الرجوع عنهم ، اتباعاً لأوامر الله تعالى فى كتابه الكريم . وكذلك عبد الرحمن الحلحولى الزاهد ، رحمه الله ؛ جرى أمره هذا المجرى .

وشرعوا فى قطع الأشجار والتحصين بها وهدم القناطر . وباتوا تلك الليلة على هذه الحالة ، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه ، والروع بما عاينوه ، ما ضعفت به القلوب ، وحرجت معه الصدور . وباكروا الظهور إليهم فى غد ذلك اليوم ، وهو يوم الأحد تاليه ، وزحفوا إليهم ، ووقع الطراد بينهم ، واستظهر المسلمون عليهم ، وأكثروا القتل والجراح فيهم . وأبلى الأمير معين الدين فى حربهم بلاء حسناً ، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد فى غيره ، بحيث

لاينى فى ذيادتهم ولايُفْشِيءُ عن جهادهم . ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم ، وخيل للكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم ،إلى أن تهيأ الفرصة لهم ، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب ، وأقبل الليل ، وطلبت النفوس الراحة ، وعاد كل منهم الى مكانه . وبات الجند بإزائهم ، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط ، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم .

وكانت المكاتبات قد نُفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد . وحصلت خيل التركمان تتواصل ، ورجالة الأطراف تتتابع . وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم وزال روعهم ، وثبتوا بإزائهم ، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ ، بحيث تتبع فى خيمهم فى راجل أو فارس أو فرس أو جمل .

ووصل فى هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة ، وتضاعفت العُدة وانفصل كل فريق إلى مستقره هذا اليوم. وباكروهم من غده يوم الثلاثاء كالبُزاة إلى تعاقيب الجبل والشواهين إلى مطار الحجل ، وأحاطوا بهم فى مخيمهم وحول مجثمهم ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب وقذفاً بالأحجار . وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ، ولم يظهر منهم أحد ، وظُن بهم أنهم يعملون مكيدة ويدبرون حيلة . ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المكاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة ، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا ، أو يجدون لفرهم احتيالا . وليس يدنو منهم إلا صُرع برشقة أو طعنة . وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع ، وجعلوا يرصدونهم فى المسالك وقد انثنوا ، فيقتلون من ظفروا به ، ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير .

وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى جهادهم ، والمسارعة إلى استئصالهم . فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار ، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التى حصلوا فيها ،

والهوة التى ألقوا بنفوسهم إليها ، غير الرحيل سحرا يوم الأربعاء التالى مجفلين ، والهرب مخذولين مقاولين . وحين عرف المسلمون ذلك وبانت لهم آثارهم فى الرحيل ، برزوا لهم فى بكرة هذا اليوم ، وسارعوا نحوهم فى آثارهم بالسهام ، بحيث قتلوا فى أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير . ووجد فى آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وفاخر خيولهم مالا عدد له ولا حصر يلحقه ، بحيث لها أرائح من جيفهم تكاد تصرع الطيور فى الجو . وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودة فى تلك الليلة . واستبشر الناس بهذه النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى ما أولاهم من إجابة دعائهم الذى واصلوه فى أيام هذه الشدة . فلله على ذلك الحمد والشكر .

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازى بن زنكى

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، من صفحة ١٢٩ — ١٣١]

فى هذه السنة [٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م] سار ملك الألمان من بلاده فى خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج ، عازما على قصد بلاد الإسلام ، وهو لايشك فى مُلكها بأيسر قتال ، لكثرة جموعه ، وتوفّر أمواله وعُدده . فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه ، وامتثلوا أمره ونهيه. فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصروها ويملكها بزعمه . فساروا معه ونازلوها وحصروها . وكان صاحبها مجير الدين أبَق بن بُورى بن طُغدُكين ، وليس له من الأمر شىء وإنما الحكم فى البلد لمعين الدين أُنُر مملوك جده طغدكين ، وهو الذى أقام مجير الدين . وكان معين الدين عاقلا عادلا خيّرا حسن السيرة ، فجمع العساكر وحفظ البلد .

وأقام الفرنج يحاصرونهم ، ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول [٢٤ يوليو] بفارسهم وراجلهم . فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم

وصبروا لهم . وفيمن خرج للقتال الفقيه حُجة الدين يوسف بن دى ناس الفندلاوى المغربى . وكان شيخاً كبيرا فقيها عالما . فلما رآه معين الدين ، وهو راجل ، قصده وسلّم عليه ، وقال له : ياشيخ أنت معذور لكبر سنك ، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين . وسأله أن يعود فلم يفعل ، وقال : قد بعــت واشتُرِى منى ، فوالله لا أقلته ولا استقلتُه . فعنى قول الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النَّيْرَبَ نحو نصف فرسخ عن دمشق

وقوى الفرنج وضعف المسلمون . فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر ، فأيقن الناس بأنه يملك البلد . وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى يدعوه إلى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم . فجمع عساكره وسار إلى الشام ، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب ، فنزلوا بمدينة حمص . وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرتُ ومعى كل من يحمل السلاح فى بلادى ، فأريد أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج . فإن انهزمتُ دخلتُ أنا وعســكرى البلد واحتمينابه ، وإن ظفرتُ فالبلد لــكم لا أنازعكم فيه .

فأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد . فكفّ الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح ، وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين فأبقوا على نفوسهم ، فقوى أهل البلد على حفظه ، واستراحوا من لزوم الحرب . وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء : « إن ملك المشرق قد حضر . فإن رحلتم وإلا سلمتُ البلد إليه ، وحينئذ تندمون » . وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم : بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا ، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا مابأيديكم من البلاد الساحلية ؟ وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى سيف الدين . وأنتم

تعلمون أنه إن ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام فى الشام . فأجابوه إلى التخلى عن ملك الألمان ، وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم .

واجتمع الساحلية بملك الألمان ، وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه ، وأنه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته. ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد ، وتسلموا قلعة بانياس . وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم ؛ وهى من وراء القسطنطينية ،وكفى الله المؤمنين شرّهم.

وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق : أن بعض العلماء حكى له أنه رأى الفندلاوى فى المنام ، فقال له : ما فعل الله بك، وأين أنت ؟ فقال : غُفر لى ،وأنا فى جنات عدن على سُرُر متقابلين .

(٣)

[حصار دمشق]

[من كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزى] (١)

... وكان زمان الفواكه، فنزل الفرنج الوادى فأكلوا منها شيئا كثيرا، فأحلّت أجوافهم ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون . ولما ضاق بأهل دمشق الحال أخرجوا الصدقات بالأموال على قدر أحـــوالهم . واجتمع الناس فى الجامع ، الرجال والنساء والصبيان ، ونشروا مصحف عثمان، وحثَوْا الرماد على رؤوسهم ، وبكوا وتضرعوا . فاستجاب الله لهم . فكان مع الافرنج قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به . فأصبح فى اليوم العاشر من نزولهم على دمشق ، فركب حماره ، وعلّق فى عنقه صليبا ، وجعل فى يديه صليبين ، وعلّق فى عنق حماره صليبا ، وجمع بين يديه الأناجيل والصلبان والكتب والخيالة والرجالة . ولم يتخلف

(١) الفقرة التالية فى هامش صفحة ٣٠٠ من « ذيل تاريخ دمشق » لإبن القلانسى .

من الفرنجية أحد إلا من يحفظ الخيام . وقال لهم القسيس : « قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم » . وفتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت ، وغاروا للإسلام ، وحملوا حملة رجل واحد . وكان يوما لم ير فى الجاهلية والإسلام مثله . وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس وهو فى أول القوم ، فضربه فأبان رأسه وقتل حماره . وحمل الباقون فانهزم الإفرنج ، وقتلوا منهم عشرة آلاف ، وأحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط ، وتبعوهم إلى الخيام . وحال بينهم الليل فأصبحوا وقد رحلوا : ولم يبق لهم أثر .

الفصل الثامن

فى عام ١١٥٤ ، أى بعد ست سنوات من نجاح دمشق فى صد هجوم الصليبيين عليها ، تمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى من تحقيق حلم أبيه ، فأصبح حاكما لدمشق دون قتال . ومن دمشق وحلب أشعل نور الدين حماسا جديدا متوقدا فى النضال ضد الصليبيين . واستمر القتال دائرا زهاء عشرين عاما حتى وفاة نور الدين عام ١١٧٤ . وقد شهدت السنوات السابقة لوفاته بزوغ نجم صلاح الدين فى مصر ، وهو الذى قدر له أن يكلل بالنجاح جهاد المسلمين ضد الصليبيين على مد قرن كامل . وقد كان ابن الأثير معجباً بنور الدين إعجابه بأبيه . غير أن نور الدين كان فى الواقع يفضل آباه فى تيقظه الروحى ، وإنسانية مشاعره .

(١)

[ذكر فتوحات نور الدين وموكب النصر فى دمشق]

[من كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى . من صفحة ٣٤٠–٣٤٢]

وصل نور الدين إلى البلد المحروس [دمشق] فى يوم الخميس ٢٧ من شهر ربيع الأول [٥٥٢هـ – ٩ مايو ١١٥٧] ، لتقرير الأمر فى إخراج آلات الحرب ، وتجهيزها إلى العسكر ، بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه فى الحال إلى ناحية العساكر المجتمعة من التركمان والعرب للجهاد فى الكفرة الأضداد ، والله يسهل أسباب الادالة منهم ، ويعجل البوار والهلاك لهم إن شاء الله تعالى .

وفى وقت وصوله شرع فى إنجاز ما وصل لأجله ، وأمر بتجهيز

مايحتاج إليه من المناجيق والسلاح إلى العسكر المنصور ، بالنداء فى البلد المحروس فى الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء ، بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الإفرنج أولى الشرك والإلحاد . وبادر بالمسير فى الحال إلى عسكره المنصور ، مُغِذّاً غير متلوم ولامتربث فى يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول . وتبعه بين الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير الدثر المباهى فى الوفور والكثرة . فالله تعالى يقرن آراءه وعزماته بالنصر المشرق المنار ، والظفر بأحزاب المردة الكفار ، ويعجّل لهم أسباب الهلاك والبوار ، بحيث لاتبقى لهم باقية ، ولا يرى لهم رائحة ولا غادية ، وما ذلك على الله تعالى القادر القاهر بعزيز .

ولما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر [١٨ مايو] تالى اليوم المقدّم ذكره ، عقيب نزول الملك العادل نور الدين على بانياس فى عسكره المنصور ، ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب ، سقط طائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس ، يتضمن كتابه (١) الإعلان بورود المبشر من معسكر أسد الدين [شيركوه] (٢) بناحية هونين فى التركمان والعرب ، بأن الإفرنج ، خذلهم الله ، أنهضوا سريّة من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم ، لكبس المذكورين ، ظنا منهم أنهم فى قلّ ، ولم يعلموا أنهم فى ألوف . فلما دنوا منهم وثبوا كالليوث إلى فرائسها ، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب ، ولم يفلت منهم إلا اليسير . ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعُدَدِهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى البلد فى اليوم الإثنين تالى اليوم المذكور . وطيف بهم فيه ، فسُرّت القلوب بمشاهدتهم ، وأكثروا الشكر لله على هذه النعمة المسهّلة بعد الأولى المتكمّلة . والله المأمول لتعجيل هلاكهم وبوارهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١) كان نور الدين أول حاكم مسلم يستخدم الحمام الزاجل بصورة منتظمة فى نقل الأخبار من بلد إلى آخر .

(٢) القائد الكردى فى جيش نور الدين ، وعم صلاح الدين الأيوبى .

وتتلو هذه الموهبة المجدّدة ، سقوط طائر من العسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء يتلو المذكور ، بذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضيّ أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور ، عند تناهي النقب ، وإطلاق النار فيه ، وسقوط البرج المنقوب وهجوم الرجال فيه ، وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بهـا. وإنّ أخذهم بمنيّة الله تعـالى لا يُبطـىء ، والله يسهّله و يعجّله .

واتفق بعد ذلك للأقضية المقدرة ، أن الإفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفرى (١) صاحب بانياس ومعه من أصحابه الإفرنج المحصورين بقلعة بانياس ، وقد أشرفوا على الهلاك ، وبالغوا في السؤال للأمان للمولى نور الدين ، ويسلّمون مافى أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمـين . فلم يجبهم إلى ماسألوه ورغبوا فيه . فلما وصل ملك الإفرنج (٢) في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازلين على بانياس لحصارها ، والنازل على الطريق لمنـع الواصل إليها ، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستحصلوا من كان فيها (٣) . فحين شاهدوا (٤) ماعمّ بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها ، يئسوا من عمارتها بعد خرابها ، وذلك في أيام من العشر الأخير من شهر ربيع الآخر [أوائل يونيو ١١٥٧ م] .

وفي يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى [١٩ يونيو] ، سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر المحروس النوري ، تتضمن الأعلام بأن الملك

---

(١) همفرى دو تورون .

(٢) بولدوين الثالث .

(٣) أي رأى المسلمون من الحكمة التراجع والسماح لبولدوين بالوصول إلى المحصورين بالقلعة .

(٤) أي بولدوين وجيشه .

العادل نور الدين ، أعز الله نصره ، لما عرف أن معسكر الكفرة الإفرنج على الملاّحة بين طبريّة وبانياس ، نهض فى عسكره المنصور من الأتراك والعرب ، وجدّ فى السير . فلما شارفهم وهم غازّون ، وشاهدوا راياته قد أظلّتهم ، بادروا بلبس السلاح والركوب ، وافترقوا أربع فرق ، وحملوا على المسلمين . فعند ذلك ترجّل الملك نور الدين ، وترجّلت معه الأبطال ، وأرهقوهم بالسّهام وخرصان الرماح . فما كان إلا كلا ولا (١)، حتى تزلزلت بهم الأقدام ، ودهمهم البوار والحمام ، وأنزل الله العزيز القهار نصره على الأولياء الأبرار ، وخذلانه على المردة الكفار . وتمكّنّا من فرسانهم قتلا وأسرا ، واستأصلت السيوف الرجالة وهم العدد الكثير والجم الغفير . ولم يفلت منهم ، على ما حكاه الخبير الصادق ، غير عشرة نفر ممن ثبّطه الأجل ، وأطار قلبه الوجل . وقيل إن ملكهم لعنهم الله فيهم ، وقيل إنه فى جملة القتلى ، ولم يُعرف له خبر . والطّلبُ مجدٌ له ، والله المعين على الإظفار به . ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين ، أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة ، وقُتل عند حضور أجله وانتهاء مهله . والآخر غريب لا يُعرف . فكل منهما مضى شهيدا مُثابا مأجورا ، رحمهما الله . وامتلأت أيدى العسكرية من خيولهم وعُددهم وكراعهم وأثاث سوادهم الشيء الذى لا يُحصى كثرة . وحصلت كنيستهم فى يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة . وكان فتحا من الله القادر الناصر مبينا ، أعز الله به الإسلام وأهلـه ، وأذلّ الشرك وحزبه .

ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق فى يوم الأحد تالى يوم الفتح ، وقد رتّبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ، ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدة . والمقدّمون

---

(١) كناية عن الزمن القصير .

منهم وولاة المعاقل والأعمال ، كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة ، وفى يده راية ، والرجالة من السرجندية والتركبولية (١) كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر فى حبل . وخرج من أهل البلد الخلق الذى لا يحصى لهم عدد ، من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان ، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المشرق الأعلام ، وأكثروا من التسبيح ومواصلة التقديس لله تعالى مولى النصر لأوليائه ، ومُديلهم من أعدائه . وواصلوا الدعاء الخالص للملك العادل نور الدين المحامى عنهم ، والمرامى دونهم ، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه . ونُظم فى ذلك أبيات فى هذا المعنى وهى :

مثل يوم الفرنج حين علتْهم ... ذلّة الأسر والبلا والشقاءِ
وبراياتهم على العيش زفّوا ... بين ذل وحسرة وعناءِ
بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكر ... فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادى ... عند شن الإغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار (٢) كان وبالا ... عمّهم فى صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل ... بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم بما كان فيه ... من فساد بجلّهم واعتداء
لا حمى الله شملهم من شتات ... بعواضٍ تفوق حدّ المَضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر ... وجزاء الشكور خير الجزاء
فلرب العباد حمد وشكر ... دائم مع تواصل النعماء

---

(١) جنود من الأهالى من الترك ، كانوا بمثابة الاحتياطيين فى جيش الصليبيين .
(٢) الأغنام فى المرعى .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي ، رحمه الله

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، من صفحة ٤٠٢ — ٤٠٥]

فى هذه السنة [٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م] ، توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر ، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ، يوم الأربعاء ١١ شوال [١٥ مايو] ، بعلة الخوانيق (١) . ودفن بقلعة دمشق ، ونقل منها إلى المدرسة التى أنشأها بدمشق ، عند سوق الخوّاصين . ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثانى شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار ، فقال له الأمير : سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا ؟ فقال نور الدين : لاتقل هكذا ، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا ؟ فمات نور الدين ، رحمه الله ، بعد أحد عشر يوما ، ومات الأمير قبل الحول . فأخذ كل منهما بما قاله .

وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فإنه رأى منه فتورا فى غزو الإفرنج من ناحيته . وكان يعلم أن إنما يمنع صلاح الدين من الغزو ، الخوف منه ومن الاجتماع به ، فإنه يؤثر كون الإفرنج فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين . فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة . وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، بالشام ، ويسير هو بعساكره إلى مصر . فبينما هو يتجهز لذلك ، أتاه أمر الله الذى لامردّ له .

حكى لى طبيب يعرف بالطبيب الرحبى ، وهو كان يخدم نور الدين ، وهو من حذّاق الأطباء ، قال : استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى

---

(١) النوبة القلبية .

فيه مع غيرى من الأطباء . فدخلنا إليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك ، فلا يكاد يُسمع صوته . وكان يخلو فيه للتعبد ، فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه . فلما دخلنا ورأينا مابه ، قلت له : « كان ينبغى ألا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن ، وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضىء ، فله أثر فى هذا المرض » . وشرعنا فى علاجه ، وأشرنا بالفصد، فقال : ابن ستين لايفتصد » . وامتنع منه ، فعالجناه بغيره فلم ينجـــع فيه الدواء ، وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه .

وكان أسمر طويل القامة ، ليس له لحية إلا فى حنكه . وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين . وكان قد اتسع مُلـــكه جدا ، وخُطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها . وكان مولده سنة ٥١١ هـ [١١١٧ م] . وطبقَّ ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله . وقد طالعتُ سير الملوك المتقدمين ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريا منه للعدل . وقد أتينا على كثير من ذلك فى كتاب الباهر من أخبار دولتهم . ولنذكرها هنا نبذة مختصرة لعلّ يقف عليها مَنْ له حكم فيقتدى به .

فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه ، فإنه كان لايأكـــل ولايشرب ولا يتصرّف فى الذى يخصّه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . ولقد شكت إليه زوجته الضائقة ، فأعطاها ثلاث دكاكين فى حمص كانت له ، منها يحصل له فى السنة نحو عشرين دينارا . فلما استقلّتها قال : « ليس لى إلا هذا ، وجميع ما بيدى أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك » .

وكان يصلي كثيراً بالليل ، وله فيه أوراد حسنة . وكان كما قيل :

جَمَعَ الشجاعـة والخشـوع لـربـه
مـا أحسن المحـرابَ (١) فى المحـرابِ

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، ليس عنده فيـه تعصب . وسمع الحديث وأسمعه طالبا للأجر .

وأما عدله ، فإنه لم يترك فى بلاده ، على سعتها ، مكسا ولا عُشرا ، بل أطلقها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل . وكان يعظم الشريعة ، ويقف عند أحكامها . وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشَّهرَزُورى يقول : « قد جئتُ محاكَمًا ، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم » . وظهر الحق له ، فوهبه الخصمَ الذى أحضره ، وقال : « أردتُ أن أترك له ما يدّعيه ، إنما خفتُ أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة . فحضرتُ ثم وهبته ما يدعيه » .

وبنى دار العدل فى بلاده ، وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم ، ولو أنه يهودى ، من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده .

وأما شجاعته فإليها النهاية . وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين(٢) ليقاتل بها . فقال لـه القطب النَّشاويّ الفقيه « بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين . فإن أصبتَ فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف » . فقال له نور الدين : « ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلى ، من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو » .

---

(١) المقاتل .
(٢) أى : سهمين أو كنانتى سهام .

وأماما فعله من المصالح ، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها . فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشَيْزر وبعلبكّ وغيرها . وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية ، وبنى الجامع النوريّ بالموصل ، وبنى البيمارستانات(١) والخانات (٢) فى الطرق، وبنى الخانكاهات (٣) للصوفية فى جميع البلاد ، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة . سمعتُ أن حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صورى(٤) . وكان يُكرم العلماء وأهل الدين ويعظّمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم ، ولا يردّ لهم قولا ، ويكاتبهم بخط يده . وكان وقورا مهيبا مع تواضعه . وبالجملة ، فحسناته كثيرة ، ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب .

---

(١) المستشفيات .

(٢) محطات القوافل .

(٣) الأديرة .

(٤) نسبة إلى مدينة صور .

الفصل التاسع

فى هذا الفصل وصف لعادات الفرنجة وحياتهم بالشام من وجهة نظر كاتب مسلم هو أسامة بن منقذ . وكان أسامة فارسا وشاعرا وأميرا لشيزر ، عاش قرابة قرن من الزمان ، وهو القرن الأول من الحروب الصليبية . ومذكراته المعروفة بكتاب الاعتبار ، تحوى أقاصيص ممتعة ، وروايات عن صلاتة بالفرنجة أثناء الحرب والسلام ، على نحو تلمس فيه مشاعر العداء والألفة وحب الاستطلاع جنبا إلى جنب . وهى روايات كفيلة بتوفير بعض الإراحة من مناظر الحرب المتكررة التى تملأ كتب المؤرخين المحترفين .

(١)

[منزلة الفارس عند الإفرنج]

[من «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ ، صفحة ٦٤ — ٦٥]

والإفرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان . فهم أصحاب الرأى ، وهم أصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة (١) على قُطعان غنم أخذها صاحب بانياس (٢) من الشَّعْراء (٣) ، وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق . فقلت للملك فولك بن فولك (٤) : « هذا تعدّى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد أن أتلفها » .

---

(١) سنة ١١٤٠ م .

(٢) اسمه رينيه «Renier» .

(٣) الغابة .

(٤) فولك الخامس ملك القدس (١١٣١ — ١١٤٣) .

فقال الملك لستة [أو] سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » . فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا ، حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا إلى مجلس الملك . فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » . فأمره الملك بالغرامة . فتوسل إلىّ وثقل علىّ وسألني حتى أخذت منه أربعمائة دينار . وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان مايقدر الملك ولا أحد من مقدّمي الإفرنج يغيّره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم .

ولقد قال لي الملك : « يافلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما . » قلت : الله يفرّح الملك . بماذا فرحت ؟» قال : «قالوا لي إنك فارس عظيم ، وما كنت أعتقد أنك فارس » . قلت : « يامولاى ، أنا فارس من جنسي وقومي » . وإذا كان الفارس دقيقا طويلا كان أعجب لهم .

[أسرة أسامة بيد الإفرنج]
[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ
من صفحة ٣٤ — ٣٥]

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله . وكاتب الملك الصالح (١) في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلّفوا بمصر ، وكان محسنا إليهم . فردّ الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج . وكتب إلىّ يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعرف مابيني وبينك . وإن كنت مستوحشا من أهل القصر ، فتصل إلى مكة وأُنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدّك بما تتقوى به على محاربة الحبشة (فأسوان ثغر من ثغور المسلمين) ، وأسيّر إليك أهلك وأولادك » . ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره ، فقال : « يافلان ، ماصدّقتَ متى تخلص من مصر وفتنها ، تعود إليها ! العمر أقصر من ذلك . أنا

(١) هو الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك الذي توفي عام ١١٦١ م .

أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج (١) ، وأسيرّ من يُحضرهم » . فأنفذ ، رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبه فى البر والبحر . وسيرّتُ الأمان مع غلام لى وكتاب الملك العادل وكتابى إلى الملك الصالح . فسيرّهم فى عُشارىّ من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجون من النفقات والزاد ، ووصّى بهم .

وأقلعوا من دمياط فى بُطْسَة (٢) من بطس الإفرنج . فلما دنوا من عكا والملك ، لارحمه الله ، فيها ، نفّذ قوما فى مركب صغير كسروا البطسه بالفؤوس وأصحابى يرونهم . وركب ووقف على الساحل ينهب كل مافيه . فخرج إليه غلام لى سباحة ، والأمان معه ، وقال له : « يامولاى الملك ، ماهذا أمانك ؟ » قال : « بلى . ولكن هذا رسم المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال : « فتسبينا ؟ » قال : « لا » . وأنزلهم ، لعنه الله ، فى دار ، وفتش النساء حتى أخذ كل مامعهم . وقد كان فى المركب حلىّ أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار . فأخذ الجميع ونفّذ لهم خمسمائة دينار وقال : « توصلوا بهذه إلى بلادكم » . وكانوا رجالا ونساء فى خمسين نسمة .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل فى بلاد الملك مسعود (٣) رعبان وكَيسُون . فهوّن علىّ سلامة أولادى وأولاد أخى : وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ماذهب لى من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة . فإن ذهابها حزازة فى قلبى ماعشت (٤) .

---

(١) بولدوين الثالث ملك القدس (١١٤٣ — ١١٦٢) .
(٢) البطسة : المركب .
(٣) سلطان قونية .
(٤) حدثت هذه الوقائع حوالى عام ١١٥٥ م .

(٣)

[عجائب طب الإفرنج]

[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ ،
ص ١٣٢ — ١٣٣]

ومن عجيب طبهم أن صاحب المُنَيْطِرة (١) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : « أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجلة دُمَّلة ، وامرأة قد لحقها نشاف (٢) . فعملت للفارس لُبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميتُ المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شيئا ، يداويهم ؟ » . وقال للفارس : أيّما أحب إليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ » قال : « أعيش برجل واحدة » . قال : « أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا » . فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر . فحطّ ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس : « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها » . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها . فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل . فزادها النشاف . فقال : « الشيطان قد دخل في رأسها » . فأخذ الموسى وشقّ رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الراس ، وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم : « بقي لكم إليّ حاجة ؟ » قالوا : « لا » . فجئت وقد تعلّمت من طبهم ما لم أكن أعرفه ! » .

---

(١) بلدة شمالي لبنان .

(٢) مرض عقلي .

(٤)

[ليس للإفرنج غيرة جنسية]

[من «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ ، من
ص ١٣٥ — ١٣٧]

وليس عندهم [أى الإفرنج] شيء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوّلت عليه خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس ، أنزل فى دار رجل يقال له معزّ ، داره عمارة المسلمين (١) ، لها طاقات تفتح إلى الطريق . ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار ، يأخذ فى قنّينة من النبيذ وينادى عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيّة من هذا الخمر . من أراد منها شيئا فهو فى موضع كذا وكذا » . وأجرته عن ندائه ، النبيذ الذى فى تلك القنينة . فجاء يوما فوجد رجلا مع امرأته فى الفراش . فقال له : « أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى ؟ » قال : « كنت تعبان ، دخلت أستريح » . قال : « فكيف دخلت إلى فراشي ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » . قال : « المرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها . كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ . قال : « وحق ديني ، إن عدت فعلت هذا تخاصمت أنا وأنت » . فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته .

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمّامى (٢) يقال له سالم من أهل

---

(١) أى فندق ينزل به المسافرون المسلمون .

(٢) خادم بالحمام .

المعرّة(١) فى حمّام لوالدى ، رحمه الله . قال : فتحتُ حماما فى المعرّة أتعيّش فيها . فدخل إليها فارس منهم ، وهم ينكرون على من يشدّ فى وسطه المئزر فى الحمام . فمدّ يده فجذب مئزرى من وسطى ورماه . فرآنى وأنا قريب عهد بحلق عانتى . فقال : « سالم ! » فتقرّبت منه . فمدّ يده على عانتى وقال : « سالم ! جيدّ ! وحق دينى إعمل لى كذا » . واستلقى على ظهره وله مثل لحيته فى ذلك الموضع . فحلقته ، فمرّ يده عليه فاستوطأه فقال : « سالم ! بحق دينك اعمل للدّاما » (والداما بلسانهم الستّ) ، يعنى امرأته . وقال لغلام له : « قل للداما تجىء » . فمضى الغلام أحضرها وأدخلها . فاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لى » . فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرنى . فشكرنى ووهبنى حق خدمتى » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : مافيهم غيرة ولانخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة . والأنفة من سوء الأحدوثة .

(٥)

[الفرنجى لا يأكل الخنزير]

[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، ص ١٤٠ — ١٤١]

ومن الإفرنج قوم تبلّدوا (٢) وعاشروا المسلمين ، فهم أصلح من القريبى العهد ببلادهم . ولكنهم شاذ لا يقاس عليه . فمن ذلك أنى تفذّت صاحبا إلى أنطاكية فى شغل . وكان بها الرئيس تادرس بن الصفىّ (٣) وبينى وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم فى أنطاكية . فقال لصاحبى يوما :

---

(١) معرة النعمان .

(٢) أى استقروا بالبلد .

(٣) تيودور سفيانوس الرئيس البيزنطى لولاية أنطاكية .

« قد دعانى صديق لى من الإفرنج . تجئ معى حتى ترى زيّهم » . قال : « فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا فى أول خروج الإفرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه . فأحضر مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة . ورآنى متوقفا عن الأكل ، فقال : « كُلْ طيب النفس . فأنا ما آكل من طعام الإفرنج . ولى طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل دارى لحم الخنزير » . فأكلت وأنا ز » انصرفنا .

« فأنا بعد مجتازا فى السوق وامرأة إفرنجية تعلّقت بى وهى تبربر بلسانهم وما أدرى ما تقول . فاجتمع علىّ خلق من الإفرنج ، فأيقنت بالهلاك . وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآنى . فجاء فقال لتلك المرأة : « ما لك ولهذا المسلم ؟ » قالت : « هذا قتَل أخى عرس(١) » . وكان عرس هذا فارسا بأفامية ، قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال : « هذا فارس برجاس(٢) (أى تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال » . وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرّقوا ، وأخـذ بيدى ومضى . فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصى من القتل » .

(٦)

(إفرنجي يعترض أسامة فى صلاته)

[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، ص ١٣٤ — ١٣٥]

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين .

---

(١) Hurso

(٢) بورجوازى .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحّهم الله، أنى كنت إذا زرت البيت المقدس ، دخلت إلى المسجد الأقصى ، وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة . فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية(١)، وهم أصدقائى ، يُخلون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه . فدخلت يوما فكبّرت ووقفت فى الصلاة . فهجم علىّ واحد من الإفرنج مسكنى وردّ وجهى إلى الشرق وقال : كذا صل !(٢) » فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عنى . وعدت أنا إلى الصلاة . فاغتفلهم وعاد هجم علىّ ذلك بعينه وردّ وجهى إلى الشرق وقال : « كذا صلّ ! » فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلىّ ، وقالوا : «هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق » . فقلت : « حسبى من الصلاة ! » . فخرجت . فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

. ورأيت واحدا منهم جاء إلى الأمير معين الدين [أنر] رحمه الله وهو فى [جامع] الصخرة ، فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟ » قل : «نعم». فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير فى حجرها. فقال : « هذا الله صغير » . تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

(٧)

[أسامة يفتدى الأسرى]

[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ ص ٨١ — ٨٢]

كنت أتردد إلى ملك الإفرنج(٣) فى الصلح بينه وبين جمال الدين محمد

---

(١) فرسان الداوية « Templars » .

(٢) كان شائعاً لدى المسيحيين فى العصور الوسطى استقبال المشرق عند صلاتهم .

(٣) فولك الخامس ملك القدس . أما الصلح المشار إليه فمعاهدة ١١٤٠ بين دمشق والإفرنج

ابن تاج الملوك(١) ، رحمه الله ، ليد كانت للوالد ، رحمه الله ؛ على بغدوين(٢) الملك والد الملكة امرأة الملك فولك بن فولك . فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إليّ لأشتريهم . فكنت أشترى منهم من سهّل الله تعالى خلاصه . فخرج شيطان منهم يقال له كليام جيبا(٣) فى موكب له يغزى ، فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو أربعمائة نفس رجال ونساء . فكان يجيء أقوام مع مالكهم فأشترى منهم من قدرت على شراه . وفيهم رجل شاب يسلّم ويقعد لا يتكلم . فسألت عنه فقيل لى هو رجل زاهد صاحبه دبّاغ(٤) . فقلت له : « بكم تبيعنى هذا ؟ » قال : « وحق دينى ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة وأربعين دينارا ». فاشتريتهما واشتريت لى منهم نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، منهم نفرا بمائة وعشرين دينـــارا . ووزنت ما كان معى ، وضمنت عليّ بالبـــاقى .

وجئت إلى دمشق ، فقلت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، « قد اشتريت لك أسارى أختصك بهم ، وما كان معى ثمنهم . والآن قد وصلت إلى بيتى . إن أردتم وزنتَ ثمنهم ، وإلا وزنته أنا » . قال : « لا بل أنا أزن والله ثمنهم ، وأنا أرغب الناس فى ثوابهم » . وكان ، رحمه الله ، أسرع الناس إلى فعل الخير وكسب مثوبة . ووزن ثمنهم . وعدت بعد أيام إلى عكا .

وقد بقى من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيرا ، وفيهم امرأة لبعض الذين خلّصهم الله تعالى على يدى . فاشتريتها منه وما وزنت ثمنها . فركبت إلى داره ، لعنه الله ، وقلت : « تبيعنى منهم عشرة ؟ »

---

(١) تاج الملوك بورى بن طغتكين أمير دمشق (١١٣٩ — ١١٤٠) .

(٢) بولدوين الثانى ملك القدس والد « Mélisende » التى تزوجت فولك الخامس عام ١١٢٩ . وكان بولدوين ينزل ضيفاً على أمير شيزر أثناء أسره .

(٣) ويليام جيبا .

(٤) أى أن آسره دباغ .

قال : « وحق دينى ما أبيع إلا الجميع » . قلت : « ما معى ثمن الجميع . وأنا أشترى بعضهم . والنوبة الأخرى أشترى الباقى » . قال : « ما أبيعك إلا الجميع » . فانصرفت . وقدّر الله سبحانه أنهم هربوا فى تلك الليلة جميعهم . وسكان ضياع عكا كلّهم من المسلمين ، إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام .

وتطلّبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد . وأحسن الله سبحانه خلاصهم . وأصبح يطالبنى بثمن المرأة التى كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها ، وقد هربت فيمن هرب . فقلت : « سلّمها إلىّ وخذ ثمنها » . قال « ثمنها لى من أمس قبل أن تهرب » . وألزمنى بوزن ثمنها ، فوزنته . وهان ذلك علىّ لمسرّتى بخلاص أولئك المساكين .

(٨)

[لا عقل لهم]

[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، صفحة ١٣٢]

كان فى عسكر الملك فُلك بن فلك فارس محتشم إفرنجى قد وصل من بلادهم يحج ويعود . فأنس بى وصار ملازمى يدعونى « أخى » وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده قال لى : « يا أخى ، أنا سائر إلى بلادى . وأريدك تنفذ معى ابنك (وكان ابنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة) إلى بلادى يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية . وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » . فطرق سمعى كلام ما يخرج من رأس عاقل . فإن ابنى لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج . فقلت : « وحياتك ، هذا الذى كان فى نفسى . لكن منعنى من ذلك أن جدته تحبه ، وما تركته يخرج معى حتى استحلفتنى أنى أرده إليها » . قال : « وأمك تعيش ؟ » قلت : « نعم » . قال : « لا تخالفها » .

(٩)

[الصيد فى عكا]

[من « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، صفحة ١٩٦]

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين [أنر] ، رحمه الله، إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فلك بن فولك. فرأينا رجلا من الجنوية قد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركيّ ، ومعه كابة صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته . فإذا أخذ الكركي وحطّه عضّته، فلا يقدر على الخلاص منها . وقال لنا ذلك الجنوى : « إن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركيّ. فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك . فطلبه الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من الملك ، فأخذه من ذلك الجنوى هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين . فجاء معنا .فرأيته فى الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب على اللحم . ووصلنا به إلى دمشق . فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات .

(١٠)

[تقوى الفرنجة وتقوى المسلمين]

[من « كتاب العصا » لأسامة بن منقذ](١)

زرتُ قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام بقرية يقال لها سبسطية من أعمال نابلس . فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدى الموضع الذى فيه القبر محوّط عليها . وإذا باب مردود ففتحته ودخلت ، وإذا كنيسة فيها

---

(١) تضمنته المجموعة الثانية من سلسلة « نوادر المخطوطات » بتحقيق عبد السلام هارون ، صفحة ٢٠٥ .

نحو من عشرة شيوخ(١) رءوسهم مكشوفة كأنها القطن المندوف ، وقد استقبلوا الشرق وفى صدورهم عصىّ فى رءوسها عوارض معوجّة على قدر صدر الرجل ، وهم معتمدون عليها ، ويمنح بين أيديهم بقراء(٢) فرأيت منظرا يرق له القلب ، وساءنى وآسفنى إذ لم أر فى المسلمين من هو على مثل اجتهادهم . فمضت على ذلك مدة . فقال لى يوما معين الدين أنّر رحمه الله ، وأنا وهو نسير عند دار الطواويس : « أشتهى أنزل أزور المشايخ » . قلت : « الأمر كذلك ». فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضى(٢) طويل . فدخلناه وأنا أظن أنْ ما فيه أحد . وإذا فيه نحو من مائة سجّادة وعلى كل سجادة رجل من الصوفية عليهم السكينة ، والخشوع عليهم ظاهر . فسرّنى ما رأيت منهم ، وحمدت الله عز وجل ، ورأيت من هو أكثر اجتهادا من أولئك القسوس . ولم أكن قبل ذلك رأيت الصوفية فى دارهم ، ولا عرفت طريقهم .

---

(١) قساوسة .

(٢) كذا فى الأصل .

الجزء الثاني

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

الفصل الأول

أول المصادر الإسلامية عن حياة صلاح الدين هي كتابات اثنين من كبار موظفي دولته ، وهما عماد الدين الكاتب الأصفهانى ، وبهاء الدين بن شداد . وقد خلّف الأول تاريخا عن فتح بيت المقدس (الفتح القدسى) وهو تاريخ كبير القيمة رغم تميز أسلوبه بالتصنّع المفرط . أما الثانى فقد كتب سيرة صلاح الدين ، نلمس فيها إعجابا فى غير تحيز ، وإخلاصا حارا للصديق. أما المصدر الثالث فكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة الذى يحوى نقولا كثيرة عن العماد الكاتب وابن شداد وابن الأثير ، وكذا عن مؤلفين فقدت كتبهم مثل ابن أبي طيّ ، فضلا عن مجموعة من الوثائق التاريخية . أما ابن الأثير ، فبالرغم من تأثر شعوره تجاه صلاح الدين بولائه السياسى ، فهو لا يزال يحتفظ بسمات الوضوح ، وسعة الإحاطة ، والاستقلال فى أحكامه إزاء المصادر التى يعتمد عليها .

وإن أفضل صورة لصلاح الدين وأكملها ، هى تلك الواردة فى القسم الأول من كتاب ابن شداد ، وهو ما ننقله فيما يلى .

أوصاف صلاح الدين وشمائله

[من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »
لبهاء الدين بن شداد ، من صفحة ٧ — ٣٤]

ورد فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » .

وكان رحمة الله عليه — حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قدأخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء . فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

وكان ، رحمه الله ، قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى — رحمه الله — عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب . وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى تترسخ فى أذهانهم من الصغر . ورأيته وهـــو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤنها من حفظهم بين يديه ، رحمه الله .

وأما **الصلاة** ، فإنه — رحمه الله تعالى — كان شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى إنه ذكر يوما أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إذا مرض يستدعى الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة . وكان يواظب على السنن الرواتب . وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت فى الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح . وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه . ولقد رأيته قدس الله روحه — يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائما ، وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه . وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى .

وأما **الزكاة** ، فإنه مات — رحمه الله تعالى — ولم يحفظ ما وجبت به عليه الزكاة . وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك ما ملك ومات ، ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، وجرما [دينارا ؟] واحدا ذهبا صوريا . ولم

يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئا من أنواع الأملاك.

وأما صوم رمضان ، فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعددة. وكان القاضى الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام. وشرع ، رحمه الله ، فى قضاء فوائت ذلك بالقدس الشريف فى السنة التى توفى فيها ، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر : فإنه كان عليه فوائت رمضانين ، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها . وكان الصوم لا يوافق مزاجه ، فألهمه الله تعالى الصوم بقضاء الفوائت . فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التى كان يصومها لأن القاضى كان غائبا ، والطبيب يلومه وهو لا يسمع ، ويقول : « لا أعلم ما يكون » . فكأنه كان ملهما ببراءة ذمته ، رحمه الله عليه ، ولم يزل حتى قضى ما كان عليه .

وأما الحج ، فإنه لم يزل عازما عليه وناويا له ، سيما فى العام الذى توفى فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملت الزوادة ، ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله ، فأخره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى : وهذا شىء اشترك فى العلم به الخاص والعام .

وكان رحمه الله تعالى ، يحب سماع القرآن العظيم ، حتى إنه كان يستخير إمامه ، ويشترط أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم ، متقناً لحفظه . وكان يستقرىء من يحضره فى الليل — وهو فى برجه — الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان يستقرىء — فى مجلسه العام — من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك . ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فقربه ، وجعل له حظا من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة . وكان — رحمه الله تعالى —

رقيق القلب ، خاشع الدمعة ، إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أوقاته .

وكان — رحمه الله — شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم ، سعى إليه وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهانى بالاسكندرية — حفظها الله تعالى — وروى عنه أحاديث كثيرة . وكان — رحمه الله تعالى — يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرنى فى خلوته ، ويحضر شيئا من كتب الحديث ، ويقرأها هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه .

وكان كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلا ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع ، منشرحا بذلك صدره ، مبغضا للفلاسفة والمعطِّلة والدّهرية ومن يعاند الشريعة . وقد أمر ولدَه صاحبَ حلب الملكَ الظاهر ، بقتل شاب نشأ كان يقال له السهروردى ، قيل عنه إنه كان معاندا للشرائع مبطلا ، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور لما بلغه من خبره ، وعرّف السلطان به ، فأمر بقتله ، وصَلَبه أياما ، فقتله .

وكان — قدس الله روحه — حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه . وقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه : وذلك أن الفرنج — خذلهم الله — كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف — حرسها الله تعالى — يكون بينهما بعض مرحلة . وكان السلطان

بالقدس ، وقد أقام يزَكا(١) على العدو محيطا به ،وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين . فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القتال عليه . واشتد خوف المسلمين بسبب ذلك . فاستحضر الأمراء ، وعرّفهم ما قددهم المسلمين من الشدة ،وشاورهم فى الإقامة بالقدس. فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لا مصلحة فى إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو بطائفة من العسكر يكون حول البلد ، كما كان الحال بعكا ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتّهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه . وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم هو بنفسه ، علما منه أنه إن لم يُقم ما يقيم أحد . فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم ، جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذى يأتمرون بأمره . فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته .

ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة — وكانت ليلة الجمعة — من أول الليل إلى أنه قارب الصبح . وكان الزمان شتاء ،وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نقسّم أقساما ، ونرتب على كل قسم مقتضاه ، حتى أخذنى الإشفاق عليه والخوف على مزاجه ، فإن كان يغلب عليه اليُبْس . فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة . فقال — رحمه الله : «ولعلك جاءك النوم» ، ثم نهض .

فما وصلت إلى بيتى وأخذت لبعض شأنى ، إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح . وكنت أصلى معه الصبح فى معظم الوقت . فدخلت عليه وهو يمر

---

(١) اليزك : لفظ فارسى معناه « طلائع الجيش » .

الماء على أطرافه . فقال : « ما أخذنى النوم أصلا » . فقلت : « قد علمت » . فقال : « من أين ؟ » فقلت : « لأنى ما نمت ، وما بقى وقت للنوم » . ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه . فقلت له : « قد وقع لى واقع ، وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى » . فقال : « وما هو ؟ » فقلت له : « الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه » فقال : « وكيف نصنع ؟ » فقلت : « اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلى على العادة بالأقصى موضع مَسْرى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقدّم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به . ويصلى المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله فى سجوده ، فقد ورد فى حديث صحيح ، وتقول فى باطنك : « إلهى ، قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك . أنت حسبى ونعم الوكيل » . فإن الله تعالى أكرم من أن يخيب قصدك » .

ففعل ذلك كله ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة . ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على شيبته وعلى سجادته ، ولا أسمع ما يقول . فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جُرْديك — وكان على اليزك — يخبر فيها أن الفرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم . وفى بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك . ووصل فى أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا ، فذهبت الفرنسيسية إلى أنهم لابد لهم من محاصرة القدس ، وذهب الانكتار(١) وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم فى هذا الجبل مع عدم المياه ، (فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه) ، وأنهم خرجوا للمشورة ، ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصّوا على

(١) ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

عشرة أنفس منهم وحكّموهم ، فأى شيء أشاروا به لا يخالفونهم . ولمـا كانت بكرة الاثنين جاء البشير يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة . فهذا ما شاهدته من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى ، رحمه الله .

ذكر عدله

روى أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الوالى العادل ظل الله فى أرضه ورمحه ، فمن نصحه فى نفسه أو فى عباد الله ، أظلّه الله تحت عرشه يومَ لاظل إلا ظله ؛ ومن خانه فى نفسه أو فى عباد الله ، خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالى العادل فى كل يوم عمل ستين صديقاً ، كلهم عابد مجتهد لنفسه » .

ولقد كان — رحمه الله عادلا رؤوفاً رحيما ناصراً للضعيف على القوى .

وكان يجلس للعدل فى كل يوم إثنين وخميس فى مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل واحد ، من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير . وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً :

على أنه كان فى جميع أزمانه قابلا لمـا يعرض عليه من القصص ، كاشفاً لما ينتهى إليه من المظالم . وكان يجمع القصص فى كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات ، ثم يجلس مع الكاتب ساعة ، إما فى الليل أو النهار ، ويوقّع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه . ولم يردّ قاصداً أبداً ، ولا منتحلا ولا طالب حاجة . وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة . ولقد كان رؤوفاً بالرعية ، ناصراً للدين ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، عالماً بما فيه ، عاملا به ، لايعدوه أبداً . وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ

قصته . وقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير عَلَىّ تقى الدين — ابن أخيه — فأنفذ إليه ليحضره إلى مجاس الحكم . فما خلّصه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولى القول أنه وكّل القاضى أبا القاسم أمين الدين — قاضى حماة — فى المخاصمة و المنازعة . فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندى فى مجلسه — رضى الله عنه — بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم . فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه — وكان من خواص السلطان — ، ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقى الدين ، وانقضى المجلس على ذلك . وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ، وكان تقى الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يُحَابِه فى الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله — رحمه الله — قضية جرت له مع إنسان تاجر يُدعى عمر الخلاطى . وذلك أنه كنت يوما فى مجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل علىّ شيخ حسن تاجر معروف ، يسمى « عمر الخلاطى » ، معه كتاب حكمى سأل فَتْحه ، فسألتُه : «مَن خصمُك؟» فقال : «خصمى السلطان ، وهذا بساطُ الشرع ، وقد سمعنا أنك لا تحابى » . فقلت : « وفى أى قضية هو خصمك ؟ » . فقال : « إن سُنْقُر الخلاطى كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى إلى أن مات ، وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ، ومات عنها ، واستولى عليها السلطان . وأنا مطالبه بها » . فقلت له : « يا شيخ ، وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟ » . فقال : « الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات » .

فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حِلْيَةَ سنقر الخلاطى ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش فى اليوم الفلانى من الشهر كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل فى ملكه إلى أن شذّ عن يده فى سنة

كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ؛ وتمَّمَ الشرطُ إلى آخره .

فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل : « لا يسعني سماع الدعوى بلا وجود الخصم ، وأنا أعرّفه وأعرّفك ما عنده في ذلك » .. فرضي الرجل بذلك ، واندفع . فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرّفته القضية ؛ فاستبعد ذلك استبعادا عظيما . وقال : « كنت نظرتَ في الكتاب ؟ » فقلت : « نظرتُ فيه ، ورأيتُه متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب عليه : كتاب حكمي من دمشق ، وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون » . فقال : « مبارك . نحضر الرجل ونحاكمه ، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع » .

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة ، فقلت له : « هذا الخصم يتردد ، ولا بد أن نسمع دعواه » . فقال : « أقم عني وكيلا يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخِّر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها هنا » . ففعلت ذلك ، ثم أحضر الرجل عنده ، واستدناه حتى جلس بين يدي ، وكنت جانبه ، ثم انعزل من طراحته حتى ساواه ، وقال : « إن كان لك دعوى فاذكرها » . فحرّر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا . فأجابه السلطان : « إن سُنقر هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى أعتقتُه ، وتوفي وخلَّف ما خلَّفه لورثته » . فقال الرجل : « لي بيّنة تشهد بما ادعيته » . ثم سأل فتح كتابه ففتحتُه ، فوجدته كما شرحته . فلما سمع السلطان التاريخ قال : « عندي من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته » .

ثم استحضر جماعة من أعيان الأمـراء المجاهدين ، فشهدوا بذلك ،

وحكوا القضية كما ذكرها ، وذكروا التاريخ كما ادعاه . فأبلس الرجل ، فقلت له : « يا مولاى ، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان . وقد حضر بين يدى مولانا وما يحسن أن يرجع خائبا القصد » . فقال : «هذا باب آخر » . وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة ، قد شذّ عنى مقدارها .

فانظر إلى ما فى طىّ هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة ، من التواضع والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة . رحمه الله رحمة واسعة .

ذكر طرف من كرمه

قال صلى الله عليه وسلم . « إذا عثر الكريم فإن الله آخذ بيده » . وفى الكرم أحاديث . وكرمُه — قدّس الله روحه — كان أظهر من أن يُسطّر ، وأشهر من أن يُذكر ، لكن نُنبّه عليه جملة . وذلك أنه ملك ما ملك ومات ، ولم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحد صُورى ؛ ما علمتُ وزنه . وكان رحمه الله يهب الأقاليم . وفتح آمد ، وطلبها منه ابن قرا أرسلان ، فأعطاه إياها ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود . فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع قرية من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد . وكان — رحمه الله — يعطى فى وقت الضائقة كما يعطى فى حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال ، حذرا أن يفاجئهم منهم ، لعلمهم أنه متى علم به أخرجه .

وسمعته منه يوما يقول فى معرض حديث جرى : « يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر إلى التراب » . فكأنه أراد بذلك نفسه ، رحمه الله تعالى . وكان يعطى فوق ما يؤمّل الطالب ، وما سمعتُه قط يقول :

« أعطينا لفلان » . وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه للمعطَى بَسْطَ من لم يُعطه شيئا . وكان يعطي ، ويكرم أكثر مما يعطي . وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه فى كل وقت . وما سمعتُه قط يقول : قد زدتُ مرارا ، فكم أزيد ؟ » .

وأكثر الرسائل كانت تكون فى ذلك على لسانى ويدى . وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل منه من كثير ما أطلبه لهم ، لعلمى بعدم مؤاخذته فى ذلك . وما خدمه قط أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره . وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها ، فلا يطمع فيه أصلا حقيقة . ولقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى ، وقد تجارينا عطاياه ، فقال : « حصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير ، فكان عشرة آلاف فرس » . ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر .

اللهم إنك ألهمته الكرم ، وأنت أكرم منه ، فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

ذكر شجاعته

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب الشجاعة ولو على قَتْل حيَّة » .

ولقد كان — رحمه الله تعالى — من عظماء الشجعان ، قوى النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر . ولقد رأيته مرابطا فى مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ونُجدُهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر . ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ،

وهو لا يزداد إلا قوة نفس . ولقد كان يعطى دستوراً فى أوائل الشتاء(١)، ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عدتهم الكثيرة .

ولقد سألتُ باليان بن بارزان(٢) ، وهو من كبار ملوك الساحل –وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح – عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه إنه يقول : « كنت أنا وصاحب صيدا – وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم – قاصدين عسكرنا من صور ، فلما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزر هو بخمسمائة ألف ، وحزرتهم أنا بستمائة ألف » (أو قال عكس ذلك) . فقلت : « فكم هلك منهم ؟ » فقال : « أما بالقتل فقريب من مائة ألف . وأما بالموت والغَرَق فلا نعلم . وما رجع من هذا العالم إلا الأقل» .

وكان لابد من أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم . وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم . والوقوف فى مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره . ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين ، وذلك أنى قلت له : « قد سُمِع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ، ولم يُنقل أنه سُمع بين الصفين . فإن رأى المولى أن يُؤْثَرَ عنه ذلك، كان حسنا » فأذن فى ذلك، فأحضر جزء ، وهناك أحضر من له به سماع ، فقرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدو أصلا . ولا استعظم أمرهم قط . وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير ، يذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويرتب على

---

(١) أى يأذن للجند بالتفرق لحلول الشتاء .

(٢) هو باليان الثانى صاحب الرملة ، وأحد مفاوضى ملوك الفرنجة فى مفاوضات عام ١١٩٢ مع المسلمين .

كل قسم مقتضاه من غير حِدّة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكوس(١) والعلم ، وهو — رضى الله عنه — ثابت القدم في نفر يسير ، قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجّلهم حتى يرجعوا . ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس . ولم يزل — رحمه الله — مصابرا لهم ، وهم في العدة الوافرة ، إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين ، فصالح وهو مسئول من جانبهم(٢) ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجد ، ونحن لا نتوقعها . وكانت المصلحة في الصلح ، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها .

وكان — رحمه الله — يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط . وتتراءى النيران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منا صوت الأذان ، إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره . قدّس الله روحه ونوّر ضريحه .

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله سبحانه وتعالى : « والذين جاهَدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا ، وإن الله لمع المحسنينّ » . ونصوص الجهاد فيها كثيرة .

ولقد كان — رحمه الله — شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما انفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد أو في الإرفاد ، لصدق وبرّ في يمينه . ولقد كان الجهاد وحبه

---

(٣) الكؤس : أو الكوسات : صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص . والمقصود بها موسيقى الجيش .

(٤) أي أن الإفرنج هم الذين سعوا في طلب الصلح .

والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحة على مرج عكا ، فلو لم يكن فى البرج وإلا قتلته . ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما .

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد. ولقد أُلف له كتب عدة فى الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعتُ فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فيه ، وشرحت غريبها . وكان — رحمه الله — كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل

ولأحكين عنه ما سمعته منه : وذلك أنه كان قد أخذ كوكب فى ذى القعدة سنة ٥٨٤ [يناير ١١٨٩] ،وأعطى العساكر دستوراً ، وأخذ عسكر مصر فى العود إلى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل ، رحمه الله . فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس الشريف — حرسه الله تعالى — وسرنا فى خدمته . ولما صلى العيد فى القدس ، وقع له أنه مضى معهم إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها . فأشاروا عليه ألا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى فى عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة . فلم يلتفت ، رحمه الله ، وودع أخاه والعسكر بعسقلان .

ثم سرنا فى خدمته على الساحل طالبين عكا . وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناً شديدا ،وموجه كالجبال كما قال الله تعالى . وكنتُ

حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى حتى خيل إلىّ أننى لو قال لى قائل إن جزت فى البحر ميلا واحداً ملّكتك الدنيا لما كنت أفعل . واستسخفت رأى من ركب البحر رجاء لكسب دينار أو درهم ، واستحسنتُ رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر

هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدتهُ من حركة البحر وتموجه . فبينما أنا فى ذلك ، إذ التفتَ إلىّ رحمه الله وقال : « أما أحكى لك شيئا؟» قلت : « بلى » . قال : « فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسّمت البلاد ، وأوصيتُ وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » . فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ماكان يخطر لى ، وقلت له : « ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى نية منه فى نصرة دين الله تعالى » . فقال : « وكيف ؟ » . فقلت : « أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله . وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص فى الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم » . واستأذنت فى أن أحكى له ما كان يخطر لى فأذن ، فحكيت له ثم قلت : « ما هذه إلا نية جميلة ، ولكن المولى يُسيّر فى البحر العساكر ، وهو سور الإسلام ومنعته ، لا ينبغى له أن يخاطر بنفسه » . فقال : « أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ؟ » فقلت : « الموت فى سبيل الله » . فقال : « غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات » .

فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها رحمة الله عليه .

اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك رجاء رحمتك . فارحمه .

ذكر طرف من صبره واحتسابه

قال الله سبحانه وتعالى « ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

ولقد رأيته ، رحمه الله ، بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئا على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يُفرَّق على الناس . وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال . وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل ، وأنا أتعجب من ذلك فيقول : « إذا ركبتُ يزول عنى ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية » .

ولقد مرض ، رحمه الله ، ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه ، فبلغ الفرنج ذلك ، فخرجوا طمعاً فى أن ينالوا من المسلمين شيئاً بسبب مرضه وهى نوبة النهر ، فخرجوا فى مرحلة إلى الآبار التى تحت التل . فأمر هو — رحمه الله — بالثقل حتى تجهز للرحيل ، والتأخر إلى جهة الناصرة . وكان عماد الدين — صاحب سنجار — متمرضاً أيضا ، فأذن له حتى يتأخر مع الثقل ، وأقام هو . ثم رحل العدو فى اليوم الثانى يطلبنا ، فركب على مضض ، ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقى الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر فى القلب والملك الأفضل ، ونزل هو وراء القوم يطلبه . وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه إفرنجى قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه . وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ،

وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح و يتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس عليه ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم ، إلى أن دخل الليل . ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى محال المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ، ونحن فى خدمته ، إلى قسة الجبل . فضربت له خيمة لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرّضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ تارة أخرى ، حتى لاح الصباح. ثم ضُرب البوق ، وركب هو ، وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائدا إلى خيامهم من الجانب الغربى من النهر ، وضايقه المسلمون فى ذلك اليوم مضايقة شنيعة .

وفى ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا ، الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر ، وجميع من حضر منهم . ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارضُ الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير ، فيظن الرائى لها عن بُعد أن تحتها خلقا عظيما ، وليس تحتها إلا واحد يُعَدّ بخلق عظيم. ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم ، وكلما قتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جرح منهم رجل حملوه ، حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم ، حتى اشتد بهم الأمر ، ونزلوا عند الجسر . وكان الإفرنج متى ما نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم ، لأنهم يحتمون فى حالة النزول حماية عظيمة . وبقى — رحمه الله — فى موضعه ، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار . ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم. وعدنا إلى منزلنا فى الليلة الماضية ، فبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح من مضايقة العدو . ورحل العدو ، وسار على مضض من القتل

والقتال ، حتى دنا إلى خيامه ، وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم .

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، إلى أى غاية بلغ هذا الرجل . اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ، ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق ، يسمى إسماعيل ، فوقف على الكتاب ولم يعرّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره . ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه .

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها ، وقد قال : « لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق » . ورتّب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه . وكنا طول الليل فى خدمته فى ألذ فكاهة وأرغد عيشة ، والرسل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلانى كذا ، ومن المنجنيق الفلانى كذا حتى أتى الصباح وقد فُرغ منها ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها . وكانت من أطول الليالى وأشدها برداً ومطرا .

ورأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقى الدين عمر — ابن أخيه — ونحن فى مقابلة الإفرنج جريدة على الرملة ، وفى كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرملة ، والعدو بيازور ، وبيننا وبينها شوط فرس لا غير . فأحضر الملك العادل ، وعلم الدين سليمان ابن جندر ، وسابق الدين بن الداية ، وعز الدين بن المقدم ، وأمر بالناس فطُردوا من قريب من الخيمة ، بحيث لم يبق حولها أحد ، زيادة عن غلْوة سهم . ثم أظهر الكتاب ، ووقف عليه ، وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا ، من غير أن نعلم السبب . ثم قال ، رحمه الله ، والعبرة تخنقه ، : « توفى

تقى الدين » . فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثم عدت إلى نفسى فقلت : « استغفروا الله تعالى من هـذه الحالة ، وأنظروا أين أنتم وفيم أنتم ، وأعرضوا عما سواه » فقال رحمه الله ، : « نعم . استغفر الله » . وأخذ يكررها ، ثم قال : « لا يعلم بهذا أحد » . واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم استحضر الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا ، وعدنا نحن إلى النطرون ، وهو مقر ثقلنا .

وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار ، وهو صابر على مفارقتهم ، راض ببعدهم عنه . وكان صابرا على مُرّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى .

اللهم إنه ترك ذلك كله اتباعا لمرضاتك ، فارض عنه وارحمه .

ذكر نُبذ من حلمه وعفوه

قال الله سبحانه وتعالى : « والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » . ولقد كان حليما متجاوزا قليل الغضب .

ولقد كنت فى خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا ، يسَّر الله فتحها » . وكان من عادته أن يركب فى وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ويصلى ، ويجلس خلوة وأنا فى خدمته نقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه . ولقد قرأ علىَّ كتابا مختصراً لسليم الرازى يشتمل على الأرباع الأربعة فى الفقه . فنزل يوما على عادته ومُد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقيل له : « إن وقت الصلاة قد قرب » ، فعاد إلى الجلوس وقال : « نصلى وننام » ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلى المكان إلا ممن لزم . فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض

عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : « أنا الآن ضجران، أخرها ساعة». فلم يفعل ، وقدّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرأها . فوقف على الاسم المكتوب فى رأسها فعرفه ، فقال : « رجل يستحق » . فقال : « يوقع المولى له » . فقال : « ليست الدواة حاضرة الآن » . وكان ، رحمه الله، جالسا فى باب الخركاة [الخيمة] بحيث لايستطيع أحد الدخول إليها ، والدواة فى صدرها، والخركاة كبيرة . فقال له المخاطب : « هذه الدواة فى صدر الخركاة » . وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير . فالتفت ، رحمه الله ، فرأى الدواة ، فقال : « والله لقد صدق » . ثم امتد على يده اليسرى ، ومدّ يده اليمنى فأحضرها ووقّع له . فقلت : « قال الله تعالى فى نبيه صلى الله عليه وسلم « وإنك لعلى خلق عظيم» ، وما أرى المولى إلا قد شاركه فى هذا الخلق » . فقال : « ما ضرّنا شىء ، قضينا حاجته وحصل الثواب » .

ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومَن الذى يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك . وهذا غاية الإحسان والحلم، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ولقد كانت طراحته (١) تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص ، وهو لا يتأثر عنده لذلك . ولقد نفرت يوما بغلتى من الجمّال وأنا راكب فى خدمته ، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم ، رحمه الله. ولقد دخلتُ بين يديه فى يوم ريح مطير إلى القدس الشريف ، وهو كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه ، وهو يبتسم. وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركنى .

ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ،

---

(١) وسادته .

ويلقى ذلك بالبشر والقبول . وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها : وذلك أنه كان قد اتجه أخو ملك الإفرنج ، خذلهم الله ، إلى يافا . فإن العسكر كان قد رحل عنهم وبَعُدَ وتراجع إلى النطرون ، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجدّ وثلاث معتادة . وجرد رحمه الله العسكر ومضى إلى قيسارية يلتقى نجدتهم عساه يبلغ منها غرضا . وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك، وكان بها الإنكتار (١) ومعه جماعة ، فجهّز معظم من كان عنده فى الركب إلى قيسارية ، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر . وبقى الإنكتار فى نفر يسير لعلمهم ببعده — رحمه الله — عنهم ، وبعد العسكر . ولما وصل رحمه الله إلى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت البلد واحتمت به ، وعلم أنه ماينال منهم غرضه ، سرى من ليلته أول الليل إلى آخره ، حتى أتى يافا صباحا ، والإنكتار فى سبعة عشر فارسا وتقدير ثلاثمائة راجل ، نازلا خارج البلد فى خيمة له . فصبحه العسكر صباحا ، فركب الملعون ، وكان شجاعا باسلا صاحب رأى فى الحرب ، وثبت بين يدى العسكر ، ولم يدخل البلد . فاستدار العسكر الإسلامى بهم إلا من جهة البلد ، وتعبى العسكر تعبية القتال ، وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازا للفرصة . فأجابه بعض الأكراد الأمراء بكلام فيه خشونة ، حاصلُهُ تعتب ، لعدم التوفير فى إقطاعه . فعطف رحمه الله عنان فرسه كالمغضب ، لعلمه أنهم لا يعملون فى ذلك اليوم شيئا . وتركهم وانصرف راجعا ، وأمر بخيمته التى كانت منصوبة أن قُلعت ، وانفض الناس عن العدو متيقنين أن السلطان فى ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة . ولقد حكى لى ولده الملك الظاهر — أعز الله أنصاره — أنه خاف منه فى ذلك اليوم حتى أنه لم يتجاسر أن يقع فى عينه ، مع أنه حمل فى ذلك اليوم وأوغل حتى منعه ، رحمه الله . ولم يزل السلطان سائرا حتى نزل بيازور ، وهى مرحلة لطيفة ، فضربت له خيمة لطيفة هنالك ، ونزل بها ، ونزل العسكر

---

(١) ملك الكلترا ريتشارد قلب الأسد .

فى منازلهم تحت صايوانات لطيفة كما جرت العادة فى مثل ذلك الوقت ، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة ، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه . قال : « ولم تحدثنى نفسى بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعانى . فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة ، فقال : اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئا . فسرّى عنى ما كنت أجده ، وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل ، كأن لم يجر شيء أصلا .

فانظر إلى هذا الحلم الذى لا يتأتى فى مثل هذا الزمان ، ولا حكى عمن تقدم من أمثاله . رحمة الله عليه .

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق ». وكان صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذى يبدأ بذلك .

ولقد كان السلطان كثير المروءة ، ندىّ الوجه ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أنه يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، وما يخاطبه فى شيء إلا وينجزه . وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا . ولقد وفد عليه البرنس — صاحب أنطاكية — فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح فى شهر شوال سنة ٥٨٨ [نوفمبر ١١٩٢] ، عند منصرفه من القدس إلى دمشق . عرض له فى الطريق ، وطلب منه شيئا ، فأعطاه العمق وهى بلاد كان أخذها من عام فتح الساحل ، وهو سنة ٥٨٤ [١١٨٨ — ١١٨٩] . ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة ، فاحترمه وأكرمه وأكل معه

الطعام . ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه ، وحثه عليه . وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الأقدار . وكان يوصينا بألا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه .

ولقد مرّ بنا سنة ٥٨٤ رجل جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوى الأقدار . وأبوه كان صاحب توريز ، فأعرض هو عن فن أبيه ، واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائراً لبيت الله المقدس . ولما قضى لبانته منه ، ورأى آثار السلطان فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينـا فى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلا وقد دخل علىّ فى الخيمة . فلقيته ورحبت به ، وسألته عن سبب وصوله ، فأخبرنى بذلك ، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة . فعرّفت السلطان تلك الليلة وصول هذا الرجل. فاستحضره وروى عنه حديثا وشكره عن الإسلام وحثه على الخير . ثم انصرفنا وانصرف معنا ، وبات عندى فى الخيمة . فلما صلينا الصبح أخذ يودعنى . فقبحت له المسير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفت ولم يَلْوِ على ذلك ، وقال : « قد قضيت حاجتى منه ، ولا غرض لى فيما عدا رؤيته وزيارته » . وانصرف من ساعته . ومضى على ذلك ليال ، فسأل السلطان عنه ، فأخبرته بفعله . فظهر عليه آثار التعتب ، كيف لم أخبره برواحه . وقال : « كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسّه منا ؟ » وشدّد النكير علىّ فى ذلك ، فما وجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين — قاضى دمشق — كلفته فيه السؤال عن حال الرجل ، وإيصال رقعة كتبتُها إليه طىّ كتابى ، وأخبرته فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به ، وحسّنت له فيها العود ، وكان بينى وبينه صداقة تقتضى مثل ذلك . فما أحسست به إلا وقـد عاد إلىّ . فكتبت رقعة وأعلمته بذلك ، فكتب إلىّ يقول : « تحضره معك » ففعلت ذلك فرحب به ، وانبسط معـه ، واستوحش له ، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركوبا لائقا ، وثيابا كثيرة يحملها إلى

أهل بيته وأتباعه وجيرانه ، ونفقة يرتفق بها ، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجى ، وقد هابه بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع . فقال له الترجمان : « من أى شيء تخاف؟ » فأجرى الله على لسانه أن قال : « كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه . فبعد رؤيتى له وحضورى بين يديه ، أيقنتُ أنى ما أرى إلا الخير ». فرقّ له ومنّ عليه وأطلقه .

ولقد كنت راكبا فى خدمته فى بعض الأيام قبالة الإفرنج ، وقد وصل بعض اليَزَكيّة ومعه امرأة شديدة التحرق ، كثيرة البكاء ، متواترة الدق على صدرها . فقال اليزكى : « إن هذه خرجت من عند الفرنج وسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها » . فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها ، فقالت : « إن اللصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتى وسرقوا ابنتى ، وبتّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقيل لى : الملك هو رحيم ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك . فأخرجونى إليك ، وما أعرف إبنتى إلا منك » . فرقّ لها ، ودمعت عينه ، وحرّكته مروءته ، وأمر مَنْ ذهب إلى سوق العساكر يسأل عن الصغيرة : من اشتراها ، ويدفع له ثمنها ويحضرها . وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه . فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه . فما كان إلا أن وقع نظرها عليها ، فخرّت إلى الأرض تمرّر وجهها فى التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وترفع طرفها إلى السماء . ولا نعلم ما تقول . فسُلمت ابنتها إليها ، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان رحمه الله لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط فى الخيانة. ولقد قُلب فى خزانته كيسان من الذهب المصرى بكيسين من الفلوس ،

فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم ، لا غير .

ولقد دخل عليه البرنس أرناط [رينولد] ، صاحب الكرك ، مع ملك الفرنج بالساحل لما أسرهما فى وقعة حطين فى شهور سنة ٥٨٣ [١١٨٧]، والوقعة مشهورة تجىء مشروحة فى موضعها إن شاء الله تعالى . وكان قد أمر بإحضارهما . وكان هذا أرناط اللعين كافراً لعيناً جباراً شديداً . وكان قد اجتازت به قافلة من مصر — حرسها الله تعالى — حين كانت بين المسلمين وبينهم هدنة — فغدرها وأخذها ، ونكّل بهم وعذّبهم ، وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة ، وأذكروه حديث الهدنة ، فقال : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » .

فلما بلغه — رحمه الله — ذلك عنه ، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه . فلما مكّن الله منه فى ذلك اليوم ، قوى عزمه على قتله وفاء بنذره ، فأحضره مع الملك . فشكا الملك العطش فأحضر له قدحاً من شراب فشرب منه ، ثم ناوله أرناط . فقال السلطان للترجمان : « قل للملك : أنت الذى سقيته ، وأما أنا فما أسقيه من شرابى ولا أطعمه من طعامى » . فقصد — رحمه الله — أن من أكل من طعامى فالمروءة تقتضى ألا أوذيه . ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره . وأخذ عكا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير ، وأعطى كلا منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله . هكذا باغنى على ألسنة الجماعة ، فإننى لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفاكهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد المحاضرة منه مالا يسمع من غيره . وكان حسن الخلق ، يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله . وكان طاهر المجلس ،

لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير ، وطاهر السمع ، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان ، فما رأيته ولع بشتم قط ، وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط . وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحّم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخافه . وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلّمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته . وكان ما يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه . ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقار رحمته ومحال رضوانه .

فهذه نبذة من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، اقتصرت عليها خوف الإطالة والإسآم . وما سطّرت إلا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به وحقّقته . وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له ؛ وهو يسير مما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدّمت خدمته . ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

الفصل الثانى

كان عام ٥٨٣ هـ [١١٨٧] عام معركة حطين الفاصلة التى انتصر فيها جيش صلاح الدين ، وكسرت من قوة الصليبيين فى الشام إلى حين . وقد تبع المعركة فقدان الصليبيين لعدد كبير من معاقلهم ثم استعادة صلاح الدين لبيت المقدس ، وهو نصر ملىء بالشواهد على مروءته واعتداله . واعتمادنا فى سرد هذه الأحداث على مصدرين : عمـــاد الدين الكاتب الأصفهانى وابن الأثير ، أما ابن شداد فلم يكن شاهـــد عيان للأحداث إلا اعتباراً من عام ١١٨٨ . وسنورد فيما يلى وصف كل من العماد وابن الأثير لمعركة حطين واستعادة القدس . فأما أسلوب ابن الأثير فواضح رزين . وأما العماد فأسلوبه ثقيل متصنع ، غير أن روايته هى رواية شاهد العيان ، وأقرب الروايات إلى القبول .

(١)

ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القُمّص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير
الجزء الحادى عشر ، ص ٥٢٦–٥٢٧]

كان القُمّص ، صاحب طرابلس ، واسمــه ريمُنْد بن ريمُنْد الصنجيلى (١) ، قد تزوّج بالقومصة ، صاحبة طَبَريّة ، وانتقل إليها وأقام عندها بطبرية . ومات ملك الفرنج(٢) بالشام ، وكان مجذوماً ،

---

(١) ريموند الثالث .
(٢) بولدوين الرابع (١١٧٤ – ١١٨٥) .

وأوصى بالمُلك إلى ابن أخت له ، وكان صغيراً (١) . فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأناً ، ولا أشجع ولا أجود رأياً منه . فطمع فى الملك بسبب هذا الصغير . فاتفق أن الصغير توفى ، فانتقل الملك إلى أمه ، فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به . ثم إن هذه الملكة(٢) هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب إسمه كى(٣) ، فتزوجته ، ونقلت المُلك إليه ، وجعلت التاج على رأسه ، وأحضرت البطرق والقسوس والرهبان والإسبتاريّة(٤) والداويّة(٥) والبارونية(٦) ، وأعلمتهم أنها قد ردّت المُلك إليه ، وأشهدتهم عليها بذلك . فأطاعوه ودانوا له . فعظم ذلك على القمص ، وسُقط فى يديه ، وطولب بحساب ما جبيَ من الأموال مدّة ولاية ذلك الصبي ، فادّعى أنه أنفقه عليه . وزاده ذلك نفوراً ، وجاهر بالمشاقة والمباينة ، وراسل صلاح الدين ، وانتمى إليه ، واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج . ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد ، وضمن له أنه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة . وكان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فأطلقهم ، فحلّ ذلك عنده أعظم محل ، وأظهر طاعة صلاح الدين ، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج . فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم . وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم ، على ما نذكره إن شاء الله .

---

(١) بولدوين الخامس، توفى عام ١١٨٦ بعد بضعة أشهر من ملكه .

(٢) سيبيلا : أخت بولدوين الرابع وأم بولدوين الخامس .

(٣) « Guy of Lusignan » .

(٤) « Hospitallers » .

(٥) « Templars » .

(٦) جمع بارون .

وسيّر صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية ، فشنّت الغارات على بلاد الفرنج ، وخرجت سالمة غانمة . فوهن الفرنج بذلك وضعُفوا ، وتجرّأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم .

(٢)

ذكر غَدْر البرنس أرناط

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ،
الجزء الحادى عشر ، ص ٥٢٧ — ٥٢٨]

كان البرنس أرناط [رينولد] ، صاحب الكرك(١) ، من أعظم الفرنج وأخبثهم ، وأشدّهم عداوة للمسلمين ، وأعظمهم ضرراً عليهم . فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة ، وبالغارة على بلاده كرّة بعد أخرى . فذلّ وخضع ، وطلب الصلح من صلاح الدين ، فأجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفا ، وترددت القوافل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى الشام . فلما كانت هذه السنة [٥٨٢ هـ / ١١٨٦—١١٨٧م] ، اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الأجناد . فغدر اللعين بهم ، وأخذهم عن آخرهم ، وغنم أموالهم ودوابّهم وسلاحهم ، وأودع السجون مَن أسره منهم . فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ، ويقبّح فعله وغدره ، ويتهدده إن لم يطلق الأسرى والأموال . فلم يجب إلى ذلك وأصرّ على الامتناع . فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به . فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) حصن بالأردن على الطريق بين مصر والشام ، وبين مصر والحجاز .

(٣)
ذكر حصر صلاح الدين الكرك

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، ص ٥٢٩ — ٥٣٠]

فى هــذه السنة [٥٨٣ — ١١٨٧] كتب صلاح الدين يستنفر الناس للجهاد ، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق ، وإلى مصر وسائر بلاد الشام ، يدعوهم إلى الجهاد ويحثّهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان . ثم خرج من دمشق أواخر المحرّم [إبريل ١١٨٧] فى عسكرها الخاص ، فسار إلى رأس المــاء ، وتلاحقت به العساكر الشامية . فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل عليًّا ليجتمع إليه مَن يرد إليه منها ، وسار هو إلى بُصرى ، جريدة . وكان سبب مسيره وقصده إليها أنه أتته الأخبار أن البرنس أرناط ، صاحب الكرك ، يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم ، وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصرى يصدّهم عن الوصول إلى صلاح الدين . فسار إلى بُصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفاً عليه . وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد ابن لاجين ، وهو ابن أخت صلاح الدين ، وغيره . فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه ، وانقطع عما طمع فيه ، فوصل الحجاج سالمين . فلما وصلوا وفرغ سِرّه من جهتهم ، سار إلى الكرك فحصره وضيّق عليه ، وانتظر وصول العسكر المصرى . فوصلوا إليه على الكرك . وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما ، فنهبوا وخرّبوا وأحرقوا ، والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده ، وسائر الفرنج قد لزموا طرف بلادهم خوفاً من العسكر الذى مع ولده الأفضل . فتمكن من الحصر والنهب والتحريق والتخريب . هذا فعل صلاح الدين .

(٤)

ذكر الغارة على بلد عكا

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، ص ٥٣٠ — ٥٣١]

أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة صالحة من الجيش إلى بلد عكا ينهبونه ويخرّبونه . فسيّر مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين ، وهـو صاحب حرّان والرُّها ، وأضاف إليه قايماز النّجمى ودِلْدرِم الياروقى ، وهما من أكابر الأمراء ، وغيرهما . فساروا ليلا ، وصبّحوا صَفُّورية أواخر صفر [مايو ١١٨٧] ، فخرج إليهم الفرنج فى جمع الداوية والاسبتارية وغيرهما ، فالتقوا هناك ، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود .

ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، فانهزم الفرنج ، وقتل منهم جماعة ، وأسر الباقون . وفيمن قُتل مقدم الاسبتارية (١) ، وكان من فرسان الفرنج المشهورين ، وله النكايات العظيمة فى المسلمين . ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد ، وغنموا وسبوا ، وعادوا سالمين . وكان عودهم على طبرية ، وبها القُمّص ، فلم ينكر ذلك . فكان فتحاً كثيراً ، فإن الداوية والاسبتارية هم جمهرة الفرنج . وسيّرت البشائر إلى البلاد بذلك .

(٥)

ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، ص ٥٣١ — ٥٣٢]

لمـا أتت صلاحَ الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداويّة ، وقَتْل من قتل منهم وأسر من أسر ، عاد عن الكرك إلى العسكر الذى مع ولده

---

(١) روجير ديمولان .

الملك الأفضل وقد تلاحقت سائر الأمداد والعساكر . واجتمع بهم وساروا جميعاً . وعرض العسكر فبلغت عدّتهم اثنى عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية ، سوى المتطوعة . فعبّأ عسكره قلبا وجناحين ، وميمنة وميسرة ، وجالشية وساقة (١) ، وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته . وسار على تعبئة فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية. وكان القمص قد انتمى إلى صلاح الدين كما ذكرنا ، وكتبه متصلة إليه يعده النصرة ، ويمنّيه المعاضدة ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فلما رأى الفرنج اجتماع العساكر الإسلامية ، وتصميم العزم على قصد بلادهم ، أرسلوا إلى القمص البطرك والقسوسّ والرهبان ، وكثيراً من الفرسان ، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين ، وقالوا له : لا شك أنك أسامت ،وإلا لم تصبر على ما فعل المسلمون أمس بالفرنج ، يقتّلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ، ويجتازون بهم عليك ، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه » . ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس . وتهدّده البطرك أن يحرمه ، ويفسخ نكاح زوجته ، إلى غير ذلك من التهديد . فلما رأى القمص شدة الأمر عايه خاف ، فاعتذر وتنصّل وتاب . فقبلوا عذره ، وغفروا زلته ، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين ، والمؤازرة على حفظ بلادهم . فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع معهم ، وسار معهم إلى ملك الفرنج ، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ، ولم تغن عنهم من الله شيئاً . وجمعوا فارسهم وراجلهم ، ثم ساروا إلى عكا من صفورية ، وهم يقدّمون رجلا ويؤخرون أخرى ، قد ملئت قلوبهم رعبا .

---

(١) مقدمة ومؤخرة ..

(٦)

ذكر فتح صلاح الدين طبرية

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ،
من صفحة ٥٣٢ — ٥٣٤]

لما اجتمع الفرنج وساروا إلى صَفّورية ، جمع صلاح الدين أمراءه ووزراءه واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يُضعف الفرنج بشن الغارات ، وإخراب الولايات مرة بعد مرة . فقال له بعض أمرائه : « الرأى عندى أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرّب ونحرق ونسبي . فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه . فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين . والرأى أن نفعل فعلا نُعذَر فيه ونكف الألسنة عنا » . فقال صلاح الدين : « الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لاتجرى بحكم الإنسان ، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ، ولا ينبغى أن نفرّق هذا الجمع إلا بعد الجدّ بالجهاد » .

ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها ، وهو يوم الخميس ٢٣ من ربيع الآخر [٢ يوليو ١١٨٧] . فسار حتى خلّف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير منهم أحداً ولا فارقوا خيامهم . فنزل وأمر العسكر بالنزول . فلما جنّه الليل جعل فى مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلها ، ونقب بعض أبراجها ، وأخذ المدينة عنوة فى ليلة ، ولجأ من بها إلى القلعة التى لها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها أولادها ، فنهب المدينة وأحرقها .

فلما سمع الفرنج نزول صلاح الدين إلى طبرية وملكه المدينة ، وأخذه ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلّف مما لا يُحمل اجتمعوا للمشورة. فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية . فقال القمص : « إن طبرية لى ولزوجتى . وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقى القلعة وفيها زوجتى . وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود . فو الله لقد رأيت عساكر الإسلام قديما وحديثاً ، ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة . وإذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها . فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها . وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم . فيضطر إلى تركها ، ونفتك ممّن أسرّمنا » . فقال له برنس أرناط صاحب الكرك : « قد أطلتَ فى التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلا ماكنت تقول هذا . وأما قولك إنهم كثيرون ، فإن النار لايضرّها كثرة الحطب » . فقال : « أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون ما يكون » .

فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذى لزموه ، وقربوا من عساكر الإسلام . فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره ، وكان قريبا منه . وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم . وكان المسلمون قد نزلوا على الماء ، والزمان قيظ شديد الحر . فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين . وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين . فبقوا على حالهم إلى الغد ، وهو يوم السبت ، وقد أخذ العطش منهم.

وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم ، وكانوا من قبل يخافونهم . فباتوا يحرّض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر . وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان ، زاد طمعهم وجرأتهم فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم . ورتّب السلطان تلك الليلة الجاليشية ، وفرّق فيهم النشاب .

(٧)

ذكر انهزام الفرنج بحطّين

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، من صفحة ٥٣٤ — ٥٣٨]

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت ٢٤ من ربيع الآخر [٤ يوليو ١١٨٧] ، فركبوا وتقدموا إلى الفرنج . فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض ، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا . فاقتتلوا واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، ورمى جاليشيّة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر ، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً . هذا القتال بينهم ، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية ، لعلهم يردون الماء . فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدّهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر فى وجوههم ، وطاف بنفسه على المسلمين يحرّضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرّهم ، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه . فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج ، فقاتل قتالا عجب منه الناس . ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه . فحين قُتل حمل المسلمون حملة منكرة فضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً . فلما رأى القمص شدة الأمر ، علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين . فاتفق هو وجماعته ، وحملوا على

مَن يليهم . وكان المقدّم من المسلمين فى تلك الناحية ، تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين . فلمـــا رأى [تقى الدين] حملة الفرنج حملة مكروب ، علم أنه لا سبيل إلى الوقوف فى وجوههم . فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه ، ففعلوا ،فخرج القمص وأصحابه ، ثم التأم الصف .

وكان بعض المتطوّعة من المسلمين قد ألقى فى تلك الأرض ناراً ، وكان الحشيش كثيراً فاحترق . وكانت الريح على الفرنج ، فحملت حرّ النار والدخان إليهم . فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحر النار والدخان وحرّ القتال . فلما انهزم القمص ، سُقط فى أيديهم وكادوا يستسلمون . ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه . فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون بها المسلمين ، على كثرتهم، عن مواقفهم لولا لطف الله بهم . إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قُتل منهم . فوهنوا لذلك وهنا عظيما ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها . فارتفع مَن بقى من الفرنج إلى تل بناحية حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ، ويحموا نفوسهم به . فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، ومنعوهم عما أرادوا ، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم . وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذى يُسمونه صليب الصلبوت ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التى صُلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم . فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك . هذا والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم ورجالتهم ، فبقى الملك على التل فى مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين .

فحكى لى عن الملك الأفضل ، ولد صلاح الدين ، قال : « كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته . فلما صار

ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين ، حتى ألحقوهم بوالدى . فنظرت إليه وقد علته كآبة ، واربدّ لونه وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ! فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا وصعدوا إلى التل. فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم ! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى . وفعل مثل مافعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل . فصحت أنا أيضا : هزمناهم ! فالتفت والدى إلىّ وقال : أسكت ! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة . فهو يقول لى ، وإذا الخيمة قد سقطت . فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ، وبكى من فرحه .

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض تلك الحملات مما هم فيه . فلمـا لم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض. فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم على بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن للفرنج أشد منه عداوة للمسلمين . وأسروا أيضاً صاحب جُبيل ، وابن هنفرى ، ومقدّم الداوية وكان من أعظم الفرنج شـأنا ، واسروا أيضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية . وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا . وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة ٤٩١ [١٠٩٨]، إلى الآن ، بمثل هذه الوقعة .

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته ، وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك . وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه

العطش ، فسقاه ماء مثلوجا ، فشرب ، وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب . فقال صلاح الدين : «إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني» . ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه غدراته . وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ، وقال : «كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به : إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدرا» . فلما قتله وسُحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك ، فسكّن جأشه وأمّنه .

وأما القمص صاحب طرابلس ، فإنه لما نجا من المعركة ، كما ذكرنا ، وصل إلى صور ، ثم قصد طرابلس. ولم يلبث إلا أياما قلائل حتّى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة ، وعلى دين النصرانية عامة .

(٨)

ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعتها مع المدينة

[من كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير ،
الجزء الحادى عشر ، صفحة ٥٣٨]

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج ، أقام بموضعه باقى يومه.وأصبح يوم الأحد ، فعاد إلى طبرية ونازلها ، فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها . فأجابها إلى ذلك . فخرجت بالجميع فوفى لها ، فسارت آمنة . ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى ، فأرسلوا إلى دمشق ، وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن يُجمعوا ليقتلهم :

ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه . فبذل فى كل

أسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصرية . فأحضر عنده في الحال مائتا أسير منهم . فأمر بهم فضُربت أعناقهم . وإنما خصّ هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج . فأراح الناس من شرهم . وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ، ففعل ذلك . ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد ، منها المجتمع بعضه على بعض ، ومنها المفترق . هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد .

(٩)

ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر إلى ديار الفرنج

[من كتاب « الفتح القدسي » للعماد الكاتب
الأصفهاني ، من صفحة ٦٩ - ٨٧]

أصبح بالمخيم عارضا من العسكر لعارض ثجاج(١) ، وبحر بالعجاج عجّاج(٢) ، وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذي أمواج . وقد رتّب أبطاله وأطلابه(٣) ، وسحب على وجه الأرض سحابه ، ونقل به من الثرى إلى الثريا ترابه ، وأطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه . وقد فض الفضاء ختام القتام(٤) ، وشُدّت للشدائد كتب الكتائب على حمام الحمام ، وحنت ضلوع الحنايا على أجنة السهام . وتكفلت العوجاء بالمعتدلة ،

(١) العارض : السحاب الممطر . والثجاج : الذي يسيل ماؤه بغزارة .
(٢) العجاج : الغبار والدخان . والعجاج : الصياح .
(٣) الأطلاب : جمع طلب ، لفظ كردي يطلق على الأمير الذي يقود مائتي فارس ، أو القائد الذي يقود مائة جندي أو سبعين .
(٤) الغبار .

وضمت المنفلتة إلى المنفتلة . ووفت الأوتار بالأوتار ، وثار كل طُلب لطلب الثار . ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيبا ، ويبوبه تبويبا ، ويعبّيه بعيدا وقريبا . وقرر لكل أمير أمرا ، ولكل مقدام مقاما ، ولكل موفق موقفا ، ولكل كمين مكانا ، ولكل قرن قرانا(١) ، ولكل جمر مطفئا ، ولكل جمع مُكفئا ، ولكل زند موريا ، ولكل حدّ مهميا(٢) ، ولكل قضية حكما ، ولكل حنية(٣) سهما ، ولكل يمين مقضبا(٤) ، ولكل يمان مقبضا ، ولكل ضامر مضمارا ، ولكل مغوار مغارا ، ولكل رام مرتمى ، ولكل نام منتمى ، ولكل سام مَتَسْمّى ، ولكل اسم مسمى .

وعيّن لكل أمير موقفا في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه . وأخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طُلب ، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب . وقال : « إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا ، ومواضع أطلابنا ، ومطالع أبطالنا ، ومصارع أسنتنا ، وشوارع أعنتنا ، وميادين جردنا(٥) ، وبساتين وردنا ، ومواقف صروفنا ، ومصارف وقوفنا ، ومرامي مرامنا ، ومجالي مجالنا » . وقوّى الآمال بما بذله من الأموال ، وحقق في إنجاز المواعد وإنجاح المقاصد رجاء الرجال ، وجمع العَدد وفرّق العُدد . ووهب الجياد وأجاد المواهب ، ورغّب في العطايا وأعطى الرّغائب . ونثر الخزائن ، ونثل الكنائن(٦) . وأنفق الذخائر واستنفد كرائمها والأخاير . وقسم أحمال

---

(١) القرن : الكفء في الشجاعة . والقران : حبل يشد في العنق . والمقصود ، أنه جعل لكل سيد شجاع من الأعداء حبلا يشد به عنقه .

(٢) أمهى السيف : أحده .

(٣) الحنية : القوس .

(٤) المقضب : ما قطع من الأغصان للسهام أو القسى .

(٥) الجرد : واحدها أجرد وهو السباق من الخيل .

(٦) نثل الكنائن : استخرج نبالها ونثرها .

النشاب ، فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب . وأجرى الجرد وأجنى الأجناد(١) ، وأذكى المذاكى وأشهد الأشهاد . وأذال مناقب المقانب(٢) ، واستمال معاطف المعاطب ، وقوّى القواطع وروى الروائع .

وعاد إلى المخيّم مسرورا مجبورا ، مقبولا مبرورا ، موفورا مشكورا ، وقد رتّب وربت ، وقنب وكتّب ، وثبت ونبت . قد برّ عمله وأبر أمله ، وفاح نشره ولاح بشره ، وتأرج رياه وتبلج محياه . وأيقن بالظفر وظفر باليقين ، وأمن إلى الدعوى المستدعية للتأمين ، وتيمن بأوضاح عرابه الميامين ، وإيضاح إعرابه فى اقتضاء دين الدين . وأنس ببهجة الخيل ولهجة الخير ، وسُرّ سِرُّه بما سرى له من وجه السير . وشَدّ حُزُم الحَزْم ، وجَدّ فى العَزْم الجزم . وقدم الاسراج للإسراء وألجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة السابع عشر ربيع الآخر(٣) والتوفيق مسايره ، والتأييد موازره ، والتمكين مضافره ، والسعد مظاهره ، والجد مكاثره ، واليمين محاضره والعز مسامره ، والظفر مجاوره ، والإسلام شاكره ، والله عزوجل ناصره . وسار على الهيئة التى قدمنا ذكرها من المقانب المقنّبة ، والكتائب المكتّبة والمراتب المرتّبة ، والمذاهب المهذبة ، والسلاهب المجنّبة (٤) ، والصوائب المجعبة(٥) ، والهواضب المقربة ، والثعالب المذربة(٦) ، واللهاذم الهاذمة(٧) والصلادم اللاذمة(٨) ، والضراغم الضاغمة(٩) . وخيّم على خسفين (١٠) ، وقد أدنى

---

(١) أجنى الأجناد : أى كثرها .
(٢) المقانب : مخالب الأسد .
(٣) ٢٧ يونيو ١١٨٧ م .
(٤) السلهب : الطويل من الخيل ، والمجنبة : التى تسير جنبا إلى جنب .
(٥) الصائب : من يجيد التصويب ، والمجعبة : كنانة النشاب .
(٦) الثعالب : أطراف الرماح ، والمذربة : الحادة .
(٧) اللهذم : القاطع من الأسنة ، والهاذمة : القاطعة .
(٨) الصلدم : الأسد ، واللاذمة : المولع بها .
(٩) الضاغمة : التى تعض .
(١٠) قرية من أعمال حوران فى الطريق إلى مصر .

الله الخسف بالعدو وخسوفه ، وكسف الكفر وكسوفه . وباتت الوجوه سافرة ، والعيون في سبيل الله ساهرة ، والأيدي لسيوف الأيد شاهرة ، والألسن لأنعم الله شاكرة ، والقلوب بالإخلاص عامرة ، والأنفس للأنس مسامرة ، والإقدام بالأقدار متضافرة متظاهرة .

ثم أصبح سائرا ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة ، بعزم الصيال(١) وعز الصيانة . وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط ، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط . وبرزت الأرض في تشب أثوابها ، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها . ورست سفن المضارب على تلك الأثباج ، وطمّت الأطلاب أمواجا على أمواج ، وانعقدت سماء العجاج ، وطلعت فيها أنجم الخرْصان(٢) والزّجاج(٣) . وأعاد الأقحوانة رياضا نضرة ، وحدائق مزهرة ، من فرس ورد(٤) ، وفارس كالأسد الورد(٥) ، ومشرفيات(٦) كطاقات الرياحين ، ويزنيات(٧) كأشجار البساتين ، ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين ، وألوية حمر كشقائق النعمان ، وموضونة زغف كالغدران ، ومصقولة بيض كالخلجان ، ومريشة(٨) زرق كالأطيار ، ومحنية عوج كالأفنان ، وبيضة تلمع كثغور الأقحوان . وحبب ترائك على نحور الدارعين ، وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين .

والفرنج قد صفوا راياتهم بصفّورية ، ولووا الألوية ، وملوا على

---

(١) الصيال : الذى يسطو ويستطيل على خصمه .
(٢) الخرص : الرمح .
(٣) الزج : الحديدة فى أسفل الرمح .
(٤) أحمر .
(٥) جرىء .
(٦) السيوف .
(٧) الرماح والسيوف .
(٨) السهام يلصق عليها الريش .

مدود الضوامر قناطر القنطاريات ، وأوقدوا فى ظلام القتام الثائر سرج السريجيات ، وصوبوا إلى صوب قرا الأقران نياب البزنيات ، وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم، وحاطوا بواترهم بواترهم . وجمعوا الأوشاب والأوباش، ورتبوا الجيش وثبتوا الجأش .

وحشدوا الفارس والراجل ، والرامح والنابل ، ونشروا ذوائب الذوابل ، وحشروا أبطال الباطل ، ورفعوا صليب الصلبوت ، فاجتمع إليه عباد الطاغوت ، وضلال الناسوت واللاهوت . ونادوا فى نوادى أقاليم أهل الأقانيم(١) ، وصابوا الصليب الأعظم بالتعظيم . وما عصاهم من له عصا ، وخرجوا عن العد والإحصا ، وكانوا عدد الحصى . وصاروا فى زهاء خمسين ألفا أو يزيدون ، ويكيدون ما يكيدون . قد توافوا على صعيد ، ووافوا من قريب وبعيد ، وهم هناك مقيمون ، لا يرومون حركة ولا يريعون(٢) .

والسلطان صلاح الدين فى كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ، ويراميهم وينكى فيهم . ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعاهم سيوله . فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا . فلو برزوا لبرز إليهم القتلى فى مضاجعهم ، وعاينوا مقام صارعهم فى سوقهم إلى مصارعهم ، وفزعوا مما فيه وفعوا ، وجبنوا عما له تشجعوا . فرأى السلطان أن يطيب ريه من طبرية ، ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية ، ويحوز حوزتها ويملك مملكتها . فجسر على الأردن أردان

---

(١) جمع أقنوم أى الأصل . ويقول بعض المسيحيين إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة وهى : الأب والإبن والروح القدس .

(٢) يريعون : يبرحون .

الردينيات ، وأطلع النقع المثار من البحر بحوافر الأعوجيات(١)، واستسهل عليها ولم يستوعر بيات العربيات. فأمر عساكره، وأمراء جيشه وأكابره، أن يقيموا قبالة الفرنج ، ويضيقوا عليهم واسع النهج . فإن خرجوا للمصاف بادروا إلى الانتقام منهم والانتصاف . وإن تحركوا إلى بعض الجوانب ، وثبوا بهم وثب الأسود بالأرانب . وإن قصدوا طبرية لصونها، وأن يكونوا فى عونها ، عجلوا الإعلام ليعجل عليهم الإقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية فى خواصه، وذوى استخلاصه. وأحضر الجاندارية(٢) والنقابين والخراسانية والحجارين وأطاف بسورها ، وشرع فى هدم معمورها . وصدقها القتال ، وما صدف عنها النزال ، وكان ذلك يوم الخميس . وأخذ النقابون النقب فى برج فهدوه وهدموه ، وتسلقوا فيه وتسلموه . ودخل الليل وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر. وامتنعت القلعة بمن فيها ، من القومصية — ست طبرية — وبنيها . ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده ، سقط فى يده ، وتحرج عن جلد جلده ، وسمح للفرنج بسبده ولبده(٣) ، وقال لهم : « لا قعود بعد اليوم، ولا بد لنا من وقم القوم(٤) ، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد . وما بقى لى صبر ، وما بعد هذا الكسر لى جبر » .

وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، ووافقه ، فما نافقه ، وماحضه

(١) الخيول .

(٢) الجاندارية : وظيفة صاحبها كالمتسلم للباب يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم الديوان . والكلمة فارسية الأصل .

(٣) السبد: قليل الشعر . واللبد : كثيره .

(٤) أى من إذلالهم وردهم .

فما ماذقه(١) ، ووادده فما رادده، وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه ، وبصره وسمعه ، وثعابينه وشياطينه ، وسراحيبه وسراحينه(٢) ، وأتباع غيه وأشياع بغيه . فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غبرته . ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن ثُبات ثباتهم ووثبوا . وعبّوا وعبوا ، ودبّوا حتى يدبوا . وشبوا النار ولبّوا الثأر ، وقدموا للنزول لدار البدار . وذلك في يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر . فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ، بما سبق به حكمه . وسُرّ حين أحاط بمسيرهم علمه . وقال : « لقد حصل المطلوب ، وكمل المخطوب ، وجاءنا ما نريد ، ولنا بحمد الله الحد الحديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العتيد . وإذا صحّت كسرتهم ، وقتلت وأسرت أسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ، ولا عن فتحها وازع » .

واستخار الله وسار ، وعدم القرار . وجاء يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم(٣) ، وكأنهم على اليفاع(٤) في حضيضهم . وقد ماجت خضارمهم(٥) ، وهاجت ضراغمهم ، وطارت قشاعمهم(٦) ، وثارت غماغمهم(٧) ، وسدت الآفاق غمائمهم ، وشاقت ضاربيها جماجمهم . وهم كالجبال السائرة ،

---

(١) ماذقه : لم يخلص له الود .
(٢) سراحيب : جمع سرحوب وهو الفرس الطويلة ، وسراحين : جمع سرحان وهو الذئب أو الأسد .
(٣) القض : الحصى الصغار ، والقضيض الكبار .
(٤) اليفاع ، كل ما ارتفع من الأرض .
(٥) سادتهم .
(٦) نسورهم .
(٧) أصوات مقاتليهم .

وكالبحار الزاخرة . أمواجها ملتطمة ، وأفواجها مزدحمة ، وفجاجها محتدمة وأعلاجها (١) مصطلمه(٢) ، وقد جوى الجو ، وضوى الضوء ، ودوى الدو . والفضاء منفض ، والقضاء منقض . والثريا قداستزار الثرى ، وجر ذيل الخيل قدبرّى البرى . والحوافز الحوافر للأرض حوافر ، والفوارس اللوابس فى البيض(٣) سوافر . وذئاب المذياد(٤) وأجلاد الجلاد ، قدحملوا كل عُدة ، وكملوا كل عدة .

فرتب السلطان فى مقابلتهم أطلابه ، وقصر على مقاتلتهم آرابه . وحصل بعسكره قدامهم ، ورقب على الحملة إقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء ، ومنع ذمامهم(٥) على الذماء(٦) ، وحلأهم(٧) عن الورد ، وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ ، وللقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة ، فوقدتها غير هاجرة ، وشربت ما كان فى إداوتها(٨) ، فهى على الظمأ غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الإسلام للكفر مقابلا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والإيمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، وانتظر مالك واستبشر رضوان(٩) .

حتى إذا أسفر الصباح ، وسفر الصباح وفجّر الفجر أنهار النهار ، ونفّر النفير غراب

---

(١) كفار الأعاجم .
(٢) مستأصلة .
(٣) الخوذات .
(٤) الدفع أو الطرد .
(٥) حقهم .
(٦) بقية الروح .
(٧) طردهم .
(٨) الإداوة : إناء صغير من الجلد .
(٩) مالك : خازن النار ، ورضوان : خازن الجنة .

الغبار ، وانتهت فى الجفون الصوارم ، والتهبت فى الضوامر الضوارم ، وتيقظت الأوتار ، وتغيظت النار ، وسل الغرار (١) وساب القرار ، خرج الحاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ، ورنت القسي وغنت الأوتار . ورقصت مرّان(٢) المراد لجلاء عرائس الجلاد ، وبرزت البيض من ملائها فى الملأ عارية ، ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية .فرجا الفرنج فرجا، وطلب طُلبهم المحرج مخرجا،فكلما خرجوا جرحوا ،وبرح بهم حرالحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء ، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند(٣) ماء . فشوتهم نار السهام وأشوتهم ، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم . وأعجزوا وأزعجوا ، وأحرجوا وأخرجوا . وكلما حملوا رُدّوا وأرْدوا ، وكلما ساروا وشَدّوا ، أسروا وشُدّوا . وما دبت منهم نملة ، ولا ذبت عنهم حملة . واضطرموا واضطربوا ، والتهفوا والتهبوا . وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ،وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ . فآووا إلى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا(٣) ، وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا ، وقشرتهم المنايا وقرشتهم البلايا ، ورقشتهم الرزايا ، وصاروا للردى درايا ، وللقضايا رمايا .

ولما أحس القومص بالكسرة ، حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة ، واحتال فى الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر ، واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بِطُلْبِه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادى وما ود أن يعوج . ومضى كومض البرق ، ووسع

---

(١) حد السيف .

(٢) المران : الرماح .

(٣) السيف .

(٤) الظبا : جمع ظبية وهى حد السيف أو السنان .

خطى خرقه قبل اتساع الخرق . وأفنت فى عدة معدودة ، ولم يلتفت إلى ردة مردودة . وغاب حالة حضور الوغى ، ونابه الرعب الذى نوى الهزيمة به وما ونى . ثم استجرت الحرب ، واشتجر الطعن والضرب ، وأحيط بالفرنج من حواليهم بمـا حووا إليهم ، ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا فى ضرب خيامهم ، وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم ، وفلت حدود الرماة الكماة مضاربهم . وأعجلوا عن نصب الخيم ورفعها ، وشغلوا عن أصل الحياة وفرعها . وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل ، وتجالدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها ، ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها . وأسر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده .

وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى ، وهم يتهادون فى القيـود تهادى السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية، ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية . وأحضر الملك (كى) وأخوه (جفرى) و (أوك) [هيو] صاحب جبيل ، و (هنفرى) . و (البرنس أرناط) صاحب الكَرَك ، وهو أول من وقع فى الشرك . وكان السلطان قد نذر دمه ، وقال لأعجلن عنه وجدانه عدمه . فلما حضر بين يديه ، أجلسه إلى جانب الملك والملك بجنبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه . وقال له : « كم تحلف وتحنث ، وتعهد وتنكث ، وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض » . فقال الترجمان عنه يقول : « قد جرت بذلك عادة الملوك ، وما سلكت غير السنن المسلوك » وكان الملك يلهث ظميا ، ويميل من سكرة الرعب منتشيا . فآنسه السلطان وحاوره ، وفثأ سوْرة الوجل الذى ساوره ، وسكن رعبه ، وأمن قلبه . وأتى بمـاء مثلوج أزال لهثه ، وأزاح من العطش ما كرثه . وناوله الابرنس ليخمد أيضا لهبه ، فأخذه من يده وشربه . فقال السلطان للملك : « لم تأخذ منى فى سقيه إذناً ، فلا يوجب ذلك له منى

أمنا » . ثم ركب وخلاهما ، وبنار الوهل أصلاهما . ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه ، وركزت أعلامه وبيارقه ، وعادت عن الحومة إلى الحمى فيالقه .

فلما دخل سرادقه ، استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه . وحين صرع أمر برأسه فقطع ، وجر برجله قدام الملك حين أخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السلطان أنه خامره الفزع ، وساوره الهلع ، وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ، ومكنه من قربه وسكنه . وقال له : « ذاك رداءته أردته ، وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ، ونبا زند حياته ووردها عن وريه وريه » . وصحت هذه الكسرة ، وتمت هذه النصرة ، يوم السبت ، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد. وكانوا أسوداً فعادوا من النقد(١) ، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد ، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد . وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى . وقيدت الأسارى بالحبال واجفة القلوب ، وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب :

وحطت حطين تلك الجيف على متنها ، وطاب نشر النصر بنتنها . وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة ، بالعراء عراة ، ممزقة بالمازق ، مفصلة المفاصل مفرقة المفارق ، مغلقة المغالق . محذوفة الرقاب مقضوفة الأصلاب . مقطعة الهام موزعة الأقدام . مجدوعة الآناف منزوعة الأطراف . معضاة الأعضاء مجزأة الأجزاء . مفقوءة العيون مبعوجة البطون . مخضوبة الضفائر معضوبة المرائر . مبرية البنان مفرية اللبان . مقصومة الأضالع

---

(١) الغنم الصغير .

مفصومة الأشاجع . مرضوضةالصدور مفضوضة النحور . منصفةالأجساد مقصفة الأعضاد . مقلصة الشفاه مخلصة الجباه . قانية الذوائب دامية الترائب . مشكوكة الأضلع مفكوكة الأذرع . مكسورة العظـــام محسورة اللثام . بائدة الوجوه بادية المكروه . مبشورة الأبشار معشورة الأعشار . منشورة الشعور مقشورة الظهور . مهدومة البنيان مهتومةالأسنان. مهرقة الدّماء مرهقة الدّماء. هاوية الذرا واهية العرا . سائلة الأحداق مائلة الأعناق . مفتوتة الأفلاذ مبتوتة الأفخاذ . مشروخة الهامات مسلوخة اللبات. عديمة الأرواح هشيمة الأشباح . كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولى الأبصار .

وصارت تلك المعركة بالدماء دأماء ،وعادت الغبراء حمراء . وجرت أنهار الدم المنهمر ، وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر . فـــما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث ، وما ألهب عذبات العذاب فى تلك الجثث . وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث . وما أجز أصلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث . هذا حساب من قتل : فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده .وأما من أسر : فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده. ولقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفى بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حارس . وهنالك العتاة عناه والعداة عراه ، وذوو الأسرة أسرى ، وأولو الأثرة عثرى . والقوامص قنائص ،، والفـــوارس فرائس ، وغوالى الأرواح رخائص ،ووجوه الداوية عوابس،والرءوس تحت الأخامص ، ومطالع الأجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم أصيد صيد ، وقائد قيّد وقيد . ومشرك مكشر ، وكافر مفكر ،ومثلث منصف ، ومكيف مكتف ، وجارح مجروح ، وقارح مقروح ، وملك مملوك ، وهاتك مهتوك ، ومتبر مبتورا ، ومحسر محسور ، وكابل فى الكبول ، ومغتال فى الغلول ، وحر فى الرق ، ومبطل فى يد المحق .

ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت . وهو الذى إذا نصب وأقيم ورفع ، سجدله كل نصرانى وركع. وهم يزعمون أنه من الخشبة التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، فهو معبودهم ومسجودهم . وقدغلفوه بالذهب الأحمر ،وكللوه بالدر والجوهر . وأعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود . فإذا أخرجته القسوس ،وحملته الرءوس، تبادروا إليه ،وانثالوا عليه. ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن أتباعه فى نفسه التصرف . وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم فى ذلك المعترك . فإن الصليب السليب ما له عوض ، ولا لهم فى سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض . فهو إلههم وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم . يتغاشون عند إحضاره ، ويتعاشون لإبصاره ، ويتلاشون لإظهاره . ويتغاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج . بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ، ويخشعون لها فى بيوتهم ويشهدونها . فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم، ووهت أصلابهم. وكان الجمع المكسور عظيما ، والموقف المنصور كريما . فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب ، لم يتخلف أحد من يومهم العصبب . فهلكوا قتلا وأسرا ، وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر ، والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

وندب إلى حصنها من تسلمه أمانا ، وأسكنه بعد الكفر إيمانا . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته ، ونقلت إليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على أصحابها وأموالها ، وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت

إلى طرابلس بلد زوجها القمص ، بمالها وحالها . وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان ، وعز لولايتها صارم الدين قايماز النجمي وهو من الأكابر الأعيان . هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وبعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الأسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم وإعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الأثنين سابع عشرى شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والاسبتارية وقال ، « أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين » . وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين [دينارا] ، فأحضر العسكر في الحال مئين . وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف، وعدة من ذوى التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد ، وسل سيفه وحسر عن ساعده . والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف ، والأمراء في السماطين وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر ، ومنهم من أبى ونبا وعـذر . ومنهم من يضحك منـه ، وينوب سواه عنه .

وشاهدت هناك الضحوك القتال ، ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد أنجزه ، وحمد أحرزه ، وأجر استدامه بدم أجراه ، وبر أعنق إليه بعنق براه . ونصل خضبه لنصر خطبه . وأسل اعتقله لأسر عقله . وداء داواه لداوى أدواه . وقوة أهداها لهداة قواها . ولواء نشره للأواء طواها . وكفر أماته لإسلام أحياه ، وشرك هدمه لتوحيد بناه . وعزمة أمضاها لأمة أرضاها . وعدو قصمه لولىّ عصمه .

وسيرّ ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجون ،وتستبدل بحركاتهم السكون . وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبى أيدى سبا ، وخمد جمر جمع الكفر وخبا .

(١٠)

ذكر فتح البيت المقدس

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، صفحة ٥٤٦ — ٥٥٣]

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد ، على ما تقدّم ، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ، ومقدّمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وهو معروف بالشجاعة والشهامة و يُمن النقيبة ، فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج ، كلما رأوالهم مركبا غنموه ، وشانيا أخذوه .فحين وصل الأسطول وخلا سرّه من تلك الناحية ، سار عن عسقلان إلى البيت المقدس ، وكان به البطرك(١) المعظم عندهم ، وهو أعظم شأنا من ملكهم ، وبه أيضا باليان بن بيرزان ، صاحب الرملة ، وكانت مرتبة عندهم تقارب مرتبة الملك . وبه أيضا مَن خلص من فرسانهم من حطين ، وقد جمعوا وحشدوا . واجتمع أهل تلك النواحى ،عسقلان وغيرها ، فاجتمع به كثير من الخلق ، كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ، ويرى أن يبذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وحصّنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلا ، وصعدوا

---

(١) هرقليوس .]]

على سوره بجدّهم وحديدهم ، مجمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم ، مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم . ونصبوا المجانيق على أسواره ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه .

ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة من أصحابه ، غير محتاط ولا حذر . فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا . فقاتلوه وقاتلهم ، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فأهمّ المسلمين قتله ، وفجعوا بفقده ، وساروا حتّى نزلوا على القدس منتصف رجب [سبتمبر ١١٨٧ م] . فلما نزلوا عليه ، رأى المسلمون على سوره من الرجال ماهالهم ، وسمعوا لأهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله ، لأنه فى غاية الحصانة والامتناع . فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال ، نحو باب عمودا وكنيسة صهيون . فانتقل إلى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونزلها ، ونصب تلك الليلة المجانيق ، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها .

ونصب الفرنج على سور البلد مجانيق ورموا بها . وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا ، وحتما واجبا ، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى ، بل كانوا يُمنعون ولا يمتنعون ، ويُزجرون ولا ينزجرون . وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيُقتل من الفريقين . وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك ، وهو من أكابر الأمراء ، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم ، فقتل إلى رحمة الله تعالى ، وكان محبوبا إلى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك ، وأخذ من قلوبهم ، فحملوا حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم

فأدخلوهم بلدهم . ووصل المسلمون إلى الخندق فجازوه والتصقوا إلى السور فنقبوه . وزحف الرماة يحمونهم ، والمجانيق توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة(١) .

فلما رأى الفرنج شده قتال المسلمين ، وتحكم المجانيق بالرمى المتدارك ، وتمكن النقابين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون . فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين . فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان . فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع عن إجابتهم ، وقال : « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ماكتموه سنة ٤٩١ [١٠٩٩] من القتل والسبي ، وجزاء السيئة بمثلها » . فلمارجع الرسل خائبين محرومين ، أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره . فأجيب إلى ذلك ، وحضر عنده ، ورغب فى الأمان وسأل فيه : فلم يجبه إلى ذلك ، واستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحمه فلم يرحمه . فلما أيس من ذلك قال له : أيها السلطان أعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى . وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، ظنا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم . وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة . فإذا رأينا أن الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة . وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى

---

(١) كانوا يضعون مواد قابلة للحرق فى مواضع النقب ثم يشعلونها فينهار السور فوقها .

وغيرهما من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين ، وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه . ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه . وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت أعزاء أو نظفر كراما » .

فاستشار صلاح الدين أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شيء تنجلى ، « ونحسب أنهم أسارى بأيدينا ، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم » . فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج . فاستقر أن يزن الرجل عشرة دنانير ، يستوى فيه الغنى والفقير ، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين ، وتزن المرأة خمسة دنانير . فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوما فقد نجا ، ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا . فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك .

وسُلّمت المدينة يوم الجمعة ٢٧ من رجب [٢ أكتوبر ١١٨٧] . وكان يوما مشهودا . ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها . ورتب صلاح الدين على أبواب البلد ، فى كل باب ، أمينا من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا فيه أمانة . واقتسم الأمناء الأموال ، وتفرّقت أيدى سبا . ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعم الناس . فإنه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل ، سوى من يتبعهم من النساء والولدان . ولا يعجب السامع من ذلك ، فإن البلد كبير ، واجتمع إليه من تلك النواحى من عسقلان وغيرها ، والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى ، بحيث امتلأت الطرق والكنائس وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى . ومن الدليل على كثرة

الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة ، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار ، وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى ، وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبى . هذا بالضبط واليقين .

ثم إن جماعة من الأمراء ادّعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس ، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم . وكان جماعة من الأمراء يُلبسون الفرنج زىّ الجند المسلمين ويخرجونهم ، ويأخذون منهم قطيعة قرروها . واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم . وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل .

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم قد ترهّبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم . فطلبت الأمان لنفسها ومن معها ، فأمّنها وسيّرها . وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس(١) التى كان زوجها الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ، ونيابة عنها كان يقوم بالمُلك . وأطلق مالها وحشمها ، واستأذنته فى المسير إلى زوجها ، وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس ، فأذن لها ، فأتته وأقامت عنده . وأتته أيضا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك ، وهو الذى قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين : فشفعت فى ولد لها مأسور(٢) . فقال لها الدين صلاح الدين : « إن سلّمت الكرك أطلقته » . فسارت إلى الكرك ، فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه ، ولم يسلموه ، فلم يطلق ولدها ، ولكنه أطلق مالها ومن تبعها .

(١) سيبيلا زوجه جى دو لوسينيان .

(٢) هى ستيفانى والدة همفرى دو تورون .

وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ، ومعه من أموال البيَع منها : الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها ، مالايعلمه إلا الله تعالى ؛ وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له صلاح الدين . فقيل له ليأخذ مامعه يقوّى به المسلمين ، فقال : « لا أغدر به » . ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير . وسيّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهّب . فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلّق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب . فلما فعلوا وسقط ، صاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والفرنج : أما المسلون فكبّروا فرحا ، وأما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجّعا . فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدّتها .

فلما ملك البلد وفارقه الكفار ، أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم ، فإن الداوية بنوا غربىّ الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هُرْى(١) ومستراح(٢) وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم . فأعيد إلى الأوّل . وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ، ففُعل ذلك أجمع . ولما كان الجمعة الأخرى ، رابع شعبان [٩ أكتوبر] ، صلى المسلمون فيه الجمعة ، ومعهم صلاح الدين ، وصلّى فى قبة الصخرة . وكان الخطيب والإمام محيي الدين ابن الزكي ، قاضى دمشق . ثم رتّب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس ، وأمر أن يُعمل له منبر ، فقيل له : « إن نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا قد عملناه ليُنصب بالبيت المقدس ، فعمله النجّارون فى عدة سنين ، لم يُعمل فى الإسلام مثله . » فأمر بإحضاره ، فحُمل من حلب

---

(١) الهرى : المخازن .

(٢) المستراح : موضع قضاء الحاجة .

ونصب بالقدس . وكان بين عمل المنبر وحمله مايزيد على عشرين سنة . وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده ، رحمه الله .

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة ، تقدّم بعمارة المسجد الأقصى ، واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه ، وتدقيق نقوشه . فأحضروا من الرخام الذى لا يوجد مثله ، ومن الفصّ المذهّب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، قد ادّخر على طول السنين . فشرعوا فى عمارته ، ومحوا ما كان فى تلك الأبنية من الصور ، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيّروها ، فأمر بكشفها . وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة ، فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها . وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ، ويُجعل فى مذبحها . فخاف بعض ملوكهم أن تفنى ، فأمر بها ففرش فوقها حفظا لها . فلما كُشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة ، والربعات الجيدة ، ورتّب القراء ، وأدرّ عليهم الوظائف الكثيرة . فعاد الإسلام هناك غضّا طريا ، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب ؛ رضى الله عنه ، غير صلاح الدين ، رحمه الله . وكفاه ذلك فخرا وشرفا .

وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا ، وشرعوا فى بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله ، وباعوا ذلك بأرخص الثمن ، فاشتراه التجار من أهل العسكر ، واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية . فأجابهم إلى ذلك . فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج . وترك الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرّة والصناديق والبتّيّات(١) ، وغير ذلك ، وتركوا أيضا من الرخام الذى لايوجد مثله ، من الأساطين والألواح والفصّ وغيره ، شيئا كثيرا . ثم ساروا .

---

(١) البتيات : الأوانى .

(١١)

فتح بيت الله المقدّس

[من كتاب « الفتح القدسي » للعماد الكاتب الأصفهانى
من صفحة ١١٦ — ١٣١]

ثم رحل عن عسقلان للقدس طالباً ، وبالعزم غالباً ، وللنصر مصاحباً ولذيل العز ساحباً . قد أصحب ريّض مناه ، وأخصب روض غناه . وأصبح رائج الرجاء ، أرج الأرجاء . صيب(١) العرف ، طيب العرف . ظاهر اليد ، قاهر الأيْد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء ، وملأ الملأ فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، وكأنما أعاد العجاج رأد(٢) الضحى جنح الغسق. فالأرض شاكية من أجحاف الجحافل ، والسماء حاظية بأقساط القساطل . وسار ساراً بالأحوال الحوالى ، مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى(٣) ، مطوية مدارك مناجحه على تنشر الآمال من الأمالى(٤) . وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه ، المجانى(٥) والمجالى(٦) . والإسلام يخطب من القدس عروساً ، ويبذل لها فى المهر نفوساً ، ويحمل إليها نُعمى ليحمل عنها بوسى ، ويهدى بشرا ليذهب عبوساً . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها ، وإجابة دعائها وتلبية ندائها ، وإطلاع زهر المصابيح فى سمائها ، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه ، ورده إلى سكونه وسكنه ، وإقصاء الذين

---

(١) الصيب : السحاب والمطر ، وصيب العرف : كثير الجود .
(٢) رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس .
(٣) العوالى : الرماح .
(٤) واحدها إملاء وهى ما يملى من الأقوال .
(٥) جمع مجنى : وهو الموضع الذى يجنى منه الشيء كالثمر مثلا .
(٦) جمع مجلى : وهو مقدم الرأس . أ .

أقصاهم الله بلعنته من الأقصى ، وجذب قياد فتحه الذى استعصى ، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الآذان،وكف كف الكفر عنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس ، وأدناس أدنى الناس ، وإفحام الإفهام بإخراس الأجراس .

وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعباً وطاشت ، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت . وكان به من مقدمى الأفرنج (باليان بن بارزان) و (البطرك الأعظم) ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران ، وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير فى مقام الإدبار ، وتقسمت أفكار الكفار . وأيس الفرنج من الفرج ، وأجمعوا على بذل المُهَج .

ذكر كنيسة قُمامة(١)

وقالوا هنا نطرح الرؤوس ، ونسبك النفوس ، ونسفك الدماء ، ونهلك الدهماء ، ونصبر على اقتراح القروح ، واجتراح الجروح ، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا ، فيها مقامتنا ، ومنها تقوم قيامتنا ، وتصيح هامتنا ، وتصح ندامتنا ، وتسيح علامتنا ، وتسح غمامتنا . وبها غرامنا وعليها غرامتنا ، وبإكرامها كرامتنا ، وبسلامتها سلامتنا ، وباستقامتها استقامتنا ، وفى استدامتها استدامتنا . وإن تخلينا عنها لزمت لآمتنا ، ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب ، والمذبح والمقرب والمجمع والمعبد ، والمهبط والمصعد ؛ والمرقى والمرقب ، والمشرب والملعب ، والمموه والمذهب ، والمطلع والمقطع ، والمربى والمربـــع .

---

(١) هى كنيسة القيامة بالقدس .

والمرخّم والمخزم ، والمحال والمحرم ، والصور و الأشكال ، والأنظـار والأمثال ، والآساد والأشبالّ ، والأشباه والأشباح والأعمدة والألواح والأجسام والأرواح . وفيها صور الحواريين فى حوارهم ، والأخبار فى أخبارهم ، والرهابين فى صوامعهم ، والأقسّاء فى مجامعهم والسحرة وحبالها ، والكهنة وخيالها ومثال السيدة والسيد ، والهيكل والمولد ، والمائدة والحوت ، والمنعوت والمنحوت ، والتلميذ والمعلم ، والمهد والصبي المتكلم ، وصورة الكبش والحمار ، والجنة والنار ، والنواقيس والنواميس .

قالوا : « وفيها صلب المسيح ، وقرب الذبيح ، وتجسّد اللاهوت وتأله الناسوت . واستقام التركيب ، وقام الصليب ، ونزل النور ، وزل الديجور . وازدوجت الطبيعة بالأقنوم ، وامتزج الموجود بالمعدوم ، وعمدت معمودية المعبود ، ومخضت البتول بالمولود » . وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ، ما ضلّوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا : « دون مقبرة ربنا نموت ، وعلى خوف فوتها منا نفوت ، وعنها ندافع ، وعليها نقارع . وما لنا لا نقاتل ! وكيف لا ننازع ولا ننازل ! ولأى معنى نتركهم حتى يأخذوا ! وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا ! »

وتأهبوا وتباهوا ، وما انتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق أمّات الأسواء على الأسوار ، وستّروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار . واستشاطت شياطينهم ، وسرحت سراحينهم ، وطغت طـواغيتهم ، وأصلتت مصاليتهم ، ونشرت طوامبرهم ، وتسعرت مساعيرهم ، وهاج هائجهم وماج ، مائجهم ، ودعت دواعيهم ، وعدت عواديهم ، وسعت أفاعيهم . وحضتهم قسوسهم ، وحرضتهم رعوسهم ، وحركتهم نفوسهم ، وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم وأخبرتهم بإقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود منشورة البنود ، موصونة القواطع بالأشاجع مهجورة الغمود . مشهورة

القواضب ، مشهودة الكتائب . مقودة الضوامر إلى ثار العدا ، موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة العزائم ، مجنوبة الصلادم . مسلولة الظبا ، مطاولة الربا . مجنونة أجنة أغمادها ، مسنونة أسنة صعادها ، مطلقة جيادها محققة مظنة طرادها . قد سالت الوهاد بآكامها . وجالت الأعلام فى أعلامها . وسدت الفجاج أفواجها ، ومدت العجاج أمواجها ، وحجبت الغزالة عقبانها ، وألهبت الذُّبالة خرصانها ، وجرت بالجبال رياحها ، وجُرّت كالحبال رماحها ، واشتمل على الضراغم غيابها ، وأقبل بالعظائم قبيلها .

ووافى كل واف بعهد ربه ، كاف لكف خطبه ، شاف لهمّ قلبه ، ضاف يفيض شربه ، خاف فى لبوسه ، ذاف لبوسه ، باسل بباسه ، عاسل بأمراسه ، ناسل بنت الغمد من جفنه ، غاسل بنت الحد بدم قرنه ، واصل بيض الهند بسواعده ، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده ، حادبجده جادبحدّه . وكل شاب بنار الحرب شاب ، ورب دين للدين الرب راب ، وكل جيش كالبحر عباب ، وكل سال ذى ذباب عن الهدى ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال ، سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال ؛ مائل فى سبيل الله إلى انفاق مال .

وأقبل السلطان بإقبال سلطانه ، وأبطال شجعان ، وأقيال أولاده وإخوانه وأشبال مماليكه وغلمانه ؛ وكرام أمرائه وعظماء أوليائه . فى مقانب بالمناقب مقنبة ، وكتائب بالمواكب مكتتبة ، وذوابل بالكواكب منصتّة ، وجحافل بعضاء المضارب محفلة . وألوية صفر للأواء بنى الأصفر ، بيض وسمر تزرق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل ، وقنا وقنابل ، وصوافن وصواهل ، وعوامل وعواسل ، وفوارس فوارس ، وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى وفريقه الأسنى ، ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى .

وصف البيت المقـــدس

وقال : « إن أُسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا ، وأى يد له عندنا إذا أيدنا . فإنه مكث فى يد الكفر إحدى وتسعين سنة(١) ، لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة ، ودامت هِمم الملوك دونه متوسنة ، وخلت القرون بمنه متخلية ، وحلت الفرنج به متولية . فما أدخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ، ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار ، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار . وكيف لا يُهتم بافتتـــاح البيت المقدس الأقوى ، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى ، وهو مقام الأنبياء ، وموقف الأولياء ومعبد الأتقياء ، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر ؛ ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر . وفيه الصخرة التى صينت جدة أبهاجها من الإنهاج ، ومنها منهاج المعراج ؛ ولها القبة الشماء التى على رأسها كالتاج ، وفيه ومض البارق ومضى البُراق ، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن أبوابه (باب الرحمة) الذى يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول إلى الخلود ، وفيه (كرسى سليمان) و (محراب داود) ؛ وله (عين سُلوان) التى تمثل لوار دها من الكوثر الحوض المورود . وهو أول القبلتين(٢) . وثانى البيتين(٣) وثالث الحرمين(٤) ، وهو أحد المساجد الثلاثة (٥) التى جاء فى الخبر النبوى أنها تشد إليها الرحال ؛ ويعقد الرجاء بها الرجال .

---

(١) إحدى وتسعين سنة هجرية ، ثمان وثمانين سنة ميلادية (من ٤٩٢ — ٥٨٣ هـ = ١٠٩٩ — ١١٧٨ م) .

(٢) القبلة الأولى هى البيت المقدس والثانية الكعبة بمكة .

(٣) البيت المقدس والبيت الحرام بمكة .

(٤) الحرم المكى والحرم المدنى والمسجد الأقصى بالقدس .

(٥) المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة والمسجد الأقصى .

ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صورة ، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة ؛ وقال عز من قائل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ؛ وله فضائل و مناقب لا تحصى. وإليه ومنه كان الإسراء ، ولأرضه فتحت السماء ، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء ؛ وآلاء الأولياء ، ومشاهد الشهداء ؛ وكرامات الكرماء ، وعلامات العلماء. وفيه مبارك المبار ، ومسارح المسار . وصخرته الطولى ، القبلة الأولى . ومنها تعالت القدم النبوية ، وتوالت البركة العلوية . وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين ، وصحب الروح الأمين ، وصعد منها إلى أعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه (كلما دخل عليها زكريا) ، ولنهاره التعبد ولليله الحيا . وهو الذى أسسه داود ووصى ببنائه سليمان ، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحان ، وهو الذى افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة الفرقان . فما أجله وأعظمه ، وأشرفه وأفخمه ، وأعلاه وأجلاه ، وأسماه وأسناه . وأيمن بركاته وأبرك ميامنه ، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه ، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه. وقد أظهر الله طُوله وطَوله. بقوله (الذى باركْنا حوْله) . وكم من الآيات التى أراها الله نبيه ، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ، ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وآلاياه . وأقسم لا يبرح حتى يبر بقسمه ، ويرفع بأعلاه علمه ، وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه ، ويصغى إلى صرخة الصخرة ، ويبغى بالبشرى بشر آسرة الأُسرة .

وسار واثقا بكمال النصرة ، وزوال العسرة ، وحسر الفرنج قناع الحسرة . ونزل على غربى القدس يوم الأحد خامس عشر رجب (١) وقلب الكفر قد وجب ، وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب. والقدر قد أظهر العجب . وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل ، من

---

(١) ٢٠ سبتمبر .

سائف ونابل ، وبطل للباطل ، وعاس عاسل بالعاسل ، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون ، ويرمون ويدمون، ويُحْمَوْن ويحِمُون ، ويحتدون ويحتدمون ،ويضطربون ويضطرمون ، ويذءدون ويذوبون ،ويشبون ويسبون ،ويصرخون ويحرضون ويلهثون ويتغوثون ، ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون ، ويقدمون ويحجمون ، ويتململون ويتألمون ويتعاوَوْن ويتضارعون ،ويحترقون للبلايا ،ويقترحون المنايا . وقاتلوا أشدقتال، وناضلوا أحدنضال، ونازلوا أجد نزال. وطافوا بصحاف الصفاح لإرواءالظبا الظماء من ماء الأرواح .وجالوا بالأوجال ،وأجالوا اقداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال ، والتهموا والهتبوا ، وتأشّبوا ونشبوا، واستهدفوا للسهام ، واستوقفوا للحمام . وقالوا : « كل واحدمنا بعشرين ، وكل عشرة بمئتين ،ودون القمامة نقوم القيامة ، ولحب سلامتها تقلى السلامة » : ودامت الحرب ، واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين عن رجب (١) إلى الجانب الشمالي وخيم هنالك ، وضيق على الفرنج المسالك ، ووسع عليهم المهالك . ونصب المجانيق ، ومرى من آفاتها الأفاويق ، وأصرخ الصخرة بالصخور ، وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يُخرجون من السور الرعوس ، إلا ويأقون البوس ، واليوم العبوس ، ويلقون على الردى النفوس .

فللداوية دوى ، وللبارونية من البوار فى الهادية هوى ، وللاسبتار تبار ، وما للفريرية من الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى إليهم حجاب ، وفى كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . إذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة ، والتلاوب للوجد بالقتال ملهوفة . والأيدى على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة ، والنفوس لاستبطاء الهمم فى الاهتمام مهمومة ، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكأن المجانيق مجانين يرامون ، ومناجيد لا يرامون :

(١) ٢٥ سبتمبر .

وجبال تجلذبها حبال ، ورجال تنجدها رجال . وأمّات الدواهى والمنايا ، وحوامل تلك البلايا . لا حجْر عليها فى حجَر ، ولا أمْن عندها من حذر . ولاتخطر سهامها إلا بالخطر . ولايفطر مرورها إلا مرارات ذوى الفطر . فكم نجم من سمائها ينقض ، وصخر من أرضها يرفض ! وجمر من شرارها ينقض ! وما شىء كآفات كفاتّها ، وآيات نكاياتها ، ودركات إدراكاتّها ، ولفتات فلتاتّها ، وجذبات عذباتّها .

فما زالت تقلع بمقالعها ، وتقرع بمقارعها ، وتمتح بأشطانها ،وتمرح فى أرسانها ، وتصدم وتهدم ، وتصرع وتصدع ، وتهز بدلائها وتجهز ببلائها ، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها ، وتفلّ شمل المبـانى بتفريقها وتبديدها ، وتقوض القواعد بضربها من أساسها ، وتنقض المعاقد بجذبها فى أمراسها ، وتشفه الموارد بشربها من كأسها ، حتى تركت السور سوارا ، وجعلت الذاب عنه محسورا ، وعاد العدو من نظمه المبتور مبتوراً . وخرق الخندق وحفز الزحف ، وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف ، وأخذالنقب وسهل الصعب.وبذل المجهود وحصل المقصود وكمل المراد وكَايِمَ المَراد . وثغر الثغر وأمر الأمـر . وأربى الأرب واستتب السبب . وخاف القوم الوقْم ، واستعاضوا من الصحة السقم . وأسلم البلد وقطع زنار خندقه ، وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الأمان لقومه ، وتمنع السلطان وتسامى فى سومه . وقال : «لاأمن لكم ولا أمان ، وما هوانا إلا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا ، ونوسعكم قتلا وأسرا . ونسفك من الرجال الدماء ، ونسلط على الذرية والنساء السباء » . وأبى فى تأمينهم إلا الإباء . فتعرضوا للتضرع وتخوفوا وخوّفوا عاقبة التسرع . وقالوا : « إذا أيسنا من أمانكم ، وخفنا من سلطانكم ، وخبنا من إحسانكم ، وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح ولا صلح ولا صلاح ، ولا سلم ولاسلامة ، ولا نعمة ولا كرامة ، فإنا نستقتل فنقاتل قتال الدم ، ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم إقدام

المستشرى بالشر ، ونقتحم اقتحام المستضرى من الضر ، ونلقى أنفسنا على النار ، ولا نلقى بأيدينا إلى التهلكة والعار . ولا يُجرح واحد منا حتى يجرح عشرة ، ولا تضمنا يد الفتك حتى تُرى أيدينا بالفتك منتشرة . وإنا نحرق الدور ونخرب القبة ، ونترك عليكم فى سبينا السبة . ونقلع الصخرة ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف ، وقد عرف أن كلا منا من الذل عزوف ، وللعز ألوف . وأما الأموال فإنا نعطيها ولا نعطيها ، وأما الذرارى فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها . فأية فائدة لكم فى هذا الشح ، وكل خسر لكم فى هذا الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح ، ولا يصلح السوء سوى الصلح ، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل إسفار الصبح » .

فعقد السلطان محضراً للمشورة ، وأحضر كبار عساكره المنصورة . وشاورهم فى الأمر ، وحاورهم فى السر والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم ، واستكشف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم ، واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصالحة المترجحة ، وفاوضهم فى المصالحة المربحة . وقال : « إن الفرصة قد أمكنت فنحرص فى انتهازها ، وإن الحصة نمد حصات وتستخير الله فى إحرازها . وإن فاتت لا تستدرك ، وإن أفلتت لا تملك » . فقالوا « قد خصك الله بالسعادة ، وأخاصك لهذه العبادة . ورأيك راشد وعزمك لضالة النصر ناشد . وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد ، وكانا لك فى اغتنام فتح هــذا الموضع الشريف مناشد » . واستقر بعد مراودات ومعاودات ، ومفاوضات وتفويضات ، وضراعات من القوم وشفاعات ، على قطيعة تكمل بها الغبطة ، وتحصل منها الحوطة . واشتروا بها أنفسهم وأموالهم ، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه ، أو امتنع منه وما سلمه ، ضرب عليه الرق ، وثبت فى تملكه

لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صغير أو صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدم الداوية والاسبتار فى الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالأداء، ولم ينكل عن الوفاء . فمن سلّم خرج من بيته آمناً ، ولم يعد إليه ساكناً .

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب(١) على هذه القطيعة ، وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان ، من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب ، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب . ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير ، يحصر الخارجين ويحصى الواجبين . فمن استخرج منه خرج ، ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه ، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنما تم التفريط ، وعم التخليط . فكل من رشا مشى ، وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرّشا . فمنهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من حمل مخفياً فى الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزى الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد .

وكانت فى القدس ملكة رومية مترهبة ، فى عبادة الصليب متصابة وعلى مصابها به ملتهبة ، وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبة ، أنفاسها متصاعدة للحزن ، وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن . ولها حال ومال وأشياء وأشياع ، ومتاع وأتباع . فمنّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج ، وأذن فى إخراج كل مالها فى الأكياس والأخراج . فراحت فرحَى ، وإن كانت من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور — إبنة الملك أمارى — مقيمة فى جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجوارى .

---

(١) ٢ أكتوبر .

فخلصت هى بمن معها ومن تبعها ، ومن ادعى أنه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة إبنة فيابيب ، أم هنفرى أعفيت من الوزن ، وتوفر مالُها عليها فى الحزن . واستطلق صاحب ألبيرة زهاء خسمائة أرمنى ، ذكر أنهم من بلده ، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن على كوجك زهاء ألف أرمنى ، ادعى أنهم من الرها ، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى .

وكان السلطان قد رتّب عدة دواوين ، فى كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن أخذ من أحد الدواوين خطًّا بالأداء انطلق مع الطلقاء ، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء . فذكر لى من لا أشك فى مقاله أنه كان يحضر فى الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا خطا لمن نقده فى كيسهم ، ويلبس أمر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه ، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه . ومع ذلك حصل لبيت المـال ما يقارب مائة ألف دينار ، وبقى من بقى تحت رق وإسار ، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة ، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

... ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى رجب

واتفق فتح البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منه المعراج ، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج ، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمراء ، والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار . ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجح وافر ظافر . وبابه مفتوح ، ورفده ممنوح ، وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع ، ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبّل . ومحياه يلوح

ورياه يفوح . ومحبته تروق ، ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض أمواه السخاء وفض أفواه العطاء ، ظاهرها قبلة القبل ، وباطنها كعبة الأمل .

قد حلت له حالة الظفر ، وكأن دَسْته بهالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون ، والشعراء وقوف ينشدون ويَنْشُدون . والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع ، والكاتب ينشي ويوشي ويوشع ، والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع .

فماشبهت قلمي إلا بشائر أرْى البشائر ، ولا وجهت كلمي إلا لطائف وحي اللطائف . وما أرسلت يراعي إلا ليراعي الرسائل ، ويوشع الفضائل ، ويشيع الفواضل ، ويشبع القول ، ويسبغ الطول ، ويطول بالحجة وإن كان في طوله قصر ، ويصول باللهجة وإن كان في حجمه حصر . ويسمن الملك به وهو نحيف ، ويثقل الجيش به وهو خفيف ، ويبدي بياض الغرة من سواد الدهمة ، ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة ، ويجري بالآجال والأرزاق ، والمنع والإطلاق ، والخلاف والوفاق ، والارقاق والإعتاق ، والعدة والإنجاز ، والجدة والإعواز ، والفتق والرتق ، والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش ، ويرفع العروش ، ويوحش المستأنس ، ويؤنس المستوحش ، وبه ينعش العاثر ، ويعثّر المنتعش ، ويجري بالإعداء على الأعداء ، وبالإيلاء للأولياء . فبشرت بأقلامي أقاليم البَشَر ، وعبرت بأعاجيبي عن عجائب العبر ، وملأت البروج بالسراري والدروج بالدرر ، ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريا (الري) وسمر (سمر قند) ، وأطربت وحلبت حتى (فاقت القنديد والقُنْد) . وعلقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت ، وشرحت فضيلتها وبينت ، وأديت فريضة زيارتها وتعينت .

(١٢)

ذكر ما جرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس

[من كتاب « الفتح القدسى » للعماد الكاتب الأصفهانى ،
من الصفحة ١٣٥ — ١٤٦]

وشرع الإفرنج فى بيع الأمتعة ، واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوها بالمجان فى سوق الهوان ، وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى أكثر من عشرة ، ووجدوا فى ضم ما وجدوا من أمور لهم منتشرة . وكنسوا كنائسهم ، وأخذوا منها نفائسهم . ونقلوا منها المذهبيات والفضيات من الأوانى والقناديل ، والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن ، واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين ، وجمع ما كان فى قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للسلطان : « هذه أموال وافرة ، وأحوال ظاهرة ، تبلغ مائتى ألف دينار ، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار . فلا تتركها فى أيدى هؤلاء الفجار » . فقال : « إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر ، وهم جاهلون بسر هذا الأمر . ونحن نجريهم على ظاهر الأمـــان ، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان » .

فتركوا ما ثقل وحملوا ماعز وخف ، ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف . وانتقل معظمهم إلى صور ، وكتفوا بالديجور الديجور . وبقى منهم زهاء خمسة عشر ألفا امتنعوا من مشروع الحق ، فاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال ، وكانوا فى تقدير سبعة آلاف ، فإنهم ألفوا ذلا لم يكونوا له بألاف . فاقتسمتهم أيدى السبى أيدى سبا ، وتفرق الغانمون بجمعهم فى الوهاد والربا . وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف

نسمة ، عادت بيننا مقتسمة ، وأصبحت بيكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت ، ومالكة ملكت ، وعزباء نكحت ، وعزيزة منحت ، ومخيلة تسمحت ، وحيية توقحت ، ومجدة مزحت ،ومصونة ابتذلت ، وفارغة شغلت ، وعقيلة امتهنت ، وجميلة امتحنت ، وعذراء افترعت، وشماء فرعت،ولمياء رشفت ، وظمياءفرشت،وريضة أصحبت ورضية أصخبت . فكم تسرّى منهن سرىّ، وتجرأ عليهن جرىّ،وقضى وطره عزب ونفى نهمه سغب ، وفثأ سورته شغب . وكم غانية استخلصت وغالية استرخصت ، ووالية اعتزلت ، وعالية استنزلت ، ووحشية صيدت ، وعرشية قيدت .

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز ، وخلع لباس الذل ولبس خلع العز ، أبى النصارى بعد أداء القطيعة أن يخرجوا ، وتضرعوا فى أن يسكنوا ولا يزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذول ، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول . وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وشحت أفواهم بماشجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا فى الذمة وخرجوا إلى العصمة ، وشغلوا بالخدمة ، واستعملوا فى المهنة ، وعدوا المحنة فى تلك المحنة .

ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب ، وحتم به أمر الإيجاب . وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جداراً وتركوه للغلة هريا ، وقيل كانوا اتخذوه مستراحا ، عدواناً وبغياً . وكانوا قد بنوا من غربى القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة . فأوعز برفع ذلك الحجاب ، وكشف النقاب ، عن عروس المحراب ، وهدم ما قدامه من الأبنية ، وتنظيف ما حوله من الأفنية ، بحيث يجتمع الناس فى الجمعة ، فى العرصة المتسعة . ونصب المنبر

وأظهر المحراب المطهر . ونقض ما أحدثوه من السوارى ، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى . وعاقت القناديل ، وتُلي التنزيل ، وحق الحق وبطلت الأباطيل ، وتولى القرآن وعزل الإنجيل . وصُفّت السجادات ، وصفت العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأديمت الدعوات ، وتجلت البركات ، وانجلت الكربات ، وانجابت الغيابات ، وانتابت الهدايات ، وتليت الآيات ، وأعليت الرايات . ونطق الآذان وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبوس والبوس ، وطابت الأنفاس والنفوس . وأقبلت السعود ، وأدبرت النحوس . وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه ، وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء الأوراد ، واجتمع الزهاد والعباد ، والأبدال والأوتاد . وعُبد الواحد ووحد العابد ، وتوافد الراكع والساجد ، والخاشع والواجد والزاهى والزاهد ، والحاكم والشاهد ، والجاهد والمجاهد والقائم والقاعد ، والمتهجد الساهد ، والزائر والوافد .

وصدح المنبر وصدع المذكر . وانبعث المعشر . وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفاظ ، وأسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء . وتحدث الرواة وروى المحدثون ، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون ، وأخلص الداعون ودعا المخلصون ، وأخذ بالعزيمة المترخصون ، ولخص المفسرون وفسر الملخصون . وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء . وكثر المترشحون للخطابة ، المتوشحون بالإصابة ، المعروفون بالفصاحة ، الموصوفون بالحصافة . فما فيهم إلا من خطب الرتبة ، ورتب الخطبة ، وأنشأ معنى شائقاً ، ووشي لفظاً رائقاً ، وسوى كلاماً بالموضع لائقاً ، وروى مبتكراً من البلاغة فائقاً . وفيهم من عرض عليّ خطبه ، وطلب مني نصبته ، وتمنى أن ترجح فضيلته ، وتنجح وسيلته ، وتسبق منيته فيها أمنيته . كلهم طال إلى الالتهاء بها عنقه ، وسال من الالتهاب عليها عرقه . وما منهم إلا من تأهب وترقب ، ويتوسل ويتقرب ، وفيهم من يتعرض ويتضرع ،

ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه ، وضرب فى أخماسه أسداسه ، ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لا يعين ولا يبين ولا يخص ولا ينص . ومنهم من يقول : « ليتنى خطبت فى الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى . وإذا ظفرت بطالع سعدى ، فما أبالى بمن يخطب بعدى » .

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان ، أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان . وامتلأ الجامع ، واحتفلت المجامع ، وتوجست الأبصار والمسامع ، وفاضت لرقة القلوب المدامع ، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع ، وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور الشوائع ، وغصت بالسابقين إليها المواضع . وتوسعت العيون ، وتقسمت الظنون . وقال الناس : « هذا يوم كريم ، وفضل عميم ، وموسم عظيم. هذا يوم تجاب فيه الدعوات ، وتصب البركات ، وتسال العبرات ، وتقال العثرات ، ويتيقظ الغافلون ، ويتعظ العاملون . وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الإسلام وارتاش . وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة ، والعصبة الطاهرة ، والأمة الظاهرة . وما أكرم هذه النصرة الناصرية ، والأسرة الإمامية . والدعوة العباسية ، والمملكة الأيوبية ، والدولة الصلاحية . وهل فى بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعة ، التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة » ؟ .

وتكلموا فيمن يخطب ، ولمن يكون المنصب . وتفاوضوا فى التفويض وتحدثوا بالتصريح والتعريض ، والأعلام تعلى ، والمنبر يكسى ويجلى ، والأصوات ترتفع ، والجماعات تجتمع ، والأفواج تزدحم ، والأمواج تلتطم . وللعارفين من الضجيج ، ما فى عرفات للحجيج . حتى حان الزوال ، وزال الاعتدال . وخيِّل الداعى وأعجل الساعى . فنصب السلطان الخطيب بنصه ، وأبان عن اختياره بعد فحصه . وأوعز إلى

القاضي محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي (١) بأن يرقى ذلك المرقى ، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى . فأعرته من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة، حتى تكمل له شرف الإفاضة والإضافة. فرقي العود ، ولقي السعود . واهتزت أعطاف المنبر ، واعتزت أطراف المعشر . وخطب وأنصتوا ، ونطق وسكتوا . وأفصح وأعرب ، وأبدع وأغرب ، وأعجز وأعجب ، وأوجز وأسهب . ووعظ في خطبتيه ، وخطب بموعظتيه . وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه ، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه ، وتطهيره بعد تنجيسه ، وإخراس ناقوسه وإخراج قسيسه . ودعا للخليفة والسلطان ، وختم بقوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ، ونزل وصلى في المحراب ، وافتتح بسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك الأمة ، وتم نزول الرحمة ، وكمل وصول النعمة .

ولما قضيت الصلاة انتشر الناس ، واشتهر الإيناس ، وانعقد الإجماع واطرد القياس : وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ، ليفرعه كبير . فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا ، فذكّر من خاف ومن رجا ، ومن سعد ومن شقي ، ومن هلك ومن نجا ، وخوّف بالحجة ذوي الحجا ، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا . وأتى بكل عظة ، للراقدين موقظة ، وللظالمين محفظة ، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة . وضج المتباكون ، وعج المتشاكون . ورقت القلوب ، وخفت الكروب . وتصاعدت النعرات ، وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون وأناب المتحوبون ، وصاح التوابون ، وناح الأوابون . وجرت حالات جلت ، وحلوات حلت ، ودعوات علت ، وضراعات قبلت ، وفرص من الولاية الإلهية انتهزت ، وحصص من العناية الربانية أحرزت .

---

(١) قاضي قضاة دمشق ، توفي عام ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) عن ٤٨ سنة .

وصلى السلطان فى قبة الصخرة ، والصفوف على سعة الصحن بها متصلة ، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة ، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مقبلة ، والأيدى إلى الله مرفوعة ، والدعوات له مسموعة . ثم رتب فى المسجد الأقصى خطيباً استمرت خطبته ، واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحاً ، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمساً ولا مطمحاً . وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل ، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منصبة . وقالوا : « محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسبيح » . وكانت فيها صور الأنعام مثبتة فى الرخام . ورأيت فى تلك التصاوير أشباه الخنازير . والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستورة . وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة . فأمر السلطان بكشف نقابها ، ورفع حجابها ، وحسر لثامها ، وقشر رخامها ، وكسر رجامها ، ونقض بنائها ، وفض غطائها ، وإبرازها للزائرين ، وإظهارها للناظرين ، ونزع لبوسها ، وزفاف عروسها ، وإخراج درها من الصدف ، واطلاع بدرها من السدف ، وهدم سجنها ، وفك رهنها وإراءة حسنها ، وإضاءة يمنها ، وإبداء وجهها الصبيح ، وجلاء شرفها الصريح ، وردها إلى الحالة الحالية ، والقيمة الغالية ، والرتبة العالية . وهى التى حلّيها عطل ، وعُطْلها حلى ، وعريها كسوة ، وكسوتها عُرى . فعادت كما كانت فى الزمن القديم ، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم ، وسيم بهاء حسنها الوسيم . وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها ، قد أساء أهل الكفر فى نحتها . وظهرت الآن أحسن ظهور ؛ وسفرت أيمن سفور ، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور . وعملت عليها حظيرة من

شبابيك حديد ، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم فى مزيد .

ورتب السلطان فى قبة الصخرة إماماً من أحسن القراء تلاوة ، وأزينهم طلاوة، وأنداهم صوتاً ، وأسماهم فى الديانة صيتاً ؛ وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر ؛ وأطيبهم فى العرف والنشر . وأغناه وأقناه ، وأولاه لما ولاه . ووقف عليه داراً وأرضاً وبستاناً ، وأسدى إليه معروفاً داراً وإحساناً . وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات ، وربعات معظمات ؛ لا تزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعة ؛ وعلى أسرّتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة ، وللبيت المقدس عامة قَوَمَة لشمل مصالحها ضامة . فما ترتب إلا العارفون العاكفون ، القائمون بالعبادة الواقفون .

فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع ، وزهرت الشموع ، وبان الخشوع ، ودان الخضوع ، ودرت من المتقين الدموع ، واستعرت من العارفين الضلوع ! فهناك كل ولى يعبد ربه ويأمل بره ، وكل (أشعث أغبر لا يُوبه له لو أقسم على الله لأبرّه (١)) ، وهناك كل من يحيى الليل ويقومه ، ويسمو بالحق ويسومه . وهنـــاك كل من يختم القرآن ويرتله ، ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته بمعرفة الأسحار ، ومن آلفته لتهجده الأوراد والأذكار . وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوارها ، وتلحف الشمس أنوارها ، وتحمل القلوب إليها أسرارها ، وتضع الجناة عندها أوزارها ، وتستهدى صبيحة كل يوم أسفارها ، وما أظهر من تولى إطهارها ، وأظهر من باشر إظهارها .

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية ، ونقلوا منها إلى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا ، واتخذوا ذلك مكسباً .

---

(١) عن حديث نبوى ، وهو « رب أشعث أغبر لا يوبه له ، لو اقسم على الله لأبره » .

ولمّا ظهرت ظهرت مواضعها وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها ، فهى الآن مبرزة للعيون بحزها ، باقية على الأيام بعزها ، مصونة للإسلام فى خدرها وحرزها . وهــذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع فى العمران .

وأمر بترخيم محراب الأقصى ، وأن يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بنى أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة ، وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الألسنة . فما منهم إلا من أجمل وأحسن ، وفعل ما أمكن ، وجلا وبيّن ، وحلا وزين ، وأشفق وأنفق ، وأغنى وأقنى ، واعتنى وابتنى ، ووفى وأوفى ، وأصفى وأضفى . وأتى الملك العادل سيف الدين أبو بكر (١) بكل صنع بكر ، موجب لكل شكر ، وكل فعل جميل ، ورفد جزيل ومن جلى ومنح جليل ، ومكرمة حميدة ، ومحمدة كريمة ، وفضيلة بها ترجح ، ووسيلة بها تنجح . وأتى الملك المظفر تقى الدين عمر (٢) ، بكل ما عم به العرف وغمر . ونهى وأمر ، وبنى وعمر . ومن جملة أفعاله المشكورة ، ومكرماته المشهورة أنه حضر يومــاً فى قبة الصخرة ، مع جماعة من السراة والأسرة ، ومعــه من ماء الورد أحمال ، ولأجل الصدقة والرفد مال : فانتهز فرصة هــذه الفضيلة التى ابتكرها بالافتراص ، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت ، ثم أتبع الماء بماء الورد صبّاً حتى تعطرت . وكذلك طهر حيطانها ، وغسل جدرانها ، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت ، وتضوعت وتعرفت . ونغمت مناشق أهل الهدى ، وأرغمت آناف العدا . وما زال مع قومه فى تطهير البقعة المباركة طول يومه ، حتى تيقنت طهارتها ، وبينت عمارتها ، وراقت نضارتها ، ووقفت عليها الاستحسان نظارتها . ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق ، وافتخر بأن فاق الكرام بالإنفاق .

---

(١) العادل أبو بكر : شقيق صلاح الدين وسلطان مصر وسوريا حتى عام ١٢١٨ .
(٢) ابن أخى صلاح الدين ، وأمير حماة (١١٧٨ - ١١٩١) .

وجاء الملك الأفضل نور الدين علي (١) ، بكل نور جلي ، وكرم ملي وإحسان سني ، وإنعام هني ، وعرْف زكي ، وعرُف ذكي ، وعطاء مبتدع وسخاء مخترع ، وجود مبتكر ، ورفد معتبر . وأتى بكل ما خلّد الأثر الحسن ، وأنطق بحمده الألسن ، وبسط بها الصنيعة ، وفرش فيها البسط الرفيعة . وهدى وأهدى ، وأعاد بعد ما أبدى ، وأنار وأسدى ، وأفاض الندى ، وفض الجدا ، ونفض الأكياس ، حتى خلنا به الإنفاض والإفلاس . وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه ، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه ، مالم يشق أحد فيه غباره ، ولا ملك سابق في مضماره . وأما الملك العزيز عثمان(٢) ، فإنه أتى بالإحسان الذي استظهر به الإيمان . وذلك أنه لما عاد إلى مصر ، وقد شاهد الفتح والنصر ، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ، ولم ير بعد حصولها به نقلها . وكانت أحمالا بأموال ، وأثقالا كجبال ، وذخائر وافية ، وعُددا واقية ، ودروعاً سوابغ ، ونصولا دوامغ ، وخوذا وترائك ، ورماحات ونيازك ، وقنا وقنابل ، وصواقل وذوابل ، وخروجاً وقسياً ، ويمانياً وهندياً ويزنيا ، وردينياً ومشرفيا ، وجغاتي وجنويات ، وطوارق وقنطاريات ورانات حديد وزانات ، وآلات وزيارات ، وزراقات ونفاطات وقطاعات ، وعُدد النقوب ، وجميع أدوات الحروب . فاستظهرت بها المدينة ، وتوثقت بها عراها المتينة . وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم ، ويخرجوا قبل أن يستوفي الباقون في أداء القطيعة مدتهم . فتوفرت بذلك عُدد البلد واستغنى بذلك عما يصل من المــدد .

---

(١) ابن صلاح الدين وخليفته بالشام (١١٨٦ — ١١٩٦) .

(٢) ابن آخر لصلاح الدين وخليفته في مصر (١١٩٣ — ١١٩٨) .

ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام
- وتبطيل الكنائس وإنشاء المدارس

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى ، فإنه من حصن عند باب المدينة منيع ، وموضع عال رفيع ، وهو الحصن الذى يقيم به الوالى . فاعتنى السلطان بأحـوالـه الحوالى ، ورتب له إماماً ، ومؤذنين وقُوّاماً . وهو مثابة الصالحين ، ومزار الغادين والرائحين . فأحياه وجدّده ، ونهج لقاصديه جدده . وأمر بعمارة جميع المساجد ، وصون المشاهد ، وإنجاح المقاصد ، وإصفاء الموارد ، للقاصد والوارد. وكان موضعُ هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام . وكان ينتابهما فيها الأنام . وكان الملك العادل نازلا فى كنيسة صهيون ، وأجناده على بابها مخيمون . وفاوض السلطان جلساءه من العلماء الأبرار ، والأتقياء الأخيار ، فى مدرسة للفقهاء الشافعية ، ورباط للصلحاء الصوفية . فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصَنْدحنة (٢) عند باب أسباط ، وعين دار البطرك ، وهى بقرب كنيسة قمامة ، للرباط . ووقف عليهما وقوفاً ، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً . وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف .

وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامة ، وحرّم على النصارى زيارتها ولا الإلمامة. وتفاوض الناس عندها فيها ، فمنهم من أشار بهدم مبانيها ، وتعفية آثارها ، وتعمية نهج مزارها ، وإزالة تماثيلها ، وإزاحة أباطيلها وإطفاء قناديلها ، وإعفاء أناجيلها ، وإذهاب تساويلها ، وإكذاب أقاويلها . وقالوا : « إذا هدمت مبانيها ، وألحقت بأسافلها أعاليها ، ونبشت المقبرة وعفّيت ، وأخمدت نيرانها وأطفيت ، ومحيت رسومها

---

(١) القديسة حنة . يقال إن هذه الكنيسة بها قبر حنة أم مريم .

ونفيت ، وحُرثت أرضها ، ودمر طولها وعرضها ، انقطعت عنها أمداد الزوار ، وانحسمت عن قصدها مواد وأطماع أهل النـــار . ومهما استمرت العمارة ، استمرت الزيارة » . وقال أكثر الناس « لا فائدة من هدمها ولا هدّها ، ولا يؤذن بصد أبواب الزيارة عن الكفرة وسدّها . فإن متعبدهم موضع الصليب ، والقبر لا ما يشاهد من البناء : ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها فى السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر ، رضى الله عنه ، القدس فى صدر الإسلام ، أقرّهم على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان » .

الفصل الثالث

خلّفت شخصية كونراد ، مركيز مونفرّا ، الذى أنقذ مدينة صور ، وحرّك الحملة الصليبية الثالثة ، انطباعا قويا فى نفوس المؤرخين المسلمين المعاصرين ، لا يفوق قوة غير الانطباع الذى أحدثه ريتشارد قلب الأسد . ويصف ابن الأثير فى الصفحات التالية وصول المركيز إلى صور ، ويلوم صلاح الدين على افتقاره إلى الحزم إزاء حصاره لهذه المدينة . وقد كان فشل حصاره سببا فى عودة الحياة والهمة إلى صفوف الصليبيين ، فتقدموا بعده لحصار عكا .

(١)

ذكر خروج المركيس إلى صور

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر ، صفحة ٥٤٣ و ٥٤٤]

لما انهزم القمص [ريموند] صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور ، أقام بها . وهى أعظم بلاد الساحل حصانة وأشدها امتناعا على مَن رامها . فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت ، خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها ، فلا يقوى على حفظها . وتركها وسار إلى مدينة طرابلس ، فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين . فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها ، لأخذها بغير مشقة . لكنه استعظمها لحصانتها ، فأراد أن

يُفرّغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها . فكان ذلك سبب حفظها ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . واتفق أن إنسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيس ، لعنه الله ، خرج فى البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ، ولم يشعر بما كان من الفرنج . فأرسى بعكا ، وقد رابه مارأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرنج وضرب الأجراس وغير ذلك ، وما رأى أيضا من زى أهل البلد . فوقف ولم يدر ما الخبر . وكانت الريح قد ركدت . فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه فى سفينة يبصر من هو وما يريد . فأتاه القاصد ، فسأله المركيس عن الأخبار لما أنكره . فأخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها ، وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها ، وحكى الأمر له على وجهه . فلم يمكنه الحركة لعدم الريح ، فردّ الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال. فأجيب إلى ذلك. فردّده مراراً ، كل مرة يطلب شيئاً لم يطلبه فى المرة الأولى ، وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به . فبينما هو فى مراجعاته إذ هبّت الريح ، فسار نحو صور . وسيّر الملك الأفضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه .

فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق ، لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مماذكرنا ، أعطى أهلها الأمان. فساروا كلهم إلى صور . وكثر الجمع بها ، إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ، ولا مقدّم يقاتل بهم ، وليسوا أهل حرب ، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وطلب الأمان وتسليم البلد إليه . فأتاهم المركيس وهم على ذلك العزم ، فردّهم عنه ، وقوّى نفوسهم ، وضمن لهم حفظ المدينة . وبذل ما معه من الأموال ، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره . فأجابوه إلى ذلك، فأخذ أيمانهم عليه ، وأقام عندهم ، ودبّر أحوالهم . وكان من شياطين الإنس ، حسن التدبير والحفظ ، وله شجاعة عظيمة . وشرع فى تحصينها ، فجدّد حفر خنادقها وعمل أسوارها ، وزاد فى حصانتها ، واتّفق من بها على الحفظ والقتال دونها .

(٢)

ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها

من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الحادى عشر
من صفحة ٥٥٣ — ٥٥٧

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس ، أقام بظاهره إلى ٢٥ من شعبان يُرتب أمور البلد وأحواله . وتقدم بعمل الرُّبط والمدارس ، فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية ، وهى فى غاية ما يكون من الحسن . فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور ، وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير ، وقد صار المركيس صاحبها والحاكم فيها . وأقد ساسهم أحسن سياسة ، وبالغ فى تحصين البلد . ووصل صلاح الدين إلى عكا ، وأقام بها أياماً . فلما سمع المركيس بوصوله إليها جـد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ، ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر . فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء ، لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها .

ثم رحل صلاح الدين من عكا ، فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان [١٣ نوفمبر ١١٨٧] ، فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه ، حتى اجتمع الناس وتلاحقوا . وسار فى ٢٢ من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد ، بحيث يرى القتال . وقسم القتال على العسكر ، كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه ، بحيث يتصل القتال على أهل البلد ، على أن الموضع الذى يقاتلون فيه قريب المسافة ، يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه ، وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر إلى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها ، فإن المدينة كالكف فى البحر ، والساعد متصل بالبر ، والبحر من جانبى الساعد ، والقتال إنما هو فى الساعد . فزحف المسلمون إليها غير مرة بالمجانيق والعرادات والجروح والدبابات . وكان

أهل صلاح الدين يتناوبون القتال ، مثل : ولده الأفضل ، وولده الظاهر غازى ، وأخيه العادل بن أيوب ، وابن أخيه تقى الدين ، وكذلك سائر الأمراء .

وكان للفرنج شوان وحرّاقات يركبون فيها فى البحر ، ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد ، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ ويقاتلونهم . وكان ذلك يعظم عليهم ، لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم ، وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبيهم . فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع . فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ، ولم يتمكنوا من الدنوّ إلى البلد . فأرسل صلاح الدين إلى الشوانى التى جاءته من مصر ، وهى عشر قطع ، وكانت بعكا . فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعُدّتها . وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين . فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله . فقاتلوه برا وبحراً ، وضايقوه حتى كادوا يظفرون . فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب . وذلك أن خمس قطع من شوانى المسلمين باتت ، فى بعض تلك الليالى ، مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه . فباتوا ليلتهم يحرسون ، وكان مقدمهم عبد السلام المغربى الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته . فلما كان وقت السَّحَر أمنوا فناموا . فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم ، فأوقعت بهم ، فقتلوا من أرادوا قتله ، وأخذوا الباقين بمراكبهم ، وأدخلوهم ميناء صور ، والمسلمون فى البر ينظرون إليهم . ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر ، فمنهم من سبح فنجا ، ومنهم من غرق . وتقدم السلطان إلى الشوانى الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها ، فسارت . فتبعها شوانى الفرنج : فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدّين فى طلبهم ألقوا نفوسهم فى شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها ، فأخذها

صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور فى البر. وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال .

وفى بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم . فاشتد القتال بين الفريقين ، ودام إلى آخر النهار . وكان خروجهم قبل العصر . وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط . فلما أسر قُتل . وبقوا كذلك عدة أيام .

ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر

لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول ، رحل عنها . وهذه كانت عادته ، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه . وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة ، بل فتح الجميع فى الأيام القريبة ، كما ذكرناه ، بغير تعب ولا مشقة . فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملّوها ، وطلبوا الانتقال عنها . ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين ، فإنه هو جهّز إليها جنود الفرنج ، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره ، كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم . فحفظوا المدينة ، وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدّونهم . فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجأون إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذبّ عنها . وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك ، ليُعلم أن الملك لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار . فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مُضيّعاً للحزم ، وأعذر له عند الناس .

ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا ، فجماعة يقولون : « الرأى أن نرحل ، فقد جُرح الرجال وقتلوا وملّوا ، وفنيت النفقات .

وهذا الشتاء قد حصر ، والشوط بطين ، فنُريح ونستريح فى هذا البرد . فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها » . وكان هذا قول الأغنياء منهم ، وكأنهم خافوا أن السلطان يقترض ما ينفقه فى العسكر إذا أقام لخلوّ الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار ، فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها . وقالت الطائفة الأخرى . : « الرأى أن نصابر البلد ونضايقه ، فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم . ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب ، وأخذنا باقى البلاد صفوا عفواً » .

فبقى صلاح الدين متردداً بين الرحيل والإقامة . فلما رأى من يرى الرحيل إقامته ، أخلّ بما رُدّ إليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق ، واعتذروا بجراح رجالهم ، وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليُحضروا نفقاتهم والعلوف لدوابهم والأقوات لهم ، إلى غير ذلك من الأعذار . فصاروا مقيمين بغير قتال . فاضطر إلى الرحيل . فرحل عنها آخر شوال ، وكان أول كانون الأول ، إلى عكا . فأذن للعساكر جميعها بالعود إلى أوطانهم والاستراحة فى الشتاء ، والعود فى الربيع . فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام ، وعساكر مصر . وبقى حلقته الخاص مقيما بعكا ، فنزل بقلعتها ، وردّ أمر البلد إلى عزّ الدين جورديك ، وهو من أكابر المماليك النورية ، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة .

الفصل الرابع

كان أهم حدث فى الحرب الصليبية الثالثة التى كان الحافز إليها سقوط بيت المقدس ونجاح كونراد فى الدفاع عن صور ، هو الحصار طويل الأمد لميناء عكا . وقد بدأ هذا الحصار قبل وصول فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد بمدة طويلة ، وجاء هذان الملكان ليجنيا ثمار حصار شاق دام ثلاث سنوات لهذا الميناء الذى استولى عليه صلاح الدين عام ١١٨٧ . وقد شهد هذا الحصار ومحاولات اختراقه الكثير من الأحداث الشيقة غير العادية التى نورد أمثلة لها من بين ما ذكره كل من ابن الأثير ، وابن شداد ، والعماد الكاتب .

(١)
ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير الجزء الثانى عشر من صفحة ٣٢–٤١]

لما كثر جمع الفرنج بصور ، على ما ذكرناه من أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان ، وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم ، فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ، ومن الأموال ما لا يفنى ، على كثرة الإنفاق فى السنين الكثيرة . ثم إن الرهبان والقسوس وخلقا كثيراً من مشهوريهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم . وأخذهم البطرك الذى كان بالقدس ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً ، ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس ، وصوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوه مع صورة عربى يضربه ، وقد جعلوا الدماء على

صورة المسيح عليه السلام ، وقالوا لهم : « هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين ، وقد جرحه وقتله » . فعظم ذلك على الفرنج ، فحشروا وحشدوا حتى النساء . فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه ، أو يعطيهم مالا على قدر حالهم . فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يتطرق إليه الإحصاء .

ولقد حدثني بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد، وهو من أجناد أصحابه الذين سلموه إلى الفرنج قديماً . وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم والسعي معهم. وكان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة ٥٩٠ إن شاء الله تعالى . قال لي هذا الرجل إنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التي للفرنج والروم في أربع شوان يستنجدون . قال : « فانتهى بنا التطواف إلى رومية الكبرى (١) فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة(٢) » . وحدثني بعض الأسرى منهم أنه له والدة ليس لها ولد سواه ، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ بيت [المقدس] فأُخذ أسيراً » وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده . فخرجوا على الصعب والذلول ، براً وبحراً ، من كل فج عميق . ولولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين ، وأهلك ملك الألمان ، لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام ، وإلا كان يقال : إن الشام ومصر كانتا للمسلمين !

فهذا كان سبب خروجهم . فلما اجتمعوا بصور تموج بعضهم في بعض ، ومعهم الأموال العظيمة ، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر ،

---

(١) روما.
(٢) فضة .

والعدد والرجال من بلادهم . فضاقت عليهم صور ، باطنها وظاهرها ، فأرادوا قصد صيدا ، وكان ما ذكرناه(١) . فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها . فســـاروا إليها بفارسهم وراجلهم ، وقضّهم وقضيضهم . ولزموا البحر فى مسيرهم لايفارقونه فى السهل والوعر ، والضيق والسعة ، ومراكبهم تسير مقابلهم فى البحر ، فيها سلاحهم وذخائرهم ، ولتكون عدّة لهم ، إن جاءهم مالا قِبَلَ لهم به ركبوا فيها وعادوا . وكان رحيلهم ثامن رجب [٥٨٥ هـ / ٢٢ أغسطس ١١٨٩] ، ونزولهم على عكا فى منتصفه . ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطّفونهم ويأخذون المنفرد منهم .

ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم ، فسار حتى قاربهم ، ثم جمع أمراءه واستشارهم : هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون ، أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها ؟ فقالوا : « لاحاجة بنا إلى احتمال المشقة فى مسايرتهم ، فإن الطريق وعر وضيق ، ولايتهيأ لنا ما تريده منهم . والرأى أننا نسير فى الطريق المتهيع ، ونجتمع عليهم عند عكا ، فنفرقهم ونمزقهم » . فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة ، فوافقهم ، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون . وقال : « إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض ، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ، ولانيل الغرض منهم . والرأى قتالهم قبل الوصول إلى عكا . » فخالفوه ، فتبعهم . وساروا على طريق كفر كنّا . فسبقهم الفرنج . وكان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناشدونهم القتال ويتخطّفونهم ، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم . فلو أن العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا ، لكان بلغ غرضه وصدّهم عنها . ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

---

(١) كان صلاح الدين قد صدهم عن صيدا فى وقعة سابقة .

ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين إليها طريق . فنزل صلاح الدين عليهم ، وضرب خيمته على تل كيسان ، وامتدت ميمنته إلى تل العياظية ، وميسرته إلى النهر الجارى ، ونزلت الأثقال بصفورية . وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر ، فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، وأتاه تقى الدين ابن أخيه وأتاه مظفر الدين بن زين الدين وهو صاحب حران والرها . وكانت الأمداد تأتى المسلمين فى البر ، وتأتى الفرنج فى البحر . وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة ، منها اليوم المشهور ، ومنها ما هو دون ذلك . وأنا أذكر الأيام الكبار لئلا يطول ذلك ، ولأن ما عداها كان قتالا يسيراً من بعضهم مع بعض ، فلا حاجة إلى ذكره .

ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب ، ثم قاتلهم مستهل شعبان [١٤ سبتمبر] ، فلم ينل منهم ما يريد ، وبات الناس على تعبئة . فلما كان الغد باكرهم القتال بحده وحديده ، واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه . فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأزاحهم عن مواقفهم يركب بعضهم بعضاً لا يلوى أخ على أخ ، والتجأوا إلى من يليهم من أصحابهم ، واجتمعوا بهم واحتموا بهم ، وأخلوا نصف البلد ، وملك تقى الدين مكانهم ، والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه . واتصلت الطرق ، وزال الحصر عمن فيه ، وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك . ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه . فإن للصدمة الأولى روعة . لكنهم لما نالوا هذا القدر

أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال ، وقالوا : « نباكرهم غداً ونقطع دابرهم » .

وكان فى جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء ، حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر أمراء عسكره ، وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل . وقُتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة .

ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب

ثم إن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد ، وهو سادس شعبان [١٩٠ سبتمبر] ، عازمين على بذل جهدهم ، واستنفاد وسعهم فى استئصالهم . فتقدموا على تعبئتهم ، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين ، قد ندموا على ما فرّطوا فيه بالأمس ؛ وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم ، وشرعوا فى حفر خندق يمنع من الوصول إليهم . فألحّ المسلمون عليهم فى القتال ، فلم يتقدم الفرنج إليهم ، ولا فارقوا مرابضهم . فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم . ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم . فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان [٢٩ سبتمبر] . فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم ؛ حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم ، وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين ، فأحسن إليهم ، وأعطاهم الخلع .

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة ، بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان [٣ أكتوبر] ، كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه ، والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه . ثم إن الفرنج اجتمعوا

للمشورة . فقالوا : « إن عسكر مصر لم يحضر ، والحال مع صلاح الدين هكذا ، فكيف يكون إذا حضر ؟ والرأى أننا نلقى المسلمين غداً لعانا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم » .

وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائباً عنه ، بعضها مقابل أنطاكية ليردوا عادية بيمند [بوهيموند] صاحبها ، عن أعمال حلب ، وبعضها فى حمص مقابل طرابلس لتحفظ ذلك الثغر أيضاً ، وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد ، وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والإسكندرية وغيرهما. والذى بقى من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم(١) ، كما ذكرناه قبلُ ، وكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور إلى قتال المسلمين . وأصبح المسلمون على عادتهم ، منهم من يتقدم إلى القتال ، ومنهم من هو فى خيمته ، ومنهم من قد توجه فى حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه، إلى غير ذلك . فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر ، يدبون على وجه الأرض ، قد ملأوها طولا وعرضاً. وطلبوا ميمنة المسلمين ، وعليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين. فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه ، فتقدموا إليه . فلما قربوا منه تأخر عنهم .

فلما رأى صلاح الدين الحال ، وهو فى القلب، أمدّ تقى الدين برجال من عنده ليتقوى بهم ، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين فى جناح القلب . فلما رأى الفرنج قلة الرجال فى القلب ، وأن كثيراً منهم قد سار نحو الميمنة مدداً لهم : عطفوا على القلب ، فحملوا حملة رجل واحد . فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين ، وثبت بعضهم . فاستشهد جماعة منهم كالأمير مَجلّى بن مروان ، والظّهير أخى الفقيه عيسى ، وكان

---

(١) أى لطول الطريق الذى سلكوه إلى الشام .

والى البيت المقدس ، قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين ، وكالحاجب خليل الهكّارى ،وغيرهم من الشجعان الصابرين فى مواطن الحرب . ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم . فقصدوا التـل الذى عليه خيمة صلاح الدين ، فقتلوا من مرّوا به ، ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، منهم شيخنا جمال الدين أبو على بن رَواحة الحموى ، وهو من أهل العلم ، وله شعر حسن ، وما ورث الشهادة من بعيد ، فإن جدّه عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله الروم يوم موتة (١) ، وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره ،وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه . وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين . ولو لقوها لعلم الناس وصولهم إليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون .

ثم إن الفرنج نظروا وراءهم ، فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم . فرجعوا خوفاً أن ينقطعوا عن أصحابهم . وكان سبب انقطاعهم أن الميمنة وقفت مقابلتهم ، فاحتاج بعضهم أن يقف مقابلها . وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج ، فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم ، وعادوا إلى طرف خنادقهم . فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمـة صلاح الدين ، فصادفوهم وهم راجعون ، فقاتلوهم ، وثار بهم غلمان العسكر . وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم ، ويأمرهم بالكرّة ومعاودة القتال . فاجتمع معه منهم جماعة صالحة ، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة . فأخذتهم سيوف الله من كل جانب ، فلم يفلت منهم أحد ، بل قُتل أكثرهم ، وأخذ الباقون أسرى. ومن جملة من أسر مقدم الداوية (٢) الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه . فلما ظفر به الآن قتله .

---

(١) غزوة مؤتة عام ٦٢٩ م ، وهى التى فاجأ فيها الروم جيش الرسول عند حدود بلادهم .

(٢) جيرار دو ريدفور الذى أسر فى حطين ثم افتدى .

وكانت عدة القتلى ، سوى من كان إلى جانب البحر ، نحو عشرة آلاف قتيل . فأمر بهم فألقوا فى النهر الذى يشرب الفرنج منه . وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج ، فإن الرجّالة لم يلحقوهم . وكان فى جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل. فلما أُسرن وأُلقى عنهن السلاح عُرفن أنهن نساء . وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ، ومنهم من جاز الأردن وعاد ؛ ومنهم من بلغ دمشق . ولولا أن العساكر تفرّقت فى الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادَهم . على أن الباقين بذلوا جُهدهم ، وجدّوا فى القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج إلى معسكرهم لعلهم يفرغون منهم . فجاءهم الصّريخ بأن رحالهم وأموالهم قد نُهبت . وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب . فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه . وكان فى عزم صلاح الدين أن يباكروهم القتال والزحف ، فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم ، وهم يسعون فى جمعها وتحصيلها . فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعيبَ المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك . فردّ الجميع على أصحابه ، ففاته ذلك اليوم ما أراد . فسكن روع الفرنج ، وأصلحوا شأن الباقين منهم .

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكّنهم من حصر عكا

لمّا قُتل من الفرنج ذلك العدد الكثير ، جافت الأرض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ؛ وحدث للأمزجة فساد ، وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده . فحضر عنده الأمراء ، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع ، وترك مضايقة الفرنج ، وحسّنوه له ، وقالوا : « قد ضيّقنا على الفرنج ، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا . والرأى أننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود .

فإن رحلوا ، وهو ظاهر الأمر ، فقد كُفينا شرهم وكُفُوا شرنا . وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه . ثم إن مزاجك منحرف ، والألم شديد ، ولو وقع إرجاف لهلك الناس . والرأى على كل تقدير البعد عنهم » . ووافقهم الأطباء على ذلك ، فأجابهم إليـه إلى ما يريد الله يفعله (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ) . فرحلوا إلى الخَرّوبة رابع شهر رمضان [١٦ أكتوبر] ، وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط ، وأعلمهم بسبب رحيله .

فلما رحل هو وعساكره أمـن الفرنج وانبسطوا فى تلك الأرض ، وعادوا فحصروا عكا ، وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ، ومراكبهم أيضا فى البحر تحصرها . وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق ، وجاءوا بما لم يكن فى الحساب . وكان اليزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون ، إنما هم مهتمون بعمل الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم . فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل .

وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ، ويعظمون الأمر عليه ، وهو مشغول بالمرض ، لا يقدر على النهوض للحرب . وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليهم ليمنعوهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ، ويتخلف هو عنهم . فقال : « إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً ، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير » . فتأخر الأمر إلى أن عوفى ، فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا ، وأحكموا أمورهم ، وحصنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل . وكان من بعكا يخرجون إليهم كل يوم ويقاتلونهم ، وينالون منهم بظاهر البلد .

ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصرى فى البحر

فى منتصف شوال [آخر نوفمبر] وصلت العساكر المصرية ، ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب . فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه ، واشتدت ظهورهم . وأحضر معه من آلات الحصار ، من البرق والطارقيات والنشاب والأقواس ، شيئاً كثيراً ، ومعهم من الرجالة الجم الغفير . وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيراً وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل . ووصل بعده الأسطول المصرى ، ومقدمه الأمير لؤلؤ ، وكان شهماً شجاعاً مقداماً ، خبيراً بالبحر والقتال فيه ، ميمون النقيبة . فوصل بغتة فوقع على بُطْسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة ، فأدخلها إلى عكا . فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول ، وقوى جنانهم .

(٢)

ذكر المصاف الأعظم على عكا ، يسّر الله فتحها

[من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »
لبهاء الدين بن شداد ، من صفحة ١٠٩ — ١١٥]

لما كان يوم الأربعاء ٢١ من شعبان [٤ أكتوبر ١١٨٩] تحركت عساكر الإفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة ، فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم . واصطفوا خارج خيمهم ، قلباً وميمنة وميسرة ، وفى القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مُغَطّى ، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه ، وهم يسيرون بين يدى الملك . وامتدت الميمنة فى مقابلة الميسرة التى لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها ، وامتدت ميسرة العدو فى مقابلة ميمنتنا إلى آخرها . وملكوا رؤوس التلال . وكان طرف ميمنتهم إلى النهر ، وطرف ميسرتهم إلى البحر . وأما العسكر الإسلامى المنصور فإن السلطان لما بصر بالقوم أمر الجاويش أن ينادى فى

الناس : « ياللإسلام ، وعساكر الموحّدين ! » فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، وامتدت الميمنة إلى البحر ، كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم ، والميسرة إلى النهر كذلك أيضا .

وكان – رحمه الله – قد أنزل الناس فى الخيم ميمنة وميسرة وقلباً ، تعبية الحرب ، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب . وكان هو فى القلب ، وفى ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم ولده الملك الظافر ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر فى خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ، ثم حسام الدين ابن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان فى طرفها الملك المظفر تقى الدين بجحفله وعسكره ، وهو يطل على البحر . وأما أوائل الميسرة ؛ فكان مما يلي القلب سيف الدين على بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم والأمير مجلى ، وجماعة المهرانية والهكارية (١) . ومجاهد الدين يرنقش ، مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره . وأواخر الميسرة : كبار المماليك الأسدية ، كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الأسدية والذين يُضرب بهم المثل . وفى مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه . هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم فى نصرة دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلمون يقدمون ، حتى علا النهار ومضى منه مقدار أربع ساعات . وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ،

---

(١) قبائل كردية .

وتكاثروا على الملك المظفر — وكان فى طرف الميمنة على البحر — فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم ، لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينـال منهم غرضاً . فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً . فأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه . وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر . ولما رأى الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب ، داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، راجلهم وفارسهم . ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولا يسبقونها وهم يسوقون خبباً .

. . . .

وجاءت الحملة على الديار بكرية — كما يشاء الله تعالى — وكان بهم غرة عن الحرب (١) فتحركوا بين يدى العدو ، وانكسروا كسرة عظيمة . وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة . واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية ، فإنهم استداروا حول التل ، وصعد طائفة من العدو إلى خيم السلطان ، فقتلوا طست دار (٢) كان هناك . وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله : وأما الميسرة فإنها ثبتت ، فإن الحملة لم تصادفها . وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ، ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم « يا للإسلام ! » . ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ويتجاوز الصفوف . وأوى إلى تحت التل الذى كان عليه الخيام .

وأما المنهزمون من العسكر ، فإنه بلغت هزيمتهم إلى القحوانة ، قاطع جسر طبرية .. وأتم منهم قوم إلى المحروسة دمشق .. فأما المتبعون لهم فإنهم اتبعوهم إلى العياضية . فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدين إلى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة (٣)

---

(١) أى كانوا غير خبيرين بالحرب .

(٢) الطست دار : أحد الغلمان المشرفين على أوانى السلطان .

(٣) أى الخدم والبغالين وساسة الخيل .

منهزمين على بغال الحمل ، ثم جاءوهم فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة ، فإن السوق كان فيه خلق عظيم ، ولهم سلاح . وأما الذين صعدوا إلى الخيم السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئا أصلا سوى أنهم قتلوا من ذكرناه ، وهم ثلاثة نفر . ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة ، فعلموا أن الكسرة لم تتم . فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

وأما السلطان — رحمة الله عليه — فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو . فلما رأى الإفرنج نازلين من التل أراد لقاءهم ، فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون أصحابهم . فصاح في الناس وحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة . فاشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم . فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل ، وأنهم إنما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم . فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم .

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة . وتحايت الرجال وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ونصر الإيمان . وظل الناس في قتل وطرح ، وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو . فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها — خشية من مثل هذا الأمر — مستريحة ، فردوا المسلمين . وكان التعب قد أخذ من الناس ، والخوف والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم إلى خيامهم ، فرحين مسرورين .

وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحاً مسروراً . وجلسوا في خيمته يتذاكرون من فقد منهم . وكان مقدار من فقد من الغلمان

والمجهولين مائة وخمسين نفرا ؛ ومن المعروفين استشهد فى ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى : ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو يقول : « هذا يوم الهناء لا يوم العزاء » . وكان هو قد وقع عن فرسه وأركبه ، وقُتل عليه جماعة من أقاربه . وقتل فى ذلك اليوم الأمير مجلي . هـذا الذى قُتل من المسلمين . وأما من العدو المخذول فحُزِّر قتلاهم بسبعة آلاف نفر . ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه . فحرزتهم يدنون سبعة آلاف .

ولمـا تمّ على المسلمين من الهزيمة ما تم ، ورأى الغلمان خلوّ الخيام عمن يعترض عليهم — فـإن العسكر انقسم إلى قسمين : منهزمين ومقاتلين ؛ فلم يبق فى الخيم أحد — ورأوا الكسرة قد وقعت وظنوا أنها تم ، وأن العدو ينهب جميع ما فى الخيام ، فوضعوا أيديهم فى الخيم ونهبـوا جميع ما فيها . وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً . ولمـا عاد السلطان إلى المخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة ، سارع فى الكتب والرسل فى ردّ المنهزمين ، وتتبع من شذّ من العسكر ، والرسل تتتابع فى هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق ، فردوهم وأخبروهم بالكسرة للمسلمين فعادوا . وأمر بجميع الأقمشة من أكف الغلمان ، وجمع الأقمشة فى خيمته ، حتى جلالات الخيل والمخالى ، بين يديه فى خيمته ، وهو جالس ، ونحن حوله ، وهو يتقـدم إلى كل من عرف شيئاً وحلف عليه يُسلم إليه ، وهو يلتقى هـذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه مبسوط ، ورأى مستقيم غـير مختبط ، واحتساب لله تعالى ، وقوة عزم فى نصرة دين الله .

وأما العدو المخذول ، فإنه عاد إلى خيمه وقد قُتلت شجعانهم ، وطُرحت مقدموهم ، وفُقدت ملوكهم . فأمر السلطان أن يُخرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه . ولقد

حكى لى بعض من ولى أمر العَجل أنه أخذ خيطا ، وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة . فبلغ عدد قتلى الميسرة إلى أربعة آلاف ومائة وكسر . وبقى قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم ، فإنه ولى أمرهم غيره . وبقى من العدو بعد ذلك من حمى نفسه . وأقاموا فى مخيمهم لم يكترثوا بجافل المسلمين وعساكرهم . وشذت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة ، فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا فى حال سبيلهم . وأخذ السلطان — رحمه الله — فى جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها ، وأقام المنادية فى العساكر ، وقرن النداء بالوعد والتهديد ، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه . واجتمع من الأقمشة عدد كثير فى خيمته ، حتى إن الجالس فى أحد الطرفين لا يرى الجالس فى الطرف الآخر . وأقام من ينادى على من ضاع منه شئ ، فحضر الخلق ، وصار من عرف شيئاً وأعطى علامته حلف عليه وأخذه ، من الجل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة . ولقى من ذلك مشقة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها .

ولقد حضرت يوم تفرقة الأقمشة على أربابها ، فرأيتُ سوقاً للعدل قائمة لم ير فى الدنيا أعظم منها . وكان ذلك فى يوم الجمعة ٢٣ من شعبان [٦ أكتوبر] . وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقل ، حتى تراجع إلى موقع يقال له الخروبة ، خشية على العسكر من أراييح القتلى وآثار الوقعة من الوخم ، وهو موضع قريب من مكان الوقعة ، إلا أنه أبعد عنها فى المكان الذى كان نازلا فيه بقليل . وضُربت له خيمة عند الثقل ، وأمر اليزك أن يكون مقيماً فى المكان الذى كان نازلا فيه ، وذلك فى يوم الخميس ٢٩ شعبان [١٢ أكتوبر] . واستحضر الأمراء وأرباب المشورة فى سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنت من جملة الحاضرين ، ثم قال :

« بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل فى بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوايح النصرة عليه إن شاء الله تعالى . وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك . وانتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل . وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم . والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم . فليخبرنا كل منكم ما عنده فى ذلك » .

وكان ذلك فى ١٣ تشرين من الشهور الشمسية [١٣ أكتوبر] . فامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب فى أطراف الكلام . وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر . وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته . والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل . والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسأمت نفوسها ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ، ويشاركنا فى الرأى والعمل ، ونستعيد من شذ من العساكر ، ونجمع الرجالة ليقفوا فى مقابلة الرجالة . وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجى قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه ، وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر فى تلك الأيام . فوقع به ما قالوه ورآه مصلحة . وكان انتقال العسكر إلى الثقل يوم الإثنين ثالث رمضان ، وانتقال السلطان — رحمة الله عليه — تلك الليلة . وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر ، وينتظر أخاه الملك العادل إلى يوم الأثنين عاشر رمضان [٢٢ أكتوبر] (١)

---

(١) هذا التاريخ يسبق التاريخ الذى أورده ابن الأثير والعماد الكاتب بأكثر من شهر .

(٣)
ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الثانى عشر ، من صفحة ٤٥ — ٤٧]

كان الفرنج ، فى مدة مقامهم على عكا ، قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعا . وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة . وقد جمعوا أخشابها من الجزائر ، فإن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر . وغشّوها بالجلود والخل والطين والأدوية التى تمنع النار من إحراقها . وأصلحوا الطرق لها ، وقدّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات ، وزحفوا بها فى العشرين من ربيع الأول [٥٨٧ هـ / ٢٧ إبريل ١١٩٠] فأشرفت على السور ، وقاتل مَن بها مَن عليه ، فانكشفوا . وشرعوا فى طمّ خندقها ، فأشرف البلد على أن يُملك عنوة وقهراً .

فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنسانا سبح فى البحر ، فأعلمه ما هم فيه من الضيق ، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم . فركب هو وعساكره ، وتقدموا إلى الفرنج وقاتلوهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد . فافترق الفرنج فرقتين : فرقة تقاتل صلاح الدين ، وفرقة تقاتل أهل عكا . إلا أن الأمر قد خفّ عمن بالبلد . ودام القتال ثمانية أيام متتابعة ، آخرها الثامن والعشرون من الشهر [٥ مايو] . وسئم الفريقان القتال وملّوا منه لملازمته ليلا ونهاراً ، والمسلمون قد تيقّنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج . فإنهم لم يتركوا حيلة إلا وعملوها ، فلم يُفد ذلك ولم يُغن عنهم شيئاً . وتابعوا رمى النفط الطيار عليها ، فلم يؤثر فيها . فايقنوا بالبوار والهلاك ، فأتاهم الله بنصر من عنده وإذن فى إحراق الأبراج .

وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفّاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار . فكان من عرفه يلومه على ذلك وينكره عليه ، وهو يقول : « هذه حالة لا أباشرها بنفسي ، إنما أشتهى معرفتها » . وكان بعكا لأمر يريده الله . فلما رأى الأبراج قد نُصبت على عكا ، شرع فى عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار ، بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما . فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولى الأمور بعكا والحاكم فيها . وقال له : « تأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه » . وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله . فازداد غيظاً بقوله وحرد عليه. فقال له : « قد بالغ أهل الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا » . فقال له من حضر : « لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ، ولا يضرنا أن نوافقه على قواه » . فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقى بامتثال أمره . فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار . فكان الفرنج إذا رأوا القدر لايحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج . حتى إذا علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج ، ألقى قدراً مملوءاً وجعل فيها النـــار . فاشتعل البرج . وألقى قدراً ثانية وثالثة ، فاضطرمت النار فى نواحى البرج ، وأعجلت من طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص . فاحترق هو ومن فيه . وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير .

وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لاتعمل شيئاً، يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص . حتى عجّل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة . فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثانى ، وقد هرب من فيه لخوفهم ، فأحرقه ، وكذلك الثالث . وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله ، والمسلمون ينظرون ويفرحون ، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلاص المسلمين من القتل، لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله فى البلد إما نسيب وإما صديق .

وحُمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين ، فبـذل له الأموال الجزيلة والإقطاع الكثير ، فلم يقبل من الحبّة الفرد. وقال : « إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه » . وسيرّت الكتب إلى البلاد بالبشائر ، وأرسل يطالب العساكر الشرقية. فأول من أتاه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة . ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، سيّره أبوه مقدّماً على عسكره ، وهو صاحب الموصل. ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل . وكان كل منهم إذا وصل ، يتقدم إلى الفرنج بعسكره وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ، ثم ينزلون .

(٤)
ذكر وقائع عدة أثناء الحصار

[من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لبهاء الدين بن شداد ص ١٣٥ و ١٣٦ / ١٥٠—١٥١/١٥٦]

ذكر الحيلة فى إدخال بُطسة ببروت إلى البلد

وذلك أنه — رحمة الله عليه — كان قد أعدّ ببيروت بُطسة ، وعمّرها ، وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ، ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة . وكان الفرنج — خذلهم الله — قد أداروا مراكبهم حول عكا ، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين. وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة . فركب فى بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزى الفرنج حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة . فخرجوا إليهم واعترضوهم فى الحرّاقات ، وقالوا : « نراكم قاصدين البلد » ، واعتقدوا أنهم منهم . فقالوا : « ولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ » ، فقالوا : « لا لم نكن نأخذ البلد بعد » . فقالوا : « نحن نرد القلوع إلى العسكر ، ووراءنا بطسة أخرى فى هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد » . وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم فى البحر

قاصدين المعسكر. فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها . فاشتدت البطسة الإسلامية فى السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، وسلمت ولله الحمد . وكان فرحاً عظيما ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد . وكان ذلك فى العشر الأخير من رجب من شهور سنة ٥٨٦ [أغسطس — سبتمبر ١١٩٠] .

ذكر قصة العَوّام عيسى رحمه الله

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها أن عوّاماً مسلما كان يقال له عيسى . وكان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا ، على غرّة من العدو . وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو . وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر . وعام فى البحر ، فجرى عليه من أهلكه . وأبطأ خبره عنا . وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرّفنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشعر الناس هلاكه . ولما كان بعد أيام ، بينما الناس على طرف البحر فى البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب . وكان الذهب نفقة للمجاهدين. فما روى من أدّى الأمانة فى حال حياته وقد أدّاها بعد وفاته إلا هذا الرجل . وكان ذلك فى العشر الأخير من رجب أيضا .

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم الجمعة ٢٢ من شوال من شهور سنة ٥٨٦ [٢٢ نوفمبر ١١٩٠] ، رأى — رحمة الله عليه — أن يضع للعدو كمينا ، وقوى عزمه على ذلك . فأخرج جمعا من كماة العسكر وشجعانه ، وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا فى الليل ، ويكمنوا فى سفح تل هو شمالى عكا ، بعيداً عن عسكر العدو ، عنده كانت منزلة الملك العادل

حين وقعت الواقعة المنسوبة إليه ، وأن يظهر للعدو منهم نفر يسير ، وأن يقصدوه فى خيمه ، ويحركوه ، حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو الكمين. ففعلوا ذلك ، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا ، فكمنوا تحته . ولما علا نهار السبت ٢٣ من شوال ، خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل . فساروا حتى أتوا مخيم العدو ، ورموهم بالنشاب ، وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر . فانتحى لهم مقدار مائتى فارس ، وخرجوا شاكين فى السلاح على خيل جياد ، بعدة تامة وأسلحة كاملة . وقصدوهم وليس معهم راجل واحد . وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم . فانهزموا بين أيديهم ، وهم يقاتلون وينتقلون ، حتى أتوا الكمين . فخرج عليهم رجاله ، وثارت عند وصولهم إليه أبطاله ، وصاحوا فيهم صيحة الرجل الواحد ، وهجموا عليهم هجوم الأُسد على فريستها . فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديداً ، ثم ولوا منهزمين . فتمكن أولياء الله منهم ، ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى ألقوا منهم جمعاً عظيما . واستسلم الباقون للأمر ، فأسروهم ، وأخذوا خيلهم وعددهم . وجاء البشير إلى المعسكر الإسلامى ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير .

وركب السلطان — قدّس الله روحه — يلتقى بالمجاهدين . وسار — وكنت فى خدمته — حتى أتى تل كيسان . فتلقانا أوائل القوم ، فوقف هناك يتلقى العديدين من المجاهدين ، والناس يتبركون بهم ، ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو — رحمة الله عليه — يعتبر الأسارى ويتصفح أحوالهم . وكان ممن أسر فى ذلك اليوم مقدم عسكر الأفرنسيس ، فإنه كان قد أنفذ نجـدة قبل وصوله . وأسر خازن الملك أيضا . وعاد السلطان — رحمه الله — بعد تكامل الجماعة إلى مخيمه فرحاً مسروراً ، وأحضر الأسرى عنده ، وأمر منادياً ينادى : « ألا إن من أسر أسيراً فليحضره » . فأحضر الناس أسراهم ، وكنت حاضراً ذلك المجلس . ولقد أكرم — رحمة الله عليه — المقدمين منهم ، وخلع على مقدم عسكر الإفرنسيس فروة

خاصاً ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية . وكان يكارمهم فى كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان فى بعض الأوقات . وأمر بتقييدهم وحملهم إلى محروسة دمشق ، فحملوهم إليها مكرمين . وأذن لهم فى أن يراسلوا أصحابهم ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها . ففعلوا ذلك وساروا إلى محروسة دمشق .

ذكر وقائع عدّة

وصل [إلى تل العياضية قرب عكا] فى أثناء ذلك اليوم [٩ ربيع الأول سنة ٥٨٧ / ٦ إبريل ١١٩١] خمسة وأربعون نفراً من أسارى الفرنج كان قد أخذوا فى بيروت . وسُيّروا إليه — رحمه الله — فوصلوا فى ذلك اليوم إلى ذلك المكان . ولقد شاهدتُ منه رقة قلب ورحمة فى ذلك اليوم لم يُر أعظم منها ، رحمه الله . وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن فى السن ، لم يبق فى فمه ضرس ، ولم يبق له قوّة إلا مقداراً يتحرك بهالاغير . فقال للترجمان : « سله : ما الذى حملك على المجئ وأنت فى هذا السن ؟ وكم من ها هنا إلى بلاده ؟ » فقال : « أما بلادى فبينى وبينها مسيرة عدة أشهر . وأما مجيئى فإنما كان للحج إلى القيامة » . فرق له السلطان — قدس الله روحه — ومنّ عليه وأطلقه ، وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو . ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم فى قتل أسير ، فلم يفعل . فسألته — رحمه الله — عن سبب المنع ، وكنتُ حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : « لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر » . ولا يخفى ما فى طى ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين ، رأف الله به ورحمه .

(٥)

ذكر حال نساء الفرنج

[من كتاب « الفتح القدسي » للعماد الكاتب الإصفهاني ،
من صفحة ٣٤٧ - ٣٤٩]

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجرائر . واغتربن لإسعاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الأشقياء . وترافدن على الإرفاق والإرفاد ، وتلهّبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية ، زاهية هازية ، عاطية متعاطية ، حاظية خاظية ، متغنية متغنجة ، متبرزة متبرجة ، نازية ملتهبة ، متنقشة متخضبة ، تائقة شائقة ، فائقة رائقة ، راتقة فاتقة ، راقعة خارقة ، مارقة رامقة ، قاسرة سارقة ، فارجة فاجرة ، فاتنة فاترة ، مشتهاة متشهية ، ملهاة متلهية ، متفننة متفتية ، ناشية منتشية ، متشوقة متسوقة ، مقترحة محترقة ، متحببة متعشقة ، حمراء مرحاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء ، غناء لفاء ، زرقاء ورقاء ، متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها ، وتسحر بنضارتها نظارتها . وتتثنى كأنها غصن ، وتتجلى كأنها حصن ، وتميس كأنها قضيب ، وتزيف وعلى لبتها صليب . وهي بائعة شكرها بشكرها ، باغية كسرها في سكرها .

فوصلن وقد سبلن أنفسهن ، وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن . وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان ، وأرين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب ، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ ، وسبلن ما بين الأفخاذ . وبحن بالإباحة ، ورحن إلى الراحة ، وأزحن علة السماحة . ونفقن سوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور ، وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور . وعرضن الإمتاع بالمتاع ، ودعون الوقاح إلى الوقاع . وركبن الصدور على

الأعجاز ، وسمحن بالسلعة لذوى الإعواز . ودُمن على تقريب خلاخلهن من الأقراط ، ورمن فرشهن على بساط النشاط . وتهدفن للسهام ، وتحللن للحرام ، وتعرضن للطعان ، وتضرعن للأخران . ومددن الرواق ، وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للأوتاد ، واستدعين النصول منهن إلى الأغماد . وسوين أراضيهن للغراس ، واستنهضن الحراب إلى التراس . واستنفرن المحاريث إلى الحرث ، ومكنّ المناقير من البحث . وأذن للرءوس فى دخول الدهاليز ، وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقرين الأشطان من الركايا ، وفوقن النبال فى أعجاس الحنايا ، وقطعن التكلك ، وطبعن السكلك . وضممن الأطيار فى أوكار الأوراك ، وجمعن قرون كباش النطاح فى الشباك . ورفعن الحجر عن المصون ، وترفعن عن ستر المكنون . ولففن الساق بالساق ، وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب فى الوجار ، وأطلعن الأشرار على الأسرار . وطرقن الأقلام إلى الأدوية ، والسيول إلى الأودية . والجداول إلى الغدران ، والمناصل إلى الأجفان . والسبائك إلى البواتق ، والزنانير إلى المناطق . والأحطاب إلى التنانير وذوى الأجرام إلى المطامير ، والصيارف إلى الدنانير . والأعناق إلى البطون ، والأقذاء إلى العيون .

وتشاجرن على الأشجار ، وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قربة إما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة . وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر . وتسامح أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية . وأبق من المماليك الأغبياء ، والمدابير الجهلاء ، جماعة جد بهم الهوى ، واتبعوا من غوى . فمنهم من رضى للذة بالذلة ، ومنهم من ندم على الذلة فتحيل فى النقلة . فإن يد من لايرتد لاتمتد ، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد ، وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على التعزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج ، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج .

ووصلت أيضاً فى البحر امرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر ، وهى فى بلدها مالكة الأمر . وفى جملتها خمسمائة فارس ، بخيولهم وأتباعهم ، وغلمانهم وأشياعهم. وهى كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة . وهم يركبون بركباتها ، ويحملون بحملاتها ، ويثبون لوثباتها ، وتثبت ثُباتها لثباتها .

وفى الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس . وكن فى زى الرجال ويبرزن فى حومة القتال . ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة. فسبحان الذى أضلهن ، وعن نهج النهى أزلهن .

وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوة ، لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن مع لينهن قسوة ، وليست لهن سوى السوابغ كسوة (١) . فما عُرفن حتى سُلبن وعُرين ، ومنهن عدة استُبين واشترين . وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز . وهـن يشددن تارة ويرخين ، ويحرضن وينخين . وقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء ، وأنه لابقاء له إلا بالفناء ، وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعـداء . فانظر إلى الإتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن للغيرة على الملة ملن الغَيْرة ، وللنجاة من الحيرة ناجين الحيرة ، ولعدم الجلد عن طلب الثأر تجلدن ، ولما ضامهن من الأمر تبلهن وتبلدن .

---

(١) يقول أسامة بن منقذ فى كتاب « الاعتبار » إن نسوة المسلمين كن أيضاً يحملن السلاح عند الضرورة .

الفصل الخامس

بعد حملة فردريك بارباروسا وغرقه ، تمكن ملكا فرنسا وانجلترا من تحقيق بعض النجاح . فرغم جهود صلاح الدين من أجل تعبئة كافة الجيوش الإسلامية فى حملة مضادة (ولدينا فى خطاب منه أورده أبو شامة نداء حار يستنفر فيه الناس للجهاد) فقد استسلمت عكا بعد نفاد الأقوات فيها وهلاك عسكرها . ويرسم لنا ابن شداد صورة حية للساعات الأخيرة والمأساة الدموية للاستسلام ، حين أمر ريتشارد قلب الأسد بقتل أسرى المسلمين

(١)

ذكر الحيلة التى عملها المركيس [كونراد] فى جمع الفرنج من وراء البحر

[من كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين ابن شداد ، ص ١٣٦-١٣٧]

وكان المركيس - صاحب صور - من أعظم الفرنج حيلة وأشدهم بأسا ، وهو الأصل فى تهييج الجموع البحرية . وذلك أنه صوّر القدس فى ورقة عظيمة ، وصوّر فيها صورة القيامة التى لهم يحجّون إليها ويعظّمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم . وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم . فصور القبر وصوّر عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر . وأبدى هذه الصورة وراء البحر فى الأسواق والمجامع ، والقسوس

يحملونها ورءوسهم مكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور . وللصور عمل فى قلوبهم ، فإنها أصل دينهم . فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده .

(٢)
ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ، الجزء الثانى عشر ، ص ٤٨ — ٥٠]

فى هذه السنة [٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م] خرج ملك الألمان من بلاده ، وهم نوع من الفرنج ، من أكثرهم عدداً ، وأشدهم بأساً . وكان قد أزعجه ملك الإسلام البيت المقدس . فجمع عساكره ، وأزاح علتهم ، وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية . فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ، ويعد أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده .

فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه . لكنه منع عنهم الميرة ، ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم . فضاقت بهم الأزواد والأقوات . وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية ، وصاروا على أرض بلاد الإسلام ، وهى مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن سليمان بن قتلمش ابن سلجق (١) فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأوج ، فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه . وكان الزمان شتاء ، والبرد يكون فى تلك البلاد شديداً ، والثلج متراكما ، فأهلكهم البرد والجوع والتركمان ، فقل عددهم .

---

(١) سلطان قونية السلجوقى .

فلما قاربوا مدينة قونية ، خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه ابن قلج أرسلان ليمنعهم ، فلم يكن له بهم قوة ، فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه ، وتفرق أولاده فى بلاده ، وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها . فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير فى أثره ، فنازلوا قونية ، وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية ، وقالوا له : « ما قصدُنا بلادك ولا أردناها ، وإنما قصدُنا البيت المقدس » وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره . فأذن فى ذلك فأتاهم ما يريدون ، فشبعوا وتزودوا وساروا . ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم ، وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن . وكان يخافهم ، فسلم إليهم نيفا وعشرين أميراً كان يكرههم . فساروا بهم معهم ، ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض إليهم . فقبض ملك الألمان على من معه من الأمراء وقيدهم . فمنهم من هلك فى أسره ، ومنهم من فدى نفسه .

وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن ، وصاحبها لافون بن اصطفانة ابن ليون . فأمدهم بالأقوات والعلوفات ، وحكمهم فى بلاده ، وأظهر الطاعة لهم . ثم ساروا نحو انطاكية ، وكان فى طريقهم نهر ، فنزلوا عنده ، ودخل ملكهم إليه ليغتسل فغرق فى مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل ، وكفى الله شره . وكان معه ولد له ، فصار ملكا بعده (١) . وسار إلى انطاكية . فاختلف أصحابه عليه ، فأحب بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه . وبعضهم مال إلى تمليك أخ له ، فعاد أيضاً . وسار فيمن صحت نيته له ، فعرضهم ، وكانوا نيفا وأربعين ألفا . ووقع فيهم الوباء والموت ، فوصلوا إلى أنطاكية وكأنهم قد نُبشوا من القبور . فتبرم بهم صاحبها ، وحسّن لهم المسير إلى الفرنج الذين

---

(١) هو فردريك الذى لقى حتفه بعد ذلك بزمن قصير أمام عكا .

على عكا . فساروا على جَبَلة ولاذقية وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون . وخرج أهل حلب وغيرها إليهم ، وأخذوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممن أخذ . فدخلوا طرابلس ، وأقاموا بها أياماً ، فكثر فيهم الموت ، فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل . فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا . ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف ، عادوا إلى بلادهم ، فغــرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد .

وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ، ويعده أن يمنعهم من العبور في بلاده . فلما عبروها وخلّفوها ، أرسل يعتذر بالعجز عنهم ، لأن أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته .

وأما صلاح الدين ، عند وصول الخبر بعبور الملك الألمان ، فإنه استشار أصحابه ، فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا . فقال : « بل نقيم إلى أن يقربوا منا ، وحينئذ نفعل ذلك ، لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا » . لكنه سيّر بعض من عنده من العساكر ، منها عسكر حلب وجبلة ولاذقية وشيزر وغير ذلك إلى أعمال حلب ليكونوا في أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم . وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل ، (إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزلوا زلزالا شديداً) (١) ، فكفى الله شرهم ، وردّ كيدهم في نحرهم .

ومن شدة خوفهم أن بعض امراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية ، وكان أخي ، رحمه الله ، يتولاها . فحصل دخلها من حنطة

---

(١) إشارة إلى حصار الأحزاب المدينة عام ٥ هـ (٦٢٧ م) .

وشعير وتبن ، فأرسل إليه فى بيع الغلّة . فوصل كتابه يقول ، « لا تبع الحبة الفرد ، واستكثر لنا من التبن » ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول : « تبيع الطعام فما بنا حاجة إليه » ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل ، فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الإذن فيها بعد مدة يسيرة . فقال : « لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام ، فكتبتُ بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم . فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها ، كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها .

(٣)

ذكر وصول العساكر الإسلامية وملك الإفرنسيس ، وملك الانكتار

[من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لبهاء الدين ابن شداد ، ص ١٥٦ — ١٥٨ و ١٦١]

ومن ذلك الوقت [ربيع عام ١١٩٠ م] انفتح البحر وطاب الزمان ، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين . وكان أول من قدم من عساكر المسلمين علم الدين سليمان بن جَنْدَر من أمراء الملك الظاهر ولده صاحب حلب . وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ، ذا رأى حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قديم صحبة . ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه ، وهو صاحب بعلبك ، قدما فى ربيع الأول من شهور سنة ٥٨٧ . وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب . وأما عسكر العدو المخذول فإنهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم ملك الفرنسيس(١) وكان عظيما عندهم ، مقدماً محترما ، من كبار ملوكهم ، ينقاد إليه الموجودون فى العسكر بأسرهم ، بحيث إذا حضر حكم على الجميع .

(١) هو الملك فيليب أغسطس .

ولم يزالوا يتواعدونا بقدومه حتى قدم — لعنه الله — في ست بطش تحمله وتحمل ميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه . وكان قدومه يوم السبت ٢٣ ربيع الأول من شهور سنة ٥٨٧ [٢٠ إبريل ١١٩١] .

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجنس . وكان يعزه ويحبه حبا عظيما فشذّ البازى من يده ، وطار وهو يستجيبه ولا يجيبه ، حتى سقط على سور عكا . فاصطاده أصحابنا ، وأنفذوه إلى السلطان ، رحمه الله . وكان لقدومه روعة عظيمة ، واستبشار عظيم بالظفر . ولقد رأيته ، وهو يضرب إلى البياض ، مشرق اللون ، ما رأيت بازياً أحسن منه . فتفاءل المسلمون بذلك . وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا . وقدم بعد ذلك كند فرند (١) ، وكان مقدما عظيما عندهم مذكوراً ، كان حاصر حماة وحارم في عام [سقوط] الرملة .

ذكر خبر ملك الانكتار لعنه الله

وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمرتبة ، لكنه أكثر مالا منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة . وكان من خبره أنه لما وصل إلى جزيرة قبرص لم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له وفي حكمه، فنازلها وقاتلها . فخرج إليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما ، وقاتله قتالا شديداً . فأنفذ

---

(١) كونت الفلاندرز ، فيليب الألزاسى .

(٢) ريتشارد قلب الأسد .

الانكتار إلى عكا يستنجد منهم الجماعة ليعينوه على مقصوده . فأنفذ إليه الملك جفرى [جودفرى] (١) أخاه ومعه مائة وستون فارساً . وبقى الفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم ...

ولما كان يوم السبت جمادى الأولى (٨ يونيو ١١٩١) قدم ملك الانكتار الملعون بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها . وكان لقدومه روعة عظيمة . وصل فى خمسة وعشرين شانيا مملوءة بالرجال والسلاح والعدد . وأظهر الفرنج سروراً عظيماً بقدومه وفرحاً شديداً ، حتى إنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة فى خيامهم فرحاً به . ولقد كانت تلك النيران مهولة عظيمة ، تدل على نجدة عظيمة كثيرة . وكان ملوكهم يتواعدونا به ، وكان المستأمنون منهم يخبرون عنهم أنهم متوقفون بما يريدون يفعلونه من مضايقة البلد إلى حين قدومه ، فإنه ذو رأى فى الحرب مجرب . وأثرّ قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة . هذا والسلطان — رحمة الله عليه — يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله تعالى ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

(٤)

ذكر مكاتبة السلطان إلى الأطراف فى الاستنفار للجهاد

[من « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » لأبى شامة ، الجزء الثانى ، صفحة ١٤٨]

« ... والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين فى تسكين ثائرهم ، وتخريب عامرهم . وما دام البحر يمدّهم ، والبر لا يصدّهم ، فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم . فأين حمية المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين ، ؟ ! وما ينقضى عجبنا

---

(١) الصحيح « جى » لا « جودفرى » .

من تضافر المشركين وقعود المسلمين . فلا ملبي منهم لمناد ، ولامثقف لمتآد . فانظروا إلى الفرنج أى مورد وردوا ، وأى حشد حشدوا ، وأى ضالة نشدوا ، وأية نجدة أنجدوا ، وأية أموال غرموها وأنفقوها ، وجدات جمعوها ، وتوزعوها فيما بينهم وفرّقوها . ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم ، إلا جارى جاره فى مضمار الإنجاد ، وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد ، واستقلّوا فى صون ملتهم بذل المهج والأرواح ، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح .

«وما فعلوا ما فعلوا ، ولا بذلوا ما بذلوا ، إلا لمجرّد الحمية لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم . وليس أحد من الفرنجية [إلا] يستشعر أن الساحل إذا ملك ، ورفع فيه حجاب عزهم وهتك ، يخرج بلده عن يده ، وتمتد يد إلى بلده .

« والمسلمون بخلاف ذلك : قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ، ولزموا الحيرة ، وعدموا الغيرة . ولو انثنى — والعياذ بالله — للاسلام عنان ، أو خبا سنا ونبا سنان ، لما وجد فى شرق البلاد وغربها ، وبُعد الآفاق وقربها ، من لدين الله ، يغار ، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار .

« وهذا أوان رفض التوانى ، واستدناء أولى الحمية من الأقاصى والأدانى . على أنّا بحمد الله لنصره راجون ، وله بإخلاص السر وسر الإخلاص مناجون ، والمشركون بإذن الله هالكون ،والمؤمنون آمنون ناجون » .

(٥)

[ذكر خبر قوة زحف الفرنج على عكا واستيلائهم عليها]

[من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لبهاء الدين بن شداد
من صفحة ١٦٦ — ١٧٢ ومن ١٧٤ — ١٧٥]

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب، ويثقلوا حجارها ، واختصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم بقوا ليالى عدة لاينامون أصلا ، لا ليلا ولا نهاراً . والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم ؛ وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن . ولم يزل الضرب بالمنجنيقات حتى تخلخل السور ، وظهر للعدو تخاخله وضعفه وتقلقل بنيانه . ولما أحس العدو بذلك ، شرعوا فى الزحف من كل جانب ، وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه . وشرعوا فى ذلك شروعاً عظيماً براجلهم وفارسهم ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخر [١٢ يوليو ١١٩١] ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهاراً .

فلما علم السلطان ذلك بأخبار من شاهده وإظهار العلامة التى بيننا وبين البلد — وهى دق الكوس — ركب وركب العسكر بأسرهم وجميع الراجل والفارس ، ووعدهم ورغبهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم . وجرى فى ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو — رحمه الله — كالوالدة الثكلى ، يتحرك بفرسه من طُلْب إلى طُلْب ، ويحث الناس على الجهاد . ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه دفعتين فى ذلك اليوم ، والسلطان — رحمه الله — يطوف بين الأطلاب ، وينادى

بنفسه : « ياللإسلام ! » وعيناه تذرفان بالدمع . وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد فى الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب .

وتأخرتُ عن حضور هذا الزحف لما عرانى من مرض شوّش مزاجى . فكنت فى الخيمة فى تل العياضية ، وأنا أشاهد الجميع . ولما هجم الليل عاد — رحمه الله — إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، فنام لا عن غفو .

ولما كان سحر تلك الليلة ، أمر الكوس أن دق ، وركبت العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه . وفى ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : « إنّا قد بلغ منا العجز إلى غايةٍ ما بعدها إلا التسليم . ونحن فى الغد — يعنى يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة — إن لم تعملوا معنا شيئاً ، نطلب الأمان ونسلم البلد ونشترى مجرد رقابنا » . وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه فى قلوبهم . فإن عكا قد كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً وجميع البلاد الإسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام ، كسيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش ، وغيرهما . وكان بهاء الدين قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو المخذول عليها ؛ وأصاب السلطان — رحمه الله — من ذلك ما لم يصبه بشىء غيره ، وخيف على مزاجه التشويش ، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه فى جميع ذلك ، صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً ، والله لا يضيع أجر المحسنين . فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم . فصاح فى العساكر الإسلامية الصائح ، وركبت الأطلاب ، واجتمع الراجل والفارس . واشتد الزحف فى ذلك اليوم ، ولم يساعده العسكر فى ذلك اليوم على الهجوم على العدو ؛ فإن الرجالة من

الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك(١) والنشاب من وراء أسوارهم . وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبوا غاية الذب . ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد أفرنجي ، وأنه صعد سور خندقهم ، واستدبر للمسلمين ، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة ، وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم . وقال : « إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلاقاها ، ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال ، حتى ضربه زرّاق مسلم بقارورة نفط فأحرقه ». ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل . قال : « وكان داخل سورهم امرأة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة . تكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها ، وحملناها إلى السلطان — رحمه الله — فعجب من ذلك عجباً عظيماً » . ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين إما قتلا وإما جراحاً ، حتى فصل الليل بين الطائفتين .

ذكر ما آل أمر البلد إليه من الضعف
ووقوع المراسلة بين أهل البلد والفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليه من كل جانب ، وتناوبوا عليه ، وقلّت رجالة البلد وخيالته ، بكثرة القتلى منهم وقلة البدل الذي يدخل إليهم ، ضعفت نفوس أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك ، واستشعروا الضعف والعجز عن الدفع . وتمكن العدو من الخنادق فملأوها وتمكنوا من سور البلد الباشورة ، فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب . ووقعت بَدَنة من الباشورة ، ودخل العدو إلى الباشورة وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً وصاعداً عن ذلك . وكان منهم ستة أنفس من كبارهم . فقال لهم واحد : « لا تقتلوني حتى أرحّل الفرنج عنكم بالكلية »

---

(١) الزنبورك : نوع من القسي التي ترمى عنها السهام ، وقد تعني نوعاً من السهام ذاتها .

فبادر رجل من الأكراد وقتله ، وقتل الخمسة الباقية . وفى الغد ناداهم الفرنج ، «احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم». فقالوا : «قد قتلناهم» . فحزن الفرنج لذلك حزنا عظيما ، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك أياماً ثلاثة .

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك الإفرنسيس ، وهو كان مقدم الجماعة فى المرتبة . خرج إليه بالأمان وقال : «إنا قد أخذنا منكم بلادا عدة ، وكنا نهدم البلد وندخل فيه . ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم . ونحن نسلّم البلد ، وتعطينا الأمـــان على أنفسنا ؟» . فأجابه بأن : «هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا ،وأنتم أيضاً مماليكى وعبيدى ، فأرى فيكم رأيى» . وبلغنا بعد ذلك أن المشطوب أغلظ له فى القول ، وقال أقاويل كثيرة فى ذلك المقام ، منها : «إنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، ولا يُقتل واحد منا حتى يقتل خمسين نفسا من كباركم» . وانصرف عنه . ولمـــا دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان فى البلد ، فأخذوا لهم بركوسا ، وهو مركب صغير ، وركبوا فيه ليلا خارجين إلى العسكر الإسلامى ، وذلك فى ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وكان فيهم من المعروفين أرْسل ، وابن الجاولى الكبيرة وسُنقر الوشاقى . فأما أرسل وسنقر فإنهما لمـــا وصلا العسكر المنصور تغيّبا ، ولم يعرف لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما ابن الجاولى فإنه ظُفر به ، ورُمى به فى الزردخاناه .

وفى سحرة تلك الليلة ركب السلطان — رحمه الله — مشعراً أنه يريد كبس القوم ، ومعه المساحى وآلات طم الخنادق . فما ساعده العسكر

على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا : « نخاطر بالإسلام كله ، ولا مصلحة فى ذلك » . وفى ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاسبتارية يخرج فى الغد — يعنى لجمعة — يتحدث ويتحدثون معه فى معنى الصلح . غير أن السلطان أكرمهم ، ودخلوا سوق العسكر ، وتفرجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم. وفى ذلك اليوم ، تقدم السلطان إلى صارم الدين قايماز النجمى حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم . وترحل جماعة من أمراء الأكراد ، كالجناح وأصحابه (وهو أخو المشطوب) ، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج . ونصب قايماز النجمى علمه بنفسه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار . وفى ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النورى ، وصل وسوق الزحف قائم . فترجل هو وجماعته ، وقاتل قتالا شديداً ، واجتهد الناس فى ذلك اليوم اجتهاداً عظيما .

ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة [٥ يوليو] أصبح القوم ساكنين من الزحف ، والعساكر الإسلامية محدقة بهم ، وقد باتوا ليلتهم شاكين فى السلاح ، راكبين ظهور خيولهم ، منتظرين عسى يمكنهم مساعدة إخـوانهم المقيمين بعكا ، يهجمون على طرف من الفرنج فيكسرونهم ، ويخرجون يحمى بعضهم بعضاً ، ويخرقون العسكر ، وتجاوبهم العساكر من الجانب ، فيسلم من يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ . فلم يقدروا على الخروج ، وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتهيأ لهم فى تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان . فأخبر العدو بذلك ، فاحتاطوا عليهم ، وحرسوهم حراسة عظيمة . ولما كان يوم الجمعة ، خرج منهم رسل ثلاثة ، واجتمعوا بالملك العادل ، وتحدثوا معه ساعة زمنية ، وعادوا إلى أصحابهم . ولم ينفصل الحال فى ذلك

اليوم . وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج فى قبالة العدو المخذول ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت ١١ من جمادى الآخرة ، لبست الفرنجية بأسرها لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمة ، بحيث اعتقد أنه ربما كان مصافا . واصطفوا ، وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء أربعين نفسا ، واستدعوا جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العَدْل الزَّبْدانى ، وذكر أنه صاحب صيدا ، طليق السلطان . فحضر العدل ، وجرى مبادئ أحاديث فى معنى إطلاق العسكر الذى بعكا . واشتطّوا فيما طلبوا فى مقابلة ذلك اشتطاطا عظيما . وتصرّم نهار السبت ولم ينفصل حال .

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ١٢ جمادى الآخرة ، وصل من البلد كتب يقولون فيها : « إنا قد تبايعنا على الموت ، ونحن لا نزال نقاتل حتى نُقتل ، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء . فانظروا أنتم كيف تعملون فى شغل العدو عنا ، ودفعه عن قتالنا . فهذه عزائمنا . وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له . فأما نحن فقد فات أمرنا » . وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه لمّا وقع بالليل الصوت (١) ، ظن الفرنج أن عسكراً عظيما قد عبر إلى عكا وسلم ، وصار فيها . قال : « وجاء إنسان فرنجى ووقف تحت السور ، وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له : « بحق دينك ألا أخبرتنى كم عدد العسكر الذى دخل إليكم البارحة » — يعنى ليلة السبت . وكان قد وقع فى الليل صوت ،

---

(١) يبدو أن زلزالا بسيطاً وقع أثناء الليل .

وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة . فقال : « ألف فارس » . فقال « لا . لكنه دون ذلك . أنا رأيتهم ، وهم لابسون ثيابا خضرا(١). »

ثم تتابعت العساكر الإسلامية وتواصلت ، واندفع كيد العدو عن القوم فى تلك الأيام ، بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ . فقدم يوم الثلاثاء ١٤ سابق الدين صاحب شيزر ، ويوم الأربعاء ١٥ بدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير ، كان قد أنفذ إليه السلطان — رحمه الله — ذهبا أنفق فيهم ، ويوم الخميس ١٦ أسد الدين شيركوه . واشتد ضعف البلد ، وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها ، حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه . واشتد ثبات الفرنج — لعنهم الله — على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين فى البلد أمانا حتى يطلق جميع الأسرى الذين فى أيدى المسلمين ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم . وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه ، فلم يفعلوا . وبذل لهم فى مقابل كل واحد من الذين فى البلد واحدا من أسرائهم مقابله ، فلم يفعلوا . وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصلبوت ، فلم يفعلوا . واشتد عتوهم واستفحل أمرهم ، وضاقت الحيل عنهم ، ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين .

ذكر حديث مصالحة أهل البلد ومصانعتهم عن نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، خرج العوام من الثغر ، ونطقت كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر ، وكثرت الثغر ، وعجزوا عن الحفظ والدفع ، ورأوا عين الهلاك ، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد

---

(١) يقصد الملائكة .

والأسلحة والمراكب وغير ذلك . فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتى ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم. وضمنوا للمركيس الملعون — فإنه كان قد استرضى وعاد — عشرة آلاف دينار ، ولأصحابه أربعة آلاف دينـــار . واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج .

ذكر استيلاء العدو على عكا يسّر الله فتحها

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلم مضمونها ، أنكر ذلك إنكاراً عظيما ، وعظم عليه هذا الأمر ، وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها ، وعرّفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع . واضطربت به آراؤه وتقسّم فكره وتشوّش حاله . وعزم على أن يكتب فى تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه .وهو فى مثل هذا الحال، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وذلك فى ظهيرة نهار الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ [١٢ يوليو ١١٩١] .

وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين ، وانحصر كلام العقلاء من الناس فى تلاوة « إنا لله وإنا إليه راجعون » . وغشى الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع فى العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب . وكان لكل قلب حظ فى ذلك ، على قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيب من هذا الحظ على قدر ديانته ونخوته . وانفشت الحال على أنه استقرت تلك القاعدة بين أهل

البلد وبين الفرنج على ذلك الحال المتقدم ، وأن المركيس الملعون دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك ، وأخذ عوضه رهنا محمد بن باريك — رحمه الله — وكان شجاعا من شجعان الإسلام . فنصب المركيس علما على القلعة ، وعلما على مئذنة الجامع فى يوم الجمعة ، وعلما على برج الداوية ، وعلما على برج القتال ، عوضاً عن علم الإسلام . وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه .

ومثلتُ بخدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والولهة الحيرى . فسلّيته بما يتيسر من التسلية ، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر فى معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف ، وكيفية الحال فى ذلك ، وإعمال الفكر فى خلاص المسلمين المأسورين فى البلد ، وذلك فى ليلة السبت ١٨ منه . وانفصل الحال على أنه رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق غرض فى المضايقة . فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التى كان عليها أولا بشَفَرْعَم ، وأقام هو جريدة فى مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد . فانتقل الناس فى تلك الليلة إلى الصباح ، وأقام هو جريدة راجيا من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم وجهلهم بالخروج إليه والهجوم عليه ، فينال منهم غرضاً ، ويلقى نفسه عليهم ، ويعطى الله النصر لمن يشاء . فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه . فأقام — رحمه الله — إلى بكرة ١٩ من الشهر ، وانتقل بسحرة تلك الليلة إلى الثقل .

ذكر قتل المسلمين الذين بعكا
رحمة الله عليهم

ولما رأى الانكتار الملعون [ريتشارد] توقف السلطان فى بذل المال والأسارى والصليب ، غدر بأسارى المسلمين ، وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر ، أطلقهم بأموالهم وذراريهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسارى . فغدر بهم الملعون ، وأظهر ما كان أبطن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد . وركب هو وجميع عسكر الفرنجية راجلهم وفارسهم فى وقت العصر من يوم الثلاثاء ٢٧ من رجب سنة ٥٨٧ [٢٠ أغسطس] وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان والعياضية . وكان البزك الإسلامى قد تأخر إلى تل كيسان لما قدموا خيامهم إلى تحت تل العياضية . ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته فى ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم فى الحبال ، وأوثقوهم فى الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبراً طعنا وضربا بالسيف — رحمة الله عليهم — والبزك الإسلامى يشاهدهم ولا يعلم ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ؛ وكان البزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم . فأنفذ إلى البزك من قواه . وبعد أن فرغوا ، حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها قتل وجرح من الجانبين . ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين . وأصبح المسلمون يكشفون الحال ، فوجدوا المسلمين الشهداء فى مصارعهم ، وعرفوا

من عرفوه منهم . وغشى المسلمون بذلك حزن عظيم وكآبة عظيمة . ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدماً ، أو قوياً أيدا ، للعمل فى عمائرهم .

وذكر لقتلهم أسباب ، منها : أنهم قتلوهم فى مقابلة من قتل منهم. وقيل : إن الإنكتار كان عــزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يُخلِّف تلك العدة فى البلد وراءه . والله أعلم .

الفصل السادس

استغرقت مفاوضات الصلح – أو الهدنة – سنة كاملة . وقـد تخال الاتصالات الدبلوماسية المعقدة محاولات ريتشارد قلب الأسد عقد زيجة بين إحدى قريباته والملك العادل أخى صلاح الدين ، والمعاملات الدالة على الشهامة بينه وبينهما ، واستمرار العمليات العسكرية (عسقلان ويافا وأرسوف) التى ردّ صلاح الدين خلالها بالمثل على ما صنعه الفرنج بأسرى عكا . وأخيراً وقعت اتفاقية سبتمبر ١١٩٢ التى أقرت فى الواقع الوضع القائم . وقد قبلها صلاح الدين على غير هوى منه ، وتحت ضغط جيشه المتعب الذى أصاب الخلل نظامه . وكان على المسلمين أن ينتظروا قرنا آخر قبل أن يتمكنوا من طرد الفرنجة .

أما مصدرانا الأساسيان فيما يتعلق باتفاقية الصلح فهما ابن شداد والعماد الكاتب .

(١)

[حديث الصلح]

[من كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»
لبهاء الدين بن شداد ، الصفحات
١٩٣ – ١٩٤/١٩٥ – ١٩٦/١٩٩/٢٠٢ – ٢٠٤/٢٠٦/٢٣٤ – ٢٣٥]

ذكر دخول رسول الملك العادل إلى الإنكتار

ولما كان يوم الجمعة ٢٦ من رمضان سنة ٥٨٧ [١٧ أكتوبر ١١٩١]، كان اليَزَك للعادل ، فطلب الانكتار [ريتشارد] رسوله ، فأنفذ إليه الصنيعة ، وهو كاتبه ، وكان شابا حسنا . فوصل إليه وهو فى يازور ، فوصل إليه وقد خرج جمع كثير من الرجالة وانبثوا فى تلك الأرض . فاجتمع به وسير معه زمانا طويلا وحدثه فى معنى الصلح . وقال : [الانكتار] «لا أرجع عن كلام تحدثت به مع أخى وصديقى (يعنى الملك العادل» ، وذكر له كلاما

فعاد إلى الملك العادل وأخبره به ، وكتبه فى رقعة وأنفذها إلى السلطان . فوصلت قبيل العصر من اليوم المذكور ، وكان يتضمن : « إنك تسلم عليه ، وتقول له : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكلية . وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين . وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد . والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد . وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن . وأما الصليب فهو خشبة لامقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا . ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم » .

ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة من دولته ، واستشارهم فى جواب ذلك . والذى رآه السلطان — رحمه الله — فى جواب ذلك أن قال : « القدس لنا كما هو لكم . وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة . فلايتصور أن ننزل عنه ، ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهى أيضا لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت . وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما . وما فى أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به . وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولايجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هى أوفى منها » . وسار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

ذكر رسالة سيّر فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان يوم الأثنين ٢٩ من شهر رمضان [٢٠ أكتوبر] ، استدعانى الملك العادل فى صبيحته ، وأحضر جماعة من الأمراء : علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشارة ، وشرح لنا ما عاد به رسوله من الانكتار المخذول من الرسالة والكلام .

وذلك أنه ذكر أنه قد استقرت القاعدة على أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكتار (١) ، وكان قد استصحبها معه من صقلية ، فإنها كانت زوجة صاحبها وكان قد مات ، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية . فاستقرت القاعدة على أن يزوجها من الملك العادل ، وأن مستقر ملكهما يكون بالقدس الشريف ، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده ، من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك ، ويجعلها ملكة الساحل ، وأن السلطان يعطى الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ، ويجعله ملك الساحل ، ويكون ذلك مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع ، وأنه يسلم إليـه صليب الصلبوت ، وتكون القرايا للداوية والاسبتارية ، والحصون لهما ، وأسرانا يفك أسرهم ، وكذلك أساراهم ، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ، ويرحل ملك الانكتار طالباً بلاده في البحر ، وينفصل الأمر .

هكذا ذكر رسول الملك العادل له عن الملك . ولما عرف ذلك الملك العادل بنى عليه أنه استحضرنا عنده ، وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان ، قدّس الله روحه ، وجعلنى المتكلم فيها والجماعة يسمعون ، ويُعرض عليه هذا الحديث . فإن استصوبه ورآه مصلحة له وللمسلمين ، شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضى به . وإن أباه شهدنا عليـه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية وأنه هو الذى رأى إبطاله . فلما مثلنـا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتلوت عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين . فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة معتقداً أن الملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا ، وأن هذا منه هزو ومكر . فكررت عليه الرضى بذلك ثلاث مرات ، وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به . فلما تحققنا ذلك منه عدنا إلى الملك العادل ، فعرّفناه ما قال ، وعرّفه الجماعة أنى كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه وأنه أصرّ على الإذن في ذلك . واستقرت القاعدة عليه .

(١) هى جوانا أرملة وليليام الثانى صاحب صقلية .

ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس

ولما كان يوم الثلاثاء ١٥ شوال [٥ نوفبر] من السنة المذكورة ، وصل مَن أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور . وكان قد جرى بيننا وبينهم أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الفرنج ونصرتهم ، ويصيرون معنا عليهم ، بناء على فتنة كانت جرى للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخى الملك جى(١) وفسخ نكاحها بأمر اقتضاه دينهم واضطربت آراؤهم فيه . فخاف المركيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب من تحت الليل إلى صور ، وأخلد إلى السلطان والاعتضاد به ، وكان فى ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الفرنج ، فإنه كان من أشدهم بأساً ، وأعظمهم للحرب مراساً ، وأثبتهم فى التدبير أساساً . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان ، أمر بإجلاله واحترامه . فضُربت خيمة وضُرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله فى الثقل لبسة يح ، ثم يجتمع به .

ذكر حضور صاحب صيدا بين يدى السلطان
وأداء الرسالة والحديث الذى وصل فيه

ولما كان يوم السبت ١٩ شوال من السنة المذكورة [٩ نوفمبر] ، جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه . فحضر وحضر معه جماعة وَصَلُوا معه ، وكنت حاضراً المجلس . وأكرمه — رحمة الله عليه — إكراماً عظيماً ، وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة . ولما رُفع الطعام خَلِىَ بهم ، وكان حديثه فى أن السلطان

---

(١) فى الأصل : جفرى . والواقع أنها كانت أختا لزوجة جى ، لا جودفرى ، كما يسميه ابن شداد دائماً . وقد كانت إيزابيلا ، أخت الملكه سيبيلا ، قد تزوجت أولا من همفرى التورونى ، ثم أخذت منه وتزوجت من المركيز كونراد .

يصالح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الفرنجية ، منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين ،وقد سبقت قصته . وكان من شرط الصلح معه اظهار عداوته للفرنج البحرية . وكان سبب ذلك خوفه منهم ، وواقعــة وقعت له معهم بسبب الزوجة . وبذل له السلطان الموافقة على شروط ، قصد بها ، رحمة الله عليه ، الإيقاع بينهم، وأن ينفل بعضهم . فلما سمع السلطان رسالته ، وعــده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد ، وانصرف عنه فى ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول الانكتار

ولما كانت عشية ذلك اليوم ، وصل رسول ملك الانكتار ، وهو ابن الهنفرى ، وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ؛ وصل رسولا وفى صحبته شيخ كبير منهم ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة . فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته أن الملك يقول : « إنى أحب صداقتك ومودتك . وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك . فأريد أن تكون حكماً بينى وبينه . ولابد وأن يكون لنا علقة بالقدس الشريف . ومقصودى أن تقسم البلاد بحيث لايكون عليه لوم من المسلمين ، ولا علىّ لوم من الأفرنجية » . فأجابه فى الحال بوعد جميل ، ثم أذن لهم فى العود فى الحال ، وتأثروا بذلك تأثراً عظيماً . وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح ، فقالوا : « إن كان الصلح فعلى الجميع ، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء » . وكان غرضه — قدس الله روحه — أن يفسخ قاعدة الصلح ، فإنه التفت إلىّ فى آخر المجلس بعد انفصالهم وقال لى : « متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ، فإنى لو حدث لى حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج . والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » . هذا كان رأيه ، وإنما غُلب على الصلح ؛ قدس الله روحه .

ذكر مشورة ضربها فى التخيير بين الصلحين :
صلح الملك [رينشارد] و صلح المركيس صاحب صور

ولما كان يوم الأثنين ٢١ شوال [١١ نوفبر] ، جمع السلطان الأمراء والأكابر وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التى التمسها المركيس واستقر الأمر من جانبه عليها ، وهى أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الفرنج ، ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة . وذكر لهم ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح ، وهى أن يكون له من القرى الساحلية مواضع معينة ، ويكون لنا الجبليات بأسرها ، أو تكون القرى كلها مناصفة ، وعلى هذين القسمين يكون له قسوس فى بيع القدس الشريف وكنائسه . وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين . فشرح — قدس الله روحه — الحال فى القاعدتين للأمراء ، واستنبط آراءهم فى ترجيح إحدى الجانبين : الانكتار والمركيس ، وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك . فرأى أرباب الرأى أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مُصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم ، بعيدة ، صحته غير مأمونة الغائلة . وانفض الناس وبقى الحديث متردداً فى الصلح والرسل تتواصل فى تقرير قواعد الصلح . وأصل القاعدة : أن الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج ، وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والفرنجية لهما . فأما الفرنجية فلها من جانب أخيها ، والإسلامية للملك العادل من جانب السلطان . وكان آخر الرسائل من الملك فى المعنى أن قال : « إن معاشر دين النصرانية أنكروا علىّ وضع أختى تحت مسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه . وها أنا أسيّر إليه رسولا يعود فى ثلاثة أشهر . فإن أذن فيها ونعمت ، وإلا زوجتك إبنة أختى ، وما أحتاج فى إذنه فى ذلك (١) » .

---

(١) يذكر ابن شداد فى موضع آخر أن السبب هو أن أخت ريتشارد كانت أرملة ، بينما كانت ابنة أخته بكراً فلا تحتاج فى زواجها إلى إذن من البابا . والواقع أن كل هذه المشروعات تحطمت على صخرة اعتراض المسيحيين على زواج أيهما من مسلم .

هذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازب ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل فى الأحيان ، ويشرف على الفرنج وقتال المسلمين لهم . وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم . ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة ٢٥ شوال من السنة المذكورة .

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس، يلتمس الصلح مع المسلمين . فاشترط ، رحمة الله عليه ، شروطا ، منها : أن يقاتل جنسه ويباينهم . ومنها : أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية بعد الصلح بإنفراده تكون له ، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، وما نتفق نحن وهو على أخذه يكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين وغير ذلك من الأموال . ومنها : أن يطلق لنا كل أسير فى مملكته . ومنها : أنه إن فوّض إليه الانكتار أمر البلاد لأمر يجرى بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقرّ بيننا وبين الانكتار ، ما عدا عسقلان وما بعدها ، فإنه لا يدخل فى الصلح . فتكون الساحليات له ، وما فى أيدينا لنا ، وما فى الوسط يكون مناصفة . وسار رسوله على هذه القاعدة (١) .

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العَدْل [فى شعبان سنة ٥٨٨ / أواخر أغسطس ١١٩٢] إلى [يافا] أُنزل خارج البلد فى خيمة حتى أعلم الملك به . فلما علم استحضره عنده مع بقية الجماعة . وعرض عليه العدل النسخة (٢) ، وهو مريض

---

(١) حال اغتيال كونراد — كما سيجىء — دون إتمام هذا الاتفاق

(٢) أى نسخة المعاهدة .

الجسم . فقال : « لا طاقة لى بالوقوف عليها . وأنا قد صالحت ، وهذه يدى » . فاجتمعوا بالكندهرى (١) والجماعة ، ووافقوهم على النسخة ، ورضوا بلدّ والرملة مناصفة ، وبجميع ما فى النسخة . واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء ، لأنهم كانوا قــد أكلوا شيئاً يوم الثلاثاء ، وما عادتهم الحلف بعد الأكل . وأنفذ العــدل إلى السلطان من عرّفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء ٢٢ من شعبان [٢ سبتمبر] ، استحضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك . ثم حلف الجماعة ، فحلف الكندهرى ابن أخته المستخلف عنه فى الساحل ، وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية ، ورضى الاسبتار والداّوية وسائر مقدمى الأفرنجية بذلك . وساروا فى بقية اليوم عائدين إلى المخيم السلطانى ، فوصلوا عشاء الآخــرة . وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنفرى [همفرى] وابن بارزان وجماعة من مقدميهم ، فاحترموا وأكرموا ، وضرب لهم خيمة تليق بهم ، وحضر العدل وحكى ما جرى .

ولما كان صبيحة الخميس ٢٣ من شعبان ، حضر الرسل فى خدمة السلطان وأخذوا يده الكريمة ، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة . واقترحوا حلف جماعة : الملك العادل ، والملك الأفضل والملك الظاهر ، وعلى بن أحمد المشطوب ، وبدر الدين دلدرم ، والملك المنصور ، وكل مجاور لبلادهم ، كابن المقدم — صاحب شيزر — وغيرهم فوعدهم السلطان أن يُسيرّ معهم رسولا إلى الجماعة المجاورين ليحلفهم ، وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس ، وعلّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفوا لم يدخلوا فى الصلح . ثم أمر المنادى أن ينادى فى الوطاقات والأسواق : « ألا إن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل إلى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى

---

(١) هنرى ، ابن أخت ريتشارد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً .

بلادهم فليفعل » . وأشاع ، رحمة الله عليه ، أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم الحج فى ذلك المجلس ، وكنت حاضرا ذلك جميعه ، ووقع له ذلك . وأمر السلطان أن يسير مائة نقّاب لتخريب سور عسقلان (١) معهم أمير كبير ، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب فى السور ، خشية من استبقائه عامراً .

وكان يوماً مشهوداً ، غشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى . والله العليم أن الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لى ، رحمه الله ، فى بعض محاوراته فى الصلح : « أخاف أن أصالح وما أدرى أى شيء يكون منى (٢) فيقوى هذا العدو . وقد بقى لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد على رأس تلّه — يعنى حصنه — » . وقال : « لا أنزل ، ويهلك المسلمون » . فهذا كلامه ، وكان كما قال . لكنه رأى المصلحة فى الصلح اسآمة العسكر ، ومظاهرتهم بالمخالفة . وكان مصلحة فى علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح . فلو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات ، لكان الإسلام على خطر . فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له ، رحمة الله عليه .

(٢)

ذكر الهدنة العامة

من كتاب « الفتح القدسى » للعماد الكاتب الإصفهانى ، من صفحة ٦٠٣ — ٦٠٥

لما عرف ملك الانكتير أن العساكر قد اجتمع ، والخرق عليه قد اتسع وأن القدس قد امتنع ، وأن العذاب وقع ، خضع وخشع ، وقصر الطمع . علم أنه لا قبل له بمن أقبل ، ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل . فأظهر أنه

---

(١) أحد شروط المعاهدة .

(٢) يعنى احتمال وفاته ، وهى فكرة كانت كثيرا ما تراود ذهن صلاح الدين فى ذلك الوقت .

إن لم يهادن أقام واستقتل ، وللشر استقبل . وأنه عازم على العودة إلى بلاده ، لأمور مردها يعود إلى مراده . والبحر آن أن يمنع راكبه ، ويسم بالأمواج غواربه . «فإن هادنتم وطاوعتم تبعت هواى ، وإن حاربتم وعصيتم ألقيت ها هنا عصاى ، واستقرت نواى . وقد كلّ الفريقان ، ومل الرفيقان . وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان . ولا تغتروا بهـذه العساكر المجتمعة من الجهات ، فإن جمعها فى الشتاء إلى الشتات . ونحن إذا أقمنا على الشقاق والشقاء ، رمينا أنفسنا على البلاء . فأجيبوا رغبتى ، وأصيبوا محبتى .. وأودعونى العهد ودعونى ، وودعونى وودعونى » .

فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم فى الأمر ، وأظهرهم على السر . واستطلع ما عندهم من الرأى ، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى الغاى ، وقال لهم : « نحن بحمد الله فى قوة ، وفى ترقب نصرة مرجوة ، فأنصار نا المهاجرون إلينا ذوو دين وكرم ومروة . وقد ألفنا الجهاد ، وألفينا به المراد . والفطام عن المألوف صعب ، وما تصدع إلى اليوم بتأييد الله لنا شعب . ومالنا شغل ولا مغزى إلا الغزو ، وما نحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو . وإذا تركنا هذا العمل ، فما العمل ؟ . وإذا صرفنا عنهم الأمل ، ففيم الأمل ؟ وأخشى أن يأتيني فى حالة بطالتى — الأجل ، ومن ألف الحلية كيف يألفه العطل ؟ رأيى أن أخاف رأى الهدنة ورائى وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازى وإليه اعتزائى . وما أنا بطالب البطالة ، فأرغب عن استحالة هذه الحالة . وقد رزقت من هذا الشيء فأنا ألزمه ، ولى بتأييـــد الله من الأمر أجزمه وأحزمه » . فقالوا له : « الأمر على ما تذكره ، والتدبير ما تراه والرأى ما تدبره ، ولا يستمر إلا ما تمره من الأمر . ولا يستقر إلا ما تقرره ، وإن التوفيق معك فى كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره . غير أنك نظرت فى حق نفسك من عادة السعادة وإرادة العبادة ، واقتناء الفضيلة الراجحة ، والاعتناء بالوسيلة الناجحة . والأنف من العطلة ، والعزوف للعزلة . وإنك تجـــد من نفسك القوة

والاستمساك ، ويقيناك بعرفاك بالأمانىّ الإد اك . فانظر إلى أحوال البلاد فإنّها خربت وتشعثت ،والرعايا فإنها تعكّست و تعاشت. والأجناد فإنها نصبت ووووصبت ، والجياد فإنها عطلت وعطبت . وقدأعوزت العلوفات ، وعزت الأقوات ، و بعدت عنه العمارات ، وغلت الغلات. ولا جلب إلا من الديار المصرية ، مع ركوب الأخطار المهلكة فى البرية. وهذا الاجتماع مظنة التفريق ، ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق . فإن الموارد منقطعة ، والجواد ممتنعة . والمترب قد ترب ، والمعدم قد عطب . والتبن أعز من التبر، والشعير لبته وجد وإن كان غالى السعر. وهؤلاء الفرنج إن يئسوا من الهدنة ، بذلوا وسعهم فى استفراغ المكنة واستنفاد المنّة . وصبروا على المنية فى طريق الأمنية . وأبوا فى الإقبال على دينهم قبول الدنية . والصواب أن نقبل من الله الآية التى أنزلها ، وهى قوله ، (وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها) . وحينئذ تعود إلى البلاد سكانها وعمارها، وتكثر فى مدة الهدنة غلاتها وأثمارها . وتستجد الأجناد عدتها ، وتستريح زمان السلم ومدتها . فإذا عادت أيام الحرب عدنا ، وقد استظهرنا وزدنا . ووجدنا القوت والعلف ، وعدمنا المشاق والكلف . ففى أيام السلم نستعد للحرب ، ونستجد أدوات الطعن والضرب. وليس ذلك تركا للعبادة، وإنما هو للاستجداء والاستجداد والاستجادة . على أن الفرنج لا يفون ، وعلى عهدهم لا يقفون. فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا ، وقد شقوا بما لقوا . وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة » .

وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضى ، وأجاب إلى ما اقتضى . وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحدة ، والعجاجات (١) على الطلائع متعاقدة . فلو رحلنا رحلناهم ، وعلى الهلك أحلناهم . لكن مراد الله غلب ، وأجيب ملك الانكتير من الصلح إلى ما طلب .

---

(١) العجاجات : الإغارات .

فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها . وعينت مدتها وبينت قضيتها . وذلك فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ، (١) الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر. وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر . وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر ، والسهل والوعر ، والبدو والحضر. وجعل له من يافا إلى قيسارية إلى عكاء إلى صور ، وأبدوا بما تركوه من البلاد التى كانت معهم الغبطة والسرور . وأدخلوا فى الصلح طرابلس وأنطاكية ، والأعمال الدانية والنائية.

(١) أول سبتمبر ١١٩٢ .

الفصل السّابع

لم يعش المركيز كونراد حتى يرى هذا الصلح ، ولانال المُلك الذى كان يشتهيه . وهناك بعض الخلاف بين المؤرخين المسلمين حول هوية من أرسل القتلة الذين اغتالوه فى صور فى أبريل سنة ١١٩٢ . فابن شداد والعماد الكاتب واثقان من أن ريتشارد هو الذى أرسل من يقتله ؛ بينما يوحى ماكتبه ابن الأثير بأن صلاح الدين كان يريد قتل كونراد وريتشارد معاً . وهو إيحاء لايتفق مع ما عبرّ عنه العماد من استنكار المسلمين لهذا الاغتيال

(١)

هلاك المركيس بصور

[من كتاب « الفتح القدسى » للعماد الكاتب الأصفهانى ،

ص ٥٨٩ــ ٥٩٠]

أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر [٥٨٨/٢٨ أبريل ١١٩٢] ، فاستوفى رزقه لموافاة أجله ، ووصل إلى الباب قاطع أمله . وقد دعى إلى جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه . والجحيم فى ترقبه ، والدرك الأسفل من النار فى تلهبه . والسعير فى تسعره ، ولظى فى تاظيها لتنظره . وقد قرب أن تكون الهاوية له حاوية ، والحامية عليه حامية ، والزبانية فى إيقاع العذاب به لمنزل الزجر بانية . وقد فتحت النار له أبوابها السبعة ، وهى جائعة إلى التهامه وهو مُلْتَهٍ بالأكل يستوفى الشِّبعة .

فأكل وتغدى ، وما درى أنه يتردى . وأكل وشرب ، وشبع وطرب وخرج وركب . فوثب عليه رجلان ، بل ذئبان أمعطان . وسكنا حركته

بالسكاكين ، وذكاه عند تلك الذكاكين . وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج النفس الخسيسة . وقال المركيس وهو مجروح ، وفيه بقية روح « إحملونى إلى الكنيسة » فحملوه ، وظنوا أنهم حاطوه لما نقاوه . فلما أبصره أحد الخارجين ، وثب إليه للحين . وزاده جرحاً على جرح ، وقرحاً على قرح . فأخذ الفرنج الرفيقين ، فألفوهما من الفداثية الإسماعيلية مرتدين . فسألوهما : « من وضعكما على تدبير هذا التدمير ؟ » فقالا : « ملك الانكتير » . وذكر عنهما أنهما تنصرا منذ ستة أشهر ، ودخلا فى ترهب وتطهر . ولزما البيعَ ، والتزما الورع . وخدم أحدهما ابن بارزان ، والآخر صاحب صيداء لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهما أسباب التأنيس . ثم علقا بركابه ، وفتكا به . فقتلا شر قتلة ، وجهل عليهما أشد جهلة .

فيالله من كافرين سفكاً دم كافر ، وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركّساً(١) ، وفى جهنم منكباً منكساً ، تحكم ملك الانكتير فى صور ، وولاها الكندهرى(٢) وعلق(٣) به الأمور . ودخل بالملكة زوجة المركيس فى ليلته(٤) ، وادعى أنه أحق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها ، وذلك أفظع من سفاحها . فقالت لبعض رساهم : « إلى من ينسب الولد ؟ » فقال : « يكون ولد الملكة » . فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركة .

ولم يعجبنا قتل المركيس فى هذه الحالة ، وإن كان من طواغيت الضلالة . لأنه كان عدو ملك الإنكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ،

---

(١) الركس : رد الشيء مقلوباً ، وقلب أوله على آخره .
(٢) الكونت هارى ، أو هنرى ، ابن أخت ريتشارد .
(٣) اختص به الأمور .
(٤) أصبح هنرى حاكم صور وتزوج من إيزابيلا فى نفس الليلة .

ومنافسه فى القليل والكثير . وهو يراسلنا حتّى نساعده عليه ، وننزع ما أخذه من يده . وكلما سمع ملك الانكتير أن رسول المركيس عند السلطان مال إلى المراسلة بالاستكانة والإذعان . وأعاد الحديث فى قرار الصلح ، وطمع فى ليل ضلاله بإسفار الصبح . فلما قتل المركيس سكن رُوعه ورَوْعه ، وذهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، وآب لبه ، واستوى أمره ، واستشرى شره . وكان قد تعصب لمضادة المركيس الملك العتيق [جى] ، فأظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرص وأعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيش عرف أنه قد أخطأ فى تقويته ، وخشى أنه لايسلم من عاديته ، ولا يأمن من غاثاته . فلما عدم عدوه ، وجد هدوه ، وآب سكونه ، وثاب جنونه ، وغاض غيظه ، وحضه حظّه ، وفاض من منبع الشرك فظه . ومع هذا لم يقطع محادثته ، ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ، ورمى سهم مخادعته ومخاتلته .

(٢)

ذكر قتل المركيس ومُلك الكندهرى

[من كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ،
الجزء الثانى عشر ، ص ٧٨ ، ٧٩]

فى هذه السنة ، فى ١٣ ربيع الآخر ، قتل المركيس الفرنجى ، لعنه الله ، صاحب صور ، وهو أكبر شياطين الفرنج .

وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الإسماعيلية بالشام ، وهو سنان ، وبذل له أن يرسل من يقتل ملك إنكلتار ، وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار . فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار ، ولم يراه سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرّغ لهم . وشَرِه فى أخذ المال ، فعدل إلى قتل المركيس . فأرسل رجلين فى زى الرهبان ، واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب الرملة ، وكانا مع المركيس بصور .

فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة . فأنس بهما المركيس ووثق بهما . فلما كان بعد التاريخ ، عمل الأسقف بصور دعوة للمركيس . فحضرها ، وأكل طعامه ، وشرب مُدامه ، وخرج من عنده . فوثب عليه الباطنيان المذكوران ، فجرحاه جراحاً وثيقة ، وهرب أحدهما ، ودخل كنيسة يختفي فيها . فاتفق أن المركيس حُمل إليها ليشدّ جراحه . فوثب عليه ذلك الباطني فقتله . وقُتل الباطنيان بعده .

ونسب الفرنج قتله إلى وضْع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى . فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج ، من داخل البحر يقال له الكندهرى ، وتزوج بالملكة فى ليلته ودخل بها وهى حامل . وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح .

وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك إنكلتار من أمه . وملك كندهرى هذا بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار ، وعاش إلى سنة ٥٩٤ (١١٩٧) ، فسقط من سطح فمات . وكان عاقلا كثير المدارة والاحتمال .

ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل كندهرى هذا إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعة . وقال : « أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب ، وأنا ألبسهما منك محبة لك » . فأنفذ إليه خلعة سنية من القباء والشربوش ، فلبسهما بعكا .

الفصل الثامن

مرض صلاح الدين وتوفى بعد إبرام الصلح بفترة وجيزة .
وقد وصف ابن شداد الأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين
وصفاً مفصلا يشع إعجابا مخلصاً بصديقه ، وإدراكاً عميقاً
لسجاياه التى جلبت له احترام الشرق والغرب معاً

ذكر مرضه ووفاته رحمة الله عليه

[من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لبهاء الدين
ابن شداد ، من صفحة ٢٤٣ — ٢٤٧]

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما . فما نصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت فى باطنه أكثر منها فى ظاهره . وأصبح فى يوم السبت ١٦ صفر سنة ٥٨٩ [٢١ فبراير ١١٩٣] متكسلا عليه أثر الحمى . ولم يُظهر ذلك للناس ، لكن حضرتُ عنده أنا والقاضى الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل . وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل . وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة ولده الملك الأفضل . ولم يكن للقاضى عادة بذلك ، فانصرف . ودخلت إلى الإيوان القبلى وقد مُدّ الطعام ، وولده الملك الأفضل قد جلس فى موضعه . فانصرفتُ ولم يكن لى قوة للجلوس ، استيحاشا . وبكى فى ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه .

ثم أخذ المرض فى تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد فى طرفى النهار ، وندخل إليه أنا والقاضى الفاضل فى النهار مراراً ، ويُعطى

الطريق بعض الأيام التى يجد فيها خفة . وكان مرضه فى رأسه . وكان من إمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذى كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً . ورأى الأطباء فصده ففصدوه فى الرابع فاشتد مرضه ، وقلّت رطوبات بدنه ، وكان يغلبه اليبس غلبة عظيمة . ولم يزل المرض فى تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف .

ولقد أجلسناه فى السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب ملين للطبع . فشربه فوجده شديد الحرارة فشكى من شدة حره ، فغيّر وعُرض عليه ثانيا ، فشكى من برده ، ولم يغضب ، ولم يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : « سبحان الله ، لا يمكن أحد تعديل الماء » . فخرجنا أنا والقاضى الفاضل يقول لى : « ابصر هذه الأخلاق التى أشرف المسلمون على مفارقتها . والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره » .

واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن ، ولم يزل متزايداً ، وتغيب ذهنه . ولما كان التاسع حدثت به رعشة ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الرجف فى البلد وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق (١) . وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقعد فى كل ليلة إلى أن يمضى من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر فى باب الدار ، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا ، وإلا تعرفنا أحواله وانصرفنا . وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى تقرأ أحواله من صفحات وجوهنا . ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة ، وحصل بعض الخف ، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً . وفرح الناس فرحاً شديداً . فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع . ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا . فالتمسنا منه

---

(١) كثيراً ما كان يعقب وفاة الحاكم فى ذلك العصر حوادث النهب والشغب .

تعريف الحال المتجددة . فدخل ثم أنفذ إلينـــا مع الملك المعظم تورانشاه يقول : « إن العرق قد أخذ فى ساقيه » . فشكرنا الله تعالى على ذلك . والتمسنا منه أن يمس بقية بدنه ، ويخبرنا بحاله فى العرق . فافتقده ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابغ . فشكرنا الله تعالى على ذلك وانصرفنا طيبة قلوبنا . ثم أصبحنا فى الحـــادى عشر من مرضه ، وهو يوم الثلاثاء ٢٦ من صفر حضرنا بالباب ، وسألنا عن الأحوال . فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ فى الفرش ثم فى الحُصْر ، وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيما ، وخارت القوة واستشعر الأطباء .

ذكر تحليف الملك الأفضل الناس

ولمـــا رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده ، وتحقق اليأس منه ، شرع فى تحليف الناس ، وجلس فى دار رضوان المعروفـــة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته . واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون ، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جارى عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة ، فبادر إلى اليمـــين من غير تشرّط . ثم استحضر ناصر الدين — صاحب صهيون — فحلف ، وزاد أن الحصن الذى فى يده له . وحضر سابق الدين — صاحب شيزر — فحلف ، ولم يذكر الطلاق (١) ، واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشترين الهكّارى وحلف . وحضر نوشروان الزرزارى وحلف واشترط أن يكون له خبز يُرضيه . وحضر علكّان ومنكلان وحلفا . ثم مدّ الخوان ، وحضر الجماعة وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأحضر ميمون القصرى وشمس الدين سنقر الكبير وقالا : « نحن نحلف بشرط أن لانسلّ فى وجه أحد من إخوتك سيفا ، لكن رأسى دون بلادك » —

(١) جرت العادة فى التحليف الحلف بطلاق الزوجة عند النكث بالعهد .

هذا قول ميمون . وأما سُنقر فإنه امتنع ساعة ثم قال : «كنت حلفتني على النطرون يمينا وأنا عليها» . وحصر سامة وقال : «ليس لى خبز ، فعلى أى شيء أحلف ؟» . فروجع فحلف ، وعلّق يمينه بشرط أن يُعطى خبزاً يرضيه . وحضر سنقر المشطوب وحلف ، واشترط أن يُرضَى . وحضر إليكى الفارسى وحلف . وحضر أيبك الأفطس وحلف واشترط رضاه ، ولم يحلف بالطلاق . وحضر أخو سياروخ وحلف واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف ، وكان مقدماً على هؤلاء . ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم (١) . بل حلف هؤلاء النفر ، وربما شذّ منهم غير معروف . ونسخة اليمين المحلوف بها وفصولها : الفصل الأول : إننى من وقتى هـذا أصفيت نيّتى ، وأخلصت طويّتى للملك الناصر مدة حياته . وإننى لا أزال باذلا جهدى فى الذب عن دولته بنفسى ومالى وسيفى ورجالى ، ممتثلا أمره ، واقفا عند مراضيه . ثم من بعده لولده الملك الأفضل علىّ ، ووالله إننى فى طاعته ، وأذبّ عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى ، وأمتثل أمره ونهيه ، وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء . والله على ما أقول وكيل» . ثم فصل التخريج . هـذه نسخة اليمين المحلوف بها ، أعنى مقاصدها .

ذكر وفاته رحمة الله عليه

وقدّس الله روحه وأحسن خلفه للمسلمين

ولما كانت ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ ، وهى الليلة الثانية عشرة من مرضه — رحمة الله عليه ، اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع فى أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء . واستحضرتُ أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة وابن الزكى ، ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت . وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير

(١) كانت السيادة المباشرة للملك الأفضل — باعتباره وريثاً لصلاح الدين — على الشام وحده . ﴿

القاضى الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضا . فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر إمام الكلاّسة ، وهو رجل صالح ، يبيت فى القلعة ، حتى إن احتضر — رحمة الله عليه — بالليل ، حضر عنده ، وحال بينه وبين النساء ، وذكّره بالشهادة وذكر الله تعالى . ففعل، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه . وبات فى تلك الليلة — رحمة الله عليه — على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره بالله تعالى . وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع ، لايكاد يفيق إلا فى الأحيان . وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة » ، سمعه وهو يقول : « صحيح » . وهذه يقظة فى وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به ، فلله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته — رحمة الله عليه — بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ [٤ مارس ١١٩٣] . وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته . ووصلتُ وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته . ولقد حُكى لى أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : لا إله إلا هو عليه توكلت » ، تبسّم وتهلل وجهه وسلّمها إلى ربه .

وكان يوما لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقِد الخلفاء الراشدون . وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم، وما سمعتُ هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم . فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قُبل الفداء لفُدى بالنفس . ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء فى الإيوان

الشمالي ، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين . وكان يوما عظيما تمد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره . وحُفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أويتكلم فيه فاضل أو واعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس : فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم . ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه . فما مكّنا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتّى في ثمن التبن الذى يُلَتّ به الطين . وغسّله الدوَلَعي الفقيه ،وندبتُ إلى الوقوف على غسله ، فلم يكن لى قوة تحمل ذلك المنظر . وأخرج بعد صلاة الظهر — رحمة الله عليه — في تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وَجْه حِلٍّ عرفه .

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج ، حتّى إن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا . وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة وصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أمّ بالناس القاضي محي الدين ابن الزكي . ثم أعيد — رحمة الله عليه — إلى الدار التي في البستان ، وكان متمرضا بها ودُفن في الصُّفَّة الغربية منها . وكان نزوله في حضرته — قدّس الله روحه ونوّر ضريحه — قريباً من صلاة العصر .

الجزء الثالث

الأيوبيون وغزو مصر

الفصل الأول

حيث أن الحملة الصليبية الرابعة (سنة ١٢٠٣) كانت موجهة أساساً إلى القسطنطينية ، فقد ظل العالم الإسلامى فى حال من الهدنة دامت خمسة عشر عاما ، مكّنت الملك العادل من توحيد مملكة أخيه صلاح الدين تحت سلطانه ، ومن أن يكوّن من الإمارات الإيوبية امبراطورية تمتد من مصر إلى العراق .

أما الحملة الصليبية الخامسة فقد اتجهت إلى مصر نفسها باعتبارها قلب المقاومة الإسلامية ، وذلك فى الوقت الذى ظهر فيه خطر المغول فى المشرق . وقد كان ابن الأثير مدركا لذلك الخطر المزدوج على الإسلام حين تعرض لوصف الغزو المغولى وللحملة الصليبية الخامسة على مصر (١٢١٧ — ١٢٢١) . وسنقتطف فيما يلى — بالإضافة إلى رواية ابن الأثير — صفحات من كتاب «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لابن واصل ، وهو مؤرخ أيوبى لم يُلتفت إلى نشر كتابه إلا مؤخراً

(١)

[الحملة الصليبية الخامسة]

[من كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير الجزء الثانى عشر ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ / ٣٢٣ — ٣٣١]

كان من أول هـــذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر . وإنما ذكرناها ها هنا [سنة ٦١٤ هـ — ١٢١٧ م] لأن ظهورهم كان فيها ، وسُقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا . فنقول : فى هذه السنة وصلت

أمداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال . إلا أن المتولىّ لها كان صاحب رومية [البابا] لأنه يتنزّل عند الفرنج بمنزلة عظيمة ، لايرون مخالفة أمره ، ولا العدول عن حكمه فيما سرّهم وساءهم . فجهّز العساكر من عنده مع جماعة من مقدّمى الفرنج ، وأمر غيره من ملوك الفرنج إما أن يسير بنفسه ، أو يرسل جيشاً . ففعلوا ما أمــرهم ، فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام (١) .

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطّور (٢) ، أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ٦١٥ ، فساروا فى البحر إلى دمياط فوصلوا فى صفر [مايو ١٢١٨] ، فأرسوا على برّ الجيزة بينهم وبين دمياط النيل . فإن بعض النيل يصب فى البحر المالح عند دمياط . وقد بنى فى النيل برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ، ومدّوها فى النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر . ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصى ديار مصر وأدانيها .

فلما نزل الفرنج على بر الجيزة ، وبينهم وبين دمياط النيل ، بنوا عليه سورا ، وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم . وشرعوا فى قتال من بدمياط ، وعملوا آلات ومرَمّات ، وأبراجاً يزحفون بها فى المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه . وكان البرج مشحونا بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل ، وهو صاحب ديار مصر ، بمنزلة تُعرف بالعادلية ، بالقرب من دمياط ، والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها .

(١) كان من بين هؤلاء الملوك : جون ملك برين« Brienne »وأندرو ملك المجر ، وهيو ملك قبرص .

(٢) قلعة المسلمين قرب عكا .

وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منه بشيء ، وكُسِّرت مرمّاتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله . فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه . فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر . فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل . ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالا شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه . فلما قطع ، أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرّقها وغرّقها فى النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه .

فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يُعرف بالأزرق : كان النيل يجرى فيه قديماً . فحفروا ذلك الخليج : وعمّقوه فوق المراكب التى جُعلت فى النيل ، وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح ، وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة ، على أرض الجيزة أيضاً مقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ، ليقاتلوه من هناك ، فإنهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها ؛ كانت دمياط تحجز بينهم وبينه . فلما صاروا فى بورة حاذوه فقاتلوه فى الماء ،وزحفوا غير مرة ،فلم يظفروا بطائل . ولم يتغير على أهل دمياط شيء لأن الميرة والأمداد متصلة بهم ، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج ، فهم ممتنعون لا يصل إليهم أذى ، وأبوابها مفتحة ، وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر .

فاتفق – كما يريد الله عز وجل – أن الملك العادل توفى فى جمادى الآخرة من سنة ٦١٥ [أغسطس ١٢١٨] ، على ما نذكره إن شاء الله . فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة ، وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه ، والأمر إليه ، وهو ملكهم البلاد . فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو . وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب ، وهو من الأكراد

الهكّارية ، وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كبير ، وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه لا سيما الأكراد . فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء ، وأرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد . فبلغ الخبر إلى الكامل ، ففارق المنزلة ليلا جريدة ،وسار إلى قرية يقال لها أشموم طنّاح ، فنزل عندها . وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم ، فركب كل إنسان منهم هواه ، ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذى يخف حمله ، وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ، ولحقوا بالكامل .

وأما الفرنج فإنهم أصبحوا من الغد فلم يروا من المسلمين أحداً على شاطيء النيل كجارى عادتهم . فبقوا لا يدرون ما الخبر . وإذقد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته ، فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع . وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة ٦١٥ [٨ فبراير ١٢١٩] ، فغنموا ما فى معسكر المسلمين ، فكان عظيماً يُعجز العادّين .

وكاد الملك الكامل يفارق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره . وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة . فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل [صاحب دمشق] وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين ، والناس فى أمر مريج . فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه ، وأقام بمنزلته . وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام ، فاتّصل بالملك الأشرف وصار من جنده .

فلما عبر الفرنج إلى أرض دمياط ، اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا ،

وبالغوا فى الإفساد ، فكانوا أشدّ على المسلمين من الفرنج . وكان أضرّ شىء على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد ، لأن السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها ، فأتتهم هذه الحركة بغتة ، فلم يدخلها أحد من العسكر . وكان ذلك من فعل ابن المشطوب ، لا جَرَم لم يمهله الله ، وأخذه أخذة رابية ، على ما نذكره إن شاء الله .

وأحاط الفرنج بدمياط ، وقاتلوها برا وبحرا ، وعملوا عليها خندقا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين ، وهذه كانت عادتهم . وأداموا القتال واشتدّ الأمر على أهلها ، وتعذّرت عليهم الأقوات وغيرها ، وسئموا القتال وملازمته ، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة . ومع هذا فقد صبروا صبراً لم يُسمع بمثله ، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض . ودام الحصار عليهم إلى ٢٧ من شعبان سنة ٦١٦ [٨ نوفمبر ١٢١٩] ، فعجز مَن بقى من أهلها عن الحفظ لقلّتهم ، وتعذّر القوت عندهم : فسلّموا البلد إلى الفرنج فى هذا التاريخ بالأمان . فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة ، فتفرّقوا أيدى سبا .

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها ، وبثّوا سراياهم فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون ، فجلا أهلها عنها . وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى إنها بقيت لا ترام .

وأما الملك الكامل فإنه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها منهم.

ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا إليهم يهرعون من كل فج عميق ، وأصبحت دار هجرتهم . وعاد الملك المعظم

صاحب دمشق إلى الشام فخرّب البيت المقدس . وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج ، وأشرف الإسلام وجميع أهله وبلاده على خطّة خسف فى شرق الأرض وغربها : أقبل التتر من المشرق حتّى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وأرّان وغيرها ، على ما نذكره إن شاء الله ، وأقبل الفرنج من المغرب فلكوا مثل دمياط فى الديار المصرية ، مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء . وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تُملك ، وخافهم الناس كافة ، وصاروا يتوقعون البلاء صباحاً ومساء .

وأراد أهل مصرِ الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدوّ ، « ولات حين مناص » ، والعدو قد أحاط بهم من كل جانب . ولو مكّنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها ، وإنما مُنعوا منه فثبتوا .

وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق ، والملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما ، يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما ، فإن لم يكن فيرسلان العساكر إليه . فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه بحران فرآه مشغولا عن إنجادهم بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه ، وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه . (ونحن نذكر ذلك سنة ٦١٥ إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر ، صاحب الموصل ، فليُطلب من هناك) . فعذره وعاد عنه ، وبقى الأمر كذلك مع الفرنج .

فأما الملك الأشرف فزال الخُلف من بلاده ، ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه ؛ واستقامت له الأمور إلى سنة ٦١٨ ، والملك الكامل مقابل الفرنج . فلما دخلت سنة ٦١٨ علم بزوال مانع الملك الأشرف عن إنجاده، فأرسل يستنجده وأخاه ، صاحب دمشق . فسار صاحب دمشق المعظم إلى الأشرف يحثه على المسير ، ففعل . وسار إلى دمشق فيمن معه من

العساكر ، وأمر الباقين باللحاق به إلى دمشق،وأقام بها ينتظرهم . فأشار عليه بعض أمرائه وخواصه بإنفاذ العساكر والعود إلى بلاده خوفا من اختلاف يحدث بعده . فلم يقبل قولهم وقال : « قد خرجتُ للجهاد ، ولابد من إتمام ذلك العزم » ، فسار إلى مصر .

وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط فى الفارس والراجل ، وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله ، بينهما خليج من النيل يسمى بحر أشموم ، وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين ، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية . وأما الأشرف فإنه سار حتى وصل مصر . فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه إليه فلقيه واستبشر هو وسائر المسلمين باجتماعهما ، لعل الله يحدث بذلك نصراً وظفراً . وأما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه سار أيضاً إلى ديار مصر ، وقصد دمياط ظنا منه أن أخويه وعسكريهما قد نازلوها ، وقيل بل أخبر فى الطريق أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط ، فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم ، وأخواه من خلفهم ، والله أعلم .

ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يُعرف ببحر المحلة ، فتقدموا إليه ،فقاتلوا الفرنج وازدادوا قرباً . وتقدمت شوانى المسلمين من النيل ، وقاتلوا شوانى الفرنج ، فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح . ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم .

هذا يجرى والرسل مترددة بينهم فى تقرير قاعدة الصلح . وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجَبَلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل ، وقد تقدم ذكره ،

ماعدا الكَرَك ، ليُسلّموا دمياط . فلم يرضوا ،وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها . فلم يتم بينهم أمر ، وقالوا : « لا بد من الكرك » .

فبينما الأمر فى هذا ، وهم يمتنعون ، اضطر المسلمون إلى قتالهم . وكان الفرنج لاعتدادهم بنفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ، ظنامنهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم ، وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم ، يأخذون منه ما أرادوا من الميرة ، لأمر يريده الله تعالى بهم . فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنج ، ففجّروا النيل ، فركب الماء أكثر تلك الأرض ، ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق . فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشموم ، وعبرت العساكر عليها ، فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط ، فلم يبق لهم خلاص .

واتفق فى تلك الحال أن وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب ، يسمّى مَرَمّة ، وحوله عدة حرّاقات تحميه ، والجميع مملوءة من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه . فوقع عليها شوانى المسلمين وقاتلوهم ، فظفروا بالمرمّة وبما معها من الحراقات وأخذوها . فلما رأى الفرنج ذلك سُقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلّوا الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونها .

هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ، ويحملون على أطرافهم . فلما أشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم ، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط . فرأوا ما أمّلوه بعيداً ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ، والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون .

فلما تيقّنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها؛ وأن المنايا قد كشّرت لهم عن أنيابها، ذلّت نفوسهم، وتكسّرت صلبانهم، وضلّ عنهم شيطانهم. فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض. فبينما المراسلات مترددة، إذ أقبل جمع كبير، لهم رهج شديد وجلبة عظيمة، من جهة دمياط. فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج، فاستشعروا، وإذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل إليهم، وكان قد جعل طريقه على دمياط، لما ذكرناه. فاشتدت ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلانا ووهنا. وتمموا الصلح على تسليم دمياط، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ٦١٨ [٢٧ أغطس ١٢٢١]. وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط: ملك عكا، ونائب بابا صاحب رومية، وكندريش (١) وغيرهم، وعدتهم عشرون ملكا. وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في التسليم، فلم يمتنع من بها، وسلموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور، وكان يوما مشهودا. ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها، وصلت للفرنج نجدة في البحر. فلو سبقوا المسلمين إليها لا متنعوا من تسليمها، ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ولم يبق بها من أهلها إلا آحاد، وتفرقوا أيدى سبا، بعضهم سار عنها باختياره، وبعضهم مات، وبعضهم أخذه الفرنج.

ولما دخلها المسلمون رأوها وقد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل إليها. وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه، ورده إلى أربابه، وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم. فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها. فالله المحمود المشكور على

---

(١) لودفيج دوق بافاريا.

ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم شرّ التتر على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(٢)

ذكر فتح دمياط والنصرة على الفرنج

[من كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب »
لابن واصل ، الجزء الرابع ، من صفحة ٩٧ — ١٠٠]

راسل [الفرنج] السلطان الملك الكامل وأخويه الملك الأشرف والملك المعظم يطلبون منهم الأمان لأنفسهم ليسلموا إليهم دمياط من غير عوض . فاستشار السلطان الملك الكامل ملوك أهل بيته فى ذلك ، فأشار بعضهم بأن لا يؤمنهم ، ويأخذهم أخذاً باليد ، فإنهم قد صاروا فى قبضته ، وهم جمهور أهل الشرك ، وأنه إذا فعل ذلك أخذ منهم دمياط وجميع ما بقى لهم من البلاد الساحلية . فلم ير السلطان الملك الكامل ذلك مصلحة وقال : « إن هؤلاء ليسوا جميع الفرنج ، وإذا أبدناهم لا نقدر على أخذ دمياط إلا بمطاولة وحروب كثيرة مدة ، ويسمع ملوك ماوراء البحر من الفرنج وباباهم بما يجرى على الفرنج ، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء ، وتعود للحرب خدعة ، وقد ضجرت العساكر من الحرب وكلّت » .

وكانت مدة مقام الفرنج بالديار المصرية ثلاث سنين وشهوراً ، فاتفق رأى الكل على بذل الأمان لهم ، وتسلم دمياط منهم . فأجيبوا إلى ما طلبوا على أن يأخذ منهم السلطان الملك الكامل ملوكهم رهائن إلى أن يسلموا دمياط ، وطلبوا هم أن يأخذوا ولد السلطان وجماعة من خواصه رهائن إلى أن يرجع ملوكهم إليهم . فتقررت القاعدة على ذلك والأيمان سابع رجب من هذه السنة [٦١٨/١٢٢١] . وكانت رهائن الفرنج : ملك عكا ،

والكاف نائب البابا صاحب رومية الكبرى ، وكندريس(١) ، وغيرهؤلاء من الملوك تتمة عشرين ملكا . وكانت رهائن السلطان الملك الكامل ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب(٢) . وجماعة من خواصه . وكان عمر الملك الصالح يومئذ خمس عشرة سنة ، لأن مولده سنة ٦٠٣ . ولما قدم هؤلاء الملوك إلى السلطان الملك الكامل جلس لهم مجلسا عظيما . ووقف بين الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم ، ورأى الفرنج من عظمته وناموسه ماهالهم ....

[وعندما سلمت دمياط] رجعت رهائن الفرنج إليهم ورهائن المسلمين إليهم . وولاها السلطان الأمير شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى ، وكان رجلا خيراً شهما . وكان للفرنج بدمياط لما وقع الصلح صوارٍ عظام جدا ، فأرادوا أخذها وحملها معهم إلى بلادهم ، فمنعهم من ذلك شجاع الدين ، فبعثوا إلى الساطان الملك الكامل يشكونه ويقولون : « إن هذه الصوارى لنا ، وإن مقتضى الصلح أن تردّ إلينا » . فكتب الملك الكامل إلى شجاع الدين يأمره أن يرد الصوارى إليهم . فأصرّ على الامتناع وقال : « إن الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه ، وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم ، فيأمرهم السلطان أن يردوا إلينا المنبر لنردّ عليهم الصوارى » . فكتب السلطان إليهم ، وذكر لهم ما ذكره شجاع الدين ، فعجزوا عن رد المنبر ، وأعرضوا عن ذكر الصوارى .

---

(١) لودفيج دوق باڤاريا .

(٢) حكم مصر ما بين عام ١٢٤٠ وعام ١٢٤٩ م .

الفصل الثانى

قام فردريك الثانى – أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة من أسرة هوهنشتاوفن – بحملة صليبية لم ترق فيها الدماء، كان القصد منها مساعدة الملك الكامل الأيوبى ضد أخيه الملك المعظم صاحب دمشق. وقد خلّف المؤرخون المسلمون روايات طريفة عن هذه الحقبة، منهم سبط ابن الجوزى الذى شهد تسليم القدس للامبراطور واستنكره، وابن واصل الذى أرسله الظاهر بيبرس رسولا إلى منفرد بن فردريك فى إيطاليا، وتحدث عن ميل أسرة هوهنشتاوفن للاســلام فيما يتعلق بالأمور السياسية، واستخفافها بالدين، ومعاداتها للبابا. وقد حفظ لنا أبو الفضائل الحموى نص خطابين كتبهما فردريك باللغة العربية بعيد عودته إلى إيطاليا، إلى صديق له بالبلاط الأاوبى. وينم الخطابان عن عداء مرير للبابا كانت تنضح به كافة تصريحات هــذا الإمبراطور.

(١)

ذكر قدوم الأنبرطور فردريك(١) ملك الفرنج إلى عكا

من كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل، الجزء الرابع، ص ٢٣٣ – ٢٥٣

فى هذه السنة (١٢٢٨/٦٢٥) قدم الأنبرطور إلى عكا فى جموع كثيرة من الألمانية وغيرها من الفرنج. وقد ذكرنا مسير الأمير فخر الدين

(١) فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١١٩٤ – ١٢٥٠ م).

ابن شيخ الشيوخ إلى الأنبرطور من جهة السلطان الملك الكامل ، وكان ذلك فى آخر أيام الملك المعظم . وإنما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الأنبرطور واستدعائه لإشغال سر الملك المعظم (١) ، ولئلا يتمكن الملك المعظم بالاتفاق مع جلال الدين خوارزم شاه وصاحب إربل من قصده وقصد الملك الأشرف . فتجهز الأنبرطور ووصل فى عساكره إلى الساحل ونزل بعكا . وكان قد تقدمه جمع كثير من الفرنج ، لكنهم لم يتمكنوا من الحركة خوفا من الملك المعظم ولانتظارهم مقدّمهم الانبرطور . ومعنى هذا الإسم بالفرنجية ملك الأمراء ، ومملكته جزيرة صقلية ، ومن البر الطويل بلاد أنبولية (٢) والأنبردية (٣) . وقد رأيتُ تلك الممالك وتوجهتُ إليها لما توجهت رسولا من جهة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — رحمه الله — إلى ولد الأنبرطور فردريك هذا المسمى منفريدا . وكان الأنبرطور — من بين ملوك الفرنج — فاضلا محباً للحكمة والمنطق والطب ، مائلا إلى المسلمين لأن مقامه فى الأصل ومرباه بلاد صقلية ، وهو وأبوه كانوا ملوكها ، وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون .

ولما وصل الأنبرطور إلى عكا نشب به الملك الكامل ، لأن أخاه الملك المعظم الذى كان السبب فى استدعائه توفى ، وقد استغنى عنه ، ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق ، ولأنه كان يؤدى ذلك إلى فوات أغراضه التى كان فى ذلك الوقت بصددها . فراسله ولاطفه ، وجرى بعد ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وبعد وصول الأنبرطور إلى عكا شرع الفرنج فى عمارة صيدا ،

---

(١) حاكم دمشق وأخو الكامل الذى رأيناه يهرع لنجدته عند دمياط ، وكانت العلاقات قد فسدت بينهما منذ ذلك الحين .

(٢) أبيوليا .

(٣) لومبارديا .

وكانت مناصفة بين المسلمين وبين الفرنج ، وسورها خراب . فعمروها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين . ولم يزل الأنبرطور بعكا ، والرسل مترددة بينه وبين الملك الكامل ، إلى أن خرجت هـذه السنة [١٢٢٨/٦٢٥] .

(٢)

ذكر تسليم القدس الشريف إلى الفرنج

من كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل ،
الجزء الرابع ، من صفحة ٢٤١ — ٢٤٦

ولم تزل الرسل تتردد بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرطور ملك الفرنج ، وأطماعه متعلقة بما استقر بينه وبين الملك الكامل أولا قبل موت الملك المعظم . وأبى ملك الإفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه وبعض الفتوح الصلاحى . وامتنع الملك الكامل أن يسلم إليه كل ذلك . وآخر الأمر أنه تقرر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أنه يبقى خراباً ، ولا يجدد سوره ، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة ، بل يكون جميع قراياه للمسلمين ، وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه ، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين ، وشعار المسلمين فيه ظاهر ، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوّام المسلمين . واستثنى الفرنج قرايا معدودة هى طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس ، تكون هذه القرايا بأيديهم خوفاً أن يغتالهم أحد من المسلمين. ورأى الملك الكامل أنه إن شاقق الأنبرطور ولم يف له بالكلية ، أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج ، ويتسع الخرق ويفوت عليه كل ما خرج بسببه . فرأى أنه يرضى الفرنج بمدينه القدس خراباً ويهادنهم مدة ، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء ،
. . . .

وكان المتردد بينه وبين الملك الإنبرطور فى الرسائل الأمير فخر الدين ابن الشيخ (١) ، وكانت تجرى بينهما محاورات فى أشياء شتى . وسير الإنبرطور إلى الملك الكامل فى أثناء ذلك مسائل حكمية ومسائل هندسية ورياضية مشكلة ، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء . فعرض الملك الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر بن أبى القاسم إمام هذه الصناعة (٢) . وعرض الباقى على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع .

ثم حلف السلطان الملك الكامل على ما وقع الإتفاق عليه ، وحلف الإنبرطور ، وعقدوا عقد الهدنة مدة معلومة (٣) . وانتظم بينهم الأمر ، وأمن كل من الفريقين صاحبه . وبلغنى أن الإنبرطور قال للأمير فخر الدين : « لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج ، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك ، ومالى غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصدت حفظ ناموسى عندهم » .

ولما وقعت الهدنة بعث السلطان من نادى فى القدس بخروج المسلمين وتسليمه إلى الفرنج . فحكى لى والدى رحمه الله — وكان لما وقعت هذه الواقعة بالقدس الشريف قد وصل إليه من مكة حرسها الله ، فإنه كان جاور فيها السنة الماضية ، وكنت قد سافرت إلى دمشق فى السنة الماضية وأقمت بدمشق — قال : « لما نودى بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج وقع فى أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ،

---

(١) ينتمى أولاد الشيخ إلى أسرة فارسية متصوفة من فقهاء الشافعية ، وقد تمتع المهاجرون منهم إلى الشام فى زمن الأيوبيين الأواخر بنفوذ كبير .

(٢) الفقيه الحنبلى وعالم الرياضيات المشهور . ولد بصعيد مصر سنة ٥٧٤ هـ ، وتوفى بدمشق سنة ٦٤٩ هـ .

(٣) عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعون يوماً ابتداء من ٢٨ ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ (٢٤ فبراير ١٢٢٩ م) .

وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه ، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين قدّس الله روحه . لكن عام الملك الكامل — رحمه الله — أن الفرنج لا يمكنهم الإمتناع بالقدس مع خراب أسواره ، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له كان متمكناً من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه . وقال السلطان الكامل : « إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله ، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه ، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله » .

ولما تم أمر الهدنة إستأذن الإنبرطور السلطان فى زيارة القدس فاذن له . وتقدم السلطان إلى القاضى شمس الدين قاضى نابلس — رحمه الله — وكان جليلا فى الدولة متقدماً عند ملوك بنى أيوب ، أن يلازم خدمة الإنبرطور إلى أن يزور القدس ، ويرجع إلى عكا . فحكى لى شمس الدين رحمه الله ، قال : « لما قدم الإنبرطور القدس لازمته كما أمرنى السلطان الملك الكامل ، ودخلت معه إلى الحرم الشريف ، فرأى ما فيه من المزارات . ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى ، فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة ولما وصل إلى محراب الأقصى أعجبه حسنه وحسن المنبر ، وصعد فى درجه إلى أعلاه . ثم نزل وأخذ بيدى وخرجنا من الأقصى ، فرأى قسيساً وبيده الإنجيل ، وهو يريد دخول الأقصى . فصاح عليه صيحة منكرة وقال : « ما الذى أتى بك إلى ها هنا ؟ والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى ها هنا بغير إذنى لآخذنا ما فى عينيه . نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده . وإنما تصدّق علىّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه . ولا يتعدّى أحد منكم طوره . » فمضى ذلك القسيس وهو يرعد خيفة منه . ومضى الإنبرطور إلى الدار التى عين نزوله فيها فنزل بها . قال القاضى شمس الدين ، قاضى نابلس : « وأوصيت

المؤذنين أنهم لا يؤذنون تلك الليلة احتراماً له. فلما أصبحنا ودخلت عليه قال لى : « يا قاضى ، لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر على جارى عادتهم ؟ » فقلت له : « إن المملوك منعهم من ذلك إعظاماً للمالك واحتراماً له . » فقال لى : « أخطأت فيما فعلت . والله إنه أكثر غرضى فى المبيت فى القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل » . ثم رحل إلى عكا .

ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس إلى الفرنج ، أخذ الملك الناصر داود فى التشنيع على عمه الملك الكامل (١) . وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزى الواعظ ، وكان له قبول عند الناس فى الوعظ ، فى أن يجلس فى جامع دمشق للوعظ ، ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وأن يحزن الناس ويذكر ما فى تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والعار . وقصد بذلك تنفير الناس من عمه ليناصحوه فى قتاله . فجلس شمس الدين للوعظ كما أمره ، وحضر الناس لاستماع وعظه . وكان يوماً مشهوداً . وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم . وحضرت أنا هذا المجلس ، ومما سمعته يومئذ يورد قصيدة تائية وازن بها قصيدة دعبل بن على الخزاعى (٢) وضمنها بيتاً من القصيدة وهو :

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصاتِ

وعلق بذهنى منها بيت واحد وهو :

على قبة المعراج والصخرة التى تُفاخر ما فى الأرض من صخرات

فلم يُرَ فى ذلك اليوم إلا باك أو باكية .

---

(١) كان الناصر داود قد خلف والده الملك المعظم على دمشق ، وأراد استغلال تسليم القدس ضد عمه الذى سبق ذكر خلافه مع الملك المعظم .

(٢) شاعر علوى فى زمن هارون الرشيد .

ولما تقررت قواعد الهدنة بين السلطان الملك الكامل والإنبرطور أقلع الانبرطور راجعاً إلى بلاده . (١)

(٣)

[فردريك فى القدس]

[من كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزى ،
الجزء الثامن ، من صفحة ٤٣٢ — ٤٣٤]

ورد الخبر إلى دمشق بتسليم البيت المقدس إلى الفرنج فقامت الدنيا على ساق واحد ، وعظم ذلك على سائر المسلمين ،وأقاموا المآتم وأشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى على البيت المقدس ، فما أمكننى مخالفته . فرأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته . فجلست بجامع دمشق ، وحضر الناصر داود على باب مشهد علىّ . وكان يوماً مشهوداً لم يتخلف من أهل دمشق أحد . وكان من جملة الكلام : « انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ! كم كانت لهم فى تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة ! تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت . أحسن الله عزاء المؤمنين ! ياخجلة ملوك المسلمين ! لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات » .

وفيها دخل الأنبرور ملك الفرنج إلى القدس الشريف وذلك أثناء محاصرة دمشق(٢) . وجرى له فيها عجايب ، ومنها أنه لما دخل الصخرة

---

(١) فى أواخر جمادى الآخرة (مايو ١٢٢٩ م) .
(٢) أى أثناء حصار الكامل والأشرف لابن أخيهما الناصر فى دمشق .

رأى قسيساً قاعداً عند الصخرة عند القدم يأخذ من الفرنج القراطيس . فجاء إليه الأنبرور كأنه يطلب منه الدعاء ، ثم لكمه فرماه إلى الأرض ، وقال له : « ياخنزير ! السلطان قد تصدّق علينا بزيارة هذا المكان وتفعلوا فيه هذه الأفاعيل القباح ؟ ! إن عاد منكم أحد إلى هذا الفعل قتلته » . وحكى لى صورة الحال قوّام الصخرة ، قال : « ونظر الأنبرور إلى الكتابة التى فى القبة ، وهى : « طهّر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين » . فقال : « ومن هم المشركون ! » . وقال الأنبرور للقوّام : « هذه الشباك التى على أبواب الصخرة ، من أجل إيش ؟ » . قالوا : « لئلا يدخلها العصافير » . فقال : « قد أتى الله إليكم بالخنازير !» . قالوا : « ولما دخل وقت الظهر وأذّن المؤذنون ، قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان ، ومعلمه — وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق — فصلّوا ، وكانوا مسلمين . قالوا : وكان الأنبرور أشقر أمعط وفى عينيه ضعف ، لو كان عبداً ما يساوى مائتى درهم . قالوا : والظاهر من كلامه أنه كان دهرياً ، وإنه كان يتلاعب بالنصرانية . قالوا : وكان الكامل قد تقدم إلى القاضى شمس الدين قاضى نابلس ، أن يأمر المؤذنين ما دام الأنبرور فى القدس ألا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا فى الحرم . فأنسى القاضى أن يعلم المؤذنين . فصعدعبدالكريم المؤذن فى تلكالليلةوقت السحر ، والأنبرور نازل فى دار القاضى ، فجعل يقرأ الآيات التى تختص بالنصارى مثل قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد) ، (ذلك عيسى بن مريم) ، ونحو ذلك . فلما طلع الفجر ، استدعى القاضى عبدَ الكريم ، وقال له : « إيش عملت ؟ السلطان رسم بكذا وكذا » . قال : « فما عرّفتنى بشيء ، والتوبة » . فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المئذنة . فلما طلع الفجر ، استدعى الأنبرور القاضى ، وكان قد دخل القدس فى خدمته ، وهو الذى سلّم إليه القدس . فقال له : « يا قاضى ! أين ذلك الرجل الذى طلع بارحة أمس المنارة ، وذكر ذلك الكلام ؟ » . فعرّفه أن السلطان

أوصاه . فقال الأنبرور : « أخطأتم يا قاضي ! تغيرّون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي ؟ ! فلو كنتم عندى فى بلادى ، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ؟ الله الله لاتفعلوا ! هذا أول ما تنقصون عندنا ». ثم إنه فرّق على القوّام والمجاورين جملة كبيرة ، وطلب عبد الكريم المؤذن وأعطاه مائة دينار . ولم يقم بالقدس غير ليلتين ، وعاد إلى يافا ، وخاف من الداويّة فإنهم أرادوا قتله .

(٤)

[ذكر العلاقات بين بنى أيوب وأسرة هوهنشتاوفن]

[من كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل : الجزء الرابع ، من صفحة ٢٤٦ — ٢٥١]

استمر [الأنبراطور] مصافياً للملك الكامل ، موادّ له ، والمراسلة بينهما متصلة إلى أن توفى الملك الكامل ، وملك ولده الملك العادل سيف الدين ، فصافى الأنبراطور الملك العادل [١٢٣٨ — ١٢٤٠] ووادّه وراسله . ولما قُبض الملك العادل وولى أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب [١٢٤٠ — ١٢٤٩] ، استمر الأمر على ذلك ، وأرسل إليه الملك الصالح الشيخ العلامة سراج الدين الأرموى الذى هو قاضي قونية من بلاد الروم الآن . وأقام سراج الدين عنده مكرّما مدة ، وصنّف له كتابا فى المنطق وأحسن إليه الأنبراطور إحساناً كبيراً ، وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرماً .

ولما قصد ريدا فرنس(١) — وهو من أكبر ملوك الفرنج — الديار

---

(١) ملك فرنسا ، الملك لويس التاسع (أنظر الفصل الثالث) .

المصرية سنة ٦٤٧ [١٢٤٩] بعث إليه الأنبرطور ينهاه عن ذلك ويخوفه ويحذره عاقبة الأمر ، فلم يقبل منه فحكى لى سر نرد ، وهو مهمند دار (١) منفريدا ابن الانبرطور قال : « أرسلنى الأنبرطور فى السر إلى الملك الصالح نجم الدين لأعرفه عزم قصد ريدا فرنس على الديار المصرية وأحذره منه وأشير عليه بالاستعداد له . فاستعد له الملك الصالح ، ورجعت إلى الأنبرطور . وكان ذهابى إلى مصر ورجوعى فى زى تاجر . ولم يشعر أحد باجتماعى بالملك الصالح خوفاً من الفرنج أن يعلموا ممالأة الأنبرطور للمسلمين عليهم » .

ولما مات الملك الصالح ، وجرى لريدا فرنس ما جرى من هلاك عسكره واستئصالهم ، وأسر الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح له ، ثم خلاصه من الأسر بعد قتل الملك المعظم ورجوعه إلى بلاده ، بعث الأنبرطور إليه يذكره نصحه له ، وما جرّ عليه لجاجه ومخالفته ، ويعنفه على ذلك . وتوفى الأنبرطور فى تلك السنة ، وهى سنة ٦٤٨ [١٢٥٠] ، بعد موت الملك الصالح بسنة . وولى بعده ولده كرا [كونراد](٢) . ثم مات كرا وولى أخوه منفريدا . وهؤلاء كلهم كانوا ممقوتين عند البابا خليفة الفرنج صاحب رومية ، لميلهم إلى المسلمين . وجرى بين منفريدا والبابا حرب انتصر فيها منفريدا .

وتوجهتُ رسولا إلى منفريدا من جهة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — رحمه الله — فى شهر رمضان سنة ٦٥٩ [أغسطس ١٢٦١] . فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن أنبوليه [أبيوليا] فى البر الطويل المتصل ببر الأندلس . واجتمعت به مراراً ، ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم العقلية ، يحفظ عشر مقالات من كتاب أوقليدس فى الهندسة . وبالقرب من البلد

---

(١) المهمندار : الموظف الذى يتلقى الرسل الواردين على الملك وينزلهم دار الضيافة .
(٢) كونراد الرابع الذى توفى سنة ١٢٥٤ م .

الذى كنت نازلا به مدينة تسمى لوجاره (١) أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية ، تقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الإسلام ، وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الأنبرطور (فردريك) . وكان منفريدا قد شرع فى بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية . ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين ، ويعلن فى معسكره بالأذان والصلاة .

ولما رجعتُ من تلك البلاد جاءت الأخبار بأنه اتفق على قصده البابا صاحب رومية العظمى — وبينها وبين البلد الذى كنا به مسافة خمسة أيام — وأخو ريدا فرنس (٢) المقدم ذكره . وذلك أن البـابا كان قد حرّم منفريدا (٣) لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم . وكذلك كان كرا أخوه ، والأنبرطور ، وكل هؤلاء كانوا محرمين من جهة البابا برومية . والبابا برومية هو خليفة المسيح عندهم ، والقائم مقامه ، وإليه التحريم والتحليل والقطع والفصل ، وهو الذى يُلبس الملوك تيجان الملك ويقيمهم . ولا يتم لهم أمر فى شريعتهم إلا به . ويكون راهباً ، وإذا مات قام مقامه من هو أيضاً متصف بصفة الرهبانية .

ولقد حُكى لى وأنا ببلادهم حكاية عجيبة ، وهى أن مرتبة الأنبرطورية كانت قبل الأنبرطور فردريك — الذى تقدم ذكره — لأبيه ، وأنه لما مات كان ابنه فردريك شابا فى أول ترعرعه ، وأنه طمع فى هذه المرتبة جماعة من ملوك الفرنج ، كل منها رجا أن يفوضها إليه بابا رومية . وكان فردريك ماكراً خبيثاً ، وهو من الألمانية ، وهم جنس من أجناس الفرنج .

Lucera (١)

(٢) شارل دانجو ، أخو الملك لويس التاسع .

(٣) يقصد أن البابا أصدر ضده قرار الحرمان ، وبالتالى حرر رعاياه من أيمان الطاعة الى أقسموها له .

فاجتمع بكل واحـد من الملوك الذين طمعوا فى مرتبة الأنبرطورية على انفراده ، وقال لكل واحد منهم : « إنى لا أريد هذه المرتبة لأنى لا أصلح لها . فإذا اجتمعنا عند البابا فقل أنت له إن هذا الأمر ينبغى أن يتقلد الحديث فيه ابن الإنبرطور الماضى ،وأن من رضى بتقليده الأنبرطورية فأنا راض به . فإن البابا إذا ردّ الاختيار إلىّ فى ذلك ، اخترتك، ولا أختار غيرك . وقصدى الانتماء إليك والاعتضاد بك » . ولما قال (فردريك) هذه المقالة لكل واحد من الملوك ، أجابه كل واحد منهم ، ووثق به ، واعتمد صدقه فيما قال. فلما اجتمعوا عند البابا بمدينه رومية ومعهم فردريك ، وكان قد تقدم إلى جماعة من أصحابه الألمانية الشجعان أن يكونوا مستعدين راكبين خيولهم قريباً من الكنيسة العظمى التى برومية التى فيها المجمع الكبير ، قال البابا للملوك لما اجتمعوا عنده : « ما ترون فى هذه المرتبة ، ومن هو الأحق بها ؟ » . ووضع التاج بين أيديهم . فكل واحد منهم قال : «حكمت فردريك فى ذلك ، وما يشير به فهو الذى أقبله وأسير به ، فإنه ولد الأنبرطور وأحق الجماعة بأن يسمع قوله فى ذلك» . فقام فردريك وقال : « أنا ابن الأنبرطور ، وأنا أحق بمرتبته وتاجه ، والجماعة كلهم قد رضوا بى واختارونى » . ووضع التاج على رأسه ، فانكسوا كلهم ، وخرج مسرعاً والتاج على رأسه ،وركب وركب معه الألمانية – الذين تقدم إليهم بأن يقفوا قرب الكنيسة وسار بهم على حمية إلى بلاده . ثم بعد ذلك صدرت منه أمور توجب – عند البابا على ما يقتضيه مذهبهم – تحريمه فحرمه .

وبلغنى أنه لما كان الأنبرطور بعكا ، قال للأمير فخر الدين بن الشيخ – رحمه الله – : « أخبرنى عن الخليفة الذى لـكم ، ما أصله ؟ » فقال فخر الدين : « هو ابن عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذ الخلافة عن أبيه ، وأخذها أبوه عن أبيه ، فالخلافة مستمرة فى بيت النبوة لا تخرج منهم » . فقال الأنبرطور : « ما أحسن هذا ! لكن هؤلاء القليلو العقول

— يعنى الفرنج — يأخذون رجلا من المزبلة ، ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب ، جاهلا قدْما ، يجعلونه خليفة عليهم ، قائماً مقام المسيح فيهم ، وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم ، فهو أحق الناس بمرتبته » .

ولما قصد البابا وأخو ريدا فرنس منفريدا ابن الأنبرطور ، قاتلاه وهزما عسكره وقبضا عليه . وتقدم البابا بذبحه فذبح . وملك أخو ريدا فرنس البلاد التى كانت بيد ابن الأنبرطور ، واستولى عليها ، وكان هذا فى سنة ٦٦٣ (١٢٦٥) فى غالب ظنى .

(٥)

خطابان عربيان من فردريك

[من كتاب « التاريخ المنصورى » لأبى الفضائل الحموى ، من صفحة ٣٨٢ — ٣٨٩]

ثم دخلت سنة ٦٢٧ (١٢٢٩) . . . وفيها وصـــل حرّان رسول الإمبراطور إلى الكامل وعلى يده كتاب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ ؛ بما نسخته .

« بسم الله الرحمن الرحيم » عنوانه ، ترجمته .

قيصر المعظم إمبراطور رومية ، فردريك بن الإمبراطور هنرى بن الإمبراطور فردريك ، المنصور بالله المقتدر بقدرته ، المستعلى بعزته ، مالك ألمانية ولمبردية وتسقانة وإيطاليا ولنجبردى وكلبرية وصقلية ومملكة الشام القدسية ، معزّ إمام رومية . الناصر للملة المسيحية .

بسم الله الرحمن الرحيم .

رحلنا وخلّفنا القلوب مقيمةً ... تخلّت عن الأجسام والخانس والنوع
وآلت على أن لاتخــلّ بودكم ... مدى الدهر وانسلّت تنكّبُ عن طوعى

لو ذهبنا إلى الوصف بما نجد من عظم الشوق ، ومكابدة من ألم الاستيحاش ، والشوق إلى المجلس السامي الفخري ، أدام الله أيامه ، وسرمد أعوامه ، وثبت في الرياسة أقدامه ، وحرس مودّته وإكرامه ، وأجرى على سبيل النجاح مرامه ، وسدد عهده وكلامه ، وبغمر من النعم أقامه ، وجدّد مع الجديدين سلامه ، ألزمنا في الخطاب شططا ، وحُدنا عن الصواب غلطا ، إذ منينا بروعة استيحاش بعد سلوّ وإيناس ، ولوعة فراق في إثر غبطة وإشتياق . فرأينا السلوّ ممتنعاً ، وحبل الجلد منقطعاً ، ومأمول التماثل قد عاد جزعاً ، وشمل الاصطبار منصدعا ، إذا رحلت :

وقدّرت لو خُيّرت بين فراقكم
وبين حمامى ، قلتُ : بل دلّنى نحبي

وتخاله ، أكرمه الله ، ملّنا ، واعتاض بغيرنا ، واختار فراقنا ، وتناسى ودادنا . فعزّينا أنفسنا بقول أبي الطيّب :

إذا ترحّلتَ عن قوم وقد قدَروا
أن لا تفارقهم ، فالراحلون هُمُ

وبعد ، فلعلمنا أنه محب لسماع الطيب من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره ، حسب ما شرحناه له بصيدا ، أن البابا بالغدر والخديعة أخذ إحدى قلاعنا المنيعة تسمّى مُنت قسّين [مونت كاسّينو] . أسلمها له أبّاطها(١) اللعين . وعند ذلك رام المزيد ، فلم يمكنه الانتظار على طاعتنا لرجوعنا السعيد . فاضطر إلى أن زعم أننا متنا ، وحلّف الكردنالية على ذلك ، وعلى أن رجوعنا مستحيل . وأرادوا خداع العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن [إدارة] جماة بلادنا ،

---

(١) أباط : Abbot وهو رئيس دير الرهبان .

وحفظها برسم ولدنا ، مثل البابا . فلأيمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين ، وخلفاء الحواريين ، انخدعت جماعة من الطغام والمفسدين . فعند وصولنا إلى برنديسي المصونة ، ألفينا الملك جون(١) واللمبرديين فى الدخول فى مُلكنا معاندين ، وفى خبر ورودنا متشككين ، لما قرره الكردنالية عندهم باليمين . وكتبنا وأرسلنا بوصولنا سالمين . وداخل أعداءنا الجزع ، وحلّ بهم الروع والفزع ، ونكصوا على أعقابهم خاسرين مسافة يومين . وارتد أهل طاعتنا إلينا طايعين ، وكذلك اللمبرديين ، الذين كانوا معظم عسكرهم ، لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين : وانصرفوا على أدبارهم أجمعين . وأما الملك المذكور وأصحابه ، فأصابهم الحياء والخوف ، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون الفراق عنه والخروج منه ، لا يقدرون على ذلك ، لأن البلاد بأسرها قد عادت لنا وإلى طاعتنا . ونحن فى خلال ذلك قد جمعنا عسكراً عديداً من ألمانية كانوا معنا فى الشام ، والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا ، وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا . واستعددنا نجدّ السير إلى بلاد أعدائنا .

وبعد ، فما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهمّاته وحاجاته ، وأن يقرىء سلامنا على جميع أكابر العسكر وغاماته ومملوكيه ودَخَلَته . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

كُتب ببرلتا(٢) المصونة بتاريخ ٢٣ من شهر أغسطس للأندقس(٣) الثانى [١٢٢٩] .

---

(١) جون دو برين Brienne الذى قاد جيشاً بابوياً وأغار على ممالك فردريك أثناء غيابه .

(٢) Barletta .

(٣) وحدة زمنية مؤلفة من ١٥ سنة كانت تصطنع فى الإمبراطورية الرومانية وغيرها لتأريخ الأحداث العادية .

وهذا نسخة الكتاب الثاني ، الترجمة كالأول ، فيه الأخبار بما نُشعر به :

« إنا قد جمعنا عسكراً كبيراً ، وإنا نجدّ السير إلى قتال من هم بانتظارنا ولم يهرب أمام وجهنا . والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا ، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ، ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات والآلات . فلما أحسوا بإقبالنا ، مع بعد المسافة بينهم وبيننا ، لم يتمهلوا ، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم ، وانهزموا هاربين أمامنا ، ونحن نجدّ السير في طلبهم ، وتفريق شملهم ، وتبديد جمعهم . وطلب البابا حشر من وجدناه ، وردّه خائباً على قفاه ، نادماً على مانواه . وما يجدّ من الأخبار فنحن نكاتب المجلس [به] إن شاء الله » .

والغرض من إثبات هذه الكتب تحقيق ممالك هذا الملك الإمبراطور وقدرته . فما ملك من النصرانية مثله من زمن الإسكندر وإلى الآن ، لاسيما قلة [احترامه] لخليفتهم البابا ، وقصده له ، وإطّراحه إياه .

الفصل الثالث

كانت حملة لويس التاسع على مصر آخر مبادرة كبيرة للصليبيين بالهجوم . وقد جاءت لتحاول الاستيلاء على ما لم تتمكن من الاستيلاء عليه الحملة التي قدمت قبل ذلك بثلاثين عاماً . وسيكون اعتمادنا هنا على ما كتبه المقريزى عن هذه الحملة . وينقل المقريزى هنا نقلا يكاد يكون حرفياً من كتاب ابن واصل ، غير أنه يطعّم ما ينقله بتفاصيل مختلفة شيقة استقاها من مصادر أخرى .

[حملة لويس التاسع]

[من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى ،
الجزء الأول ، الصفحات ما بين ٣٣٣–٣٣٧/٣٤٦–٣٤٧/
٣٤٩ – ٣٦٥]

فى الساعة الثانية من يوم الجمعة ٢٠ صفر [سنة ٦٤٧هـ/ يونيو ١٢٤٩]، وصلت مراكب الفرنج البحرية ، وفيها جموعهم العظيمة صحبة ريدا فرنس – ويقال له الفرنسيس ، واسمه لويس بن لويس . وريدا فرنس لقب بلغة الفرنج ، معناه ملك أفرنس . وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين . وسيّر ملك الفرنج إلى السلطان كتاباً ، نصه بعد كلمة كفرهم :

« أما بعد : فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم

الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان . ونخلى منهم الديار (١) . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية . فلو حلفت لى بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردنى ذلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك . فإن كانت البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدى ، وإن كانت البلاد لك والغلبة علىّ ، فيدك العليا ممتدة إلىّ . وقد عرّفتك وحذّرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا » .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه ، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع ، فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء ، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين :

« أما بعد ، فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قِرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمّرناه . فلو رأت عيناك — أيها المغرور — حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك . فهنالك تسىء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابى هذا ، فكن فيه على أول سورة النحل : « أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه » . وكن على آخر سورة ص : « ولتعلمُنّ نبأه بعد حين » . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت

---

(١) كان سان فرناندو فى ذلك الوقت قد أحرز انتصارات عديدة على المسلمين فى أسبانيا . وقد سقطت إشبيلية فى نوفمبر سنة ١٢٤٨ م ، أى قبل وصول حملة لويس التاسع بأشهر قلائل .

فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » ، وإلى قول الحكماء : « إن الباغي له مصرع » ؛ وبغياك يصرعاك ، وإلى البلاد يقلبك ، والسلام » .

وفى يوم السبت نزل الفرنج فى البر الذى عساكر المسلمين فيه ، وضُربت للملك ريدا فرنس خيمة حمراء . فناوشهم المسلمون الحرب ، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان رجلا صالحاً ورتّبه الملك الناصر داود مع الملك الصالح نجم الدين لما سُجن بالكرك لمؤانسته . وممن استشهد أيضاً الأمير صارم الدين إزبلك الوزيرى . فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ (١) بمن معه من عساكر المسلمين ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى ، الذى فيه مدينة دمياط . وخلا البر الغربى للفرنج . وسار فخر الدين بالعسكر يريد أشموم طناح .

فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر ، خرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بالمدينة أحد البتة ، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة ، وفروا إلى أشموم مع العسكر ، وهم حفاة عراة جياع فقراء ، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء . وساروا إلى القاهرة ، فنهبهم الناس فى الطريق ، ولم يبق لهم ما يعيشون به . فعُدّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به . وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل ، لما نازلها الفرنج ، أقل ذخائر وعدداً منها فى هذه النوبة ؛ ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة ، عندما فنى أهلها بالوباء والجوع . وكان فيها هذه المرّة أيضاً جماعة من شجعان بنى كنانة ، فلم يغن ذلك شيئاً .

---

(١) هو فخر الدين الذى اضطلع بالمفاوضة مع فردريك الثانى منذ عشرين عاماً ، والذى عهد إليه السلطان الأيوبى الملك الصالح — وكان على فراش المرض — بمهمة الدفاع عن مصر .

وأصبح الفرنج يوم الأحد ٢٣ صفر ، سائرين إلى مدينة دمياط . فعندما رأوا أبوابها مفتوحة ولا أحد يحميها ، خشوا أن تكون مكيدة . فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها . فدخلوا المدينة بغير كافة ولا موئنة حصار ، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة ، والأقوات والأزواد والذخائر والأموال والأمتعة وغير ذلك ، صفوا عفوا .

وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر فانزعج الناس إنزعاجاً عظيما ، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر ، لتملك الفرنج مدينة دمياط ، وهزيمة العساكر ، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة ، والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوة ، مع شدة مرض السلطان وعدم حركته .

وعندما وصلت العساكر إلى أشموح طناح ، ومعهم أهل دمياط ، اشتد حنق السلطان على الكنانيين ، وأمر بشنقهم ، فقالوا : « وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا وأحرقوا الزردخاناه ، فأى شيء نعمل نحن ؟ » فشنقوا لكونهم خرجوا من المدينة بغير إذن حتى تسلمها الفرنج ، فكانت عدة من شنق زيادة على خمسين أميراً من الكنانية . وكان فيهم أمير حشيم ، وله ابن جميل الصورة ، فقال أبوه : « بالله اشنقونى قبل ابنى » . فقال السلطان : « لا ! بل اشنقوه قبل أبيه » فشنق الإبن ثم شنق الأب من بعده ، بعد أن استفتى السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم .

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وقال : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج ؟ هذا وما قتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين » . وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضى . وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين ، فخاف كثير من الأمراء

وغيرهم سطوة السلطان وهمّوا بقتله . فأشار عليهم فخر الدين بالصبر حتى يتبين أمر السلطان : «فإنه على خُطّة(١) ، وإن مات كانت الراحة منه ، وإلا فهو بين أيديكم» .

رحيل السلطان بعسكره إلى المنصورة

ولما وقع ما ذُكر ، أمر السلطان بالرحيل إلى المنصورة ، وحمل فى حرّاقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيل فى يوم الثلاثاء ٢٥ صفر . فشرع كل أحد من العسكر فى تجديد الأبنية للسكنى بالمنصورة ، ونصبت بها الأسواق ، وأصلح السور الذى على البحر وستّر بالستائر . وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى ، ووصلت عربان كثيرة جداً ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم . وحصن الفرنج أسوار دمياط وشحنوها بالمقاتلة .

فلما كان يوم الاثنين ٢٨ ربيع الأول [١٣ يوليو] ، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثون أسيراً منهم فارسان ، وفى خامس شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيراً ، وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسيراً ، وفى سادس عشره وصل خمسة وأربعون أسيراً ، منهم ثلاثة من الخيّالة .

ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها ، وأخذوا صيداء من الفرنج بعد حصار وقتال . فورد الخبر بذلك يوم ٢٤ ربيع الآخر ، فسر الناس بذلك . هذا والأسرى من الفرنج تصل فى كل قليل

(١) أى يرج به المرض .

إلى القاهرة ، ووصل فى ١٨ جمادى الأولى خمسون أسيراً . ومع ذلك والمرض يتزايد بالسلطان ، وقواه تنحط ، حتى وقع يأس الأطباء من برئه وعافيته ، لاجتماع مرضين عظيمين ، هما الجراحة الناصورية فى مأبضه والسل .

نزول الفرنج تجاه المنصورة

وأما الفرنج فما هم إلا أن فهموا أن السلطان قد مات (١) ، حتى خرجوا من دمياط فارسهم وراجلهم ، ونزلوا على فارس كور ، وشوانيهم فى بحر النيل تحاذيهم . ورحلوا من فارس كور يوم الخميس ٢٤ شعبان . فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب فيه حض الناس على الجهاد ، أوله : (انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمة . فقرىء على الناس فوق منبر جامع القاهرة ، وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات ما لا يوصف . وارتجت القاهرة ومصر لكثرة إنزعاج الناس وحركتهم للمسير ؛ فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم ، وقد اشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد مع موت السلطان .

فلما كان يوم الثلاثاء أول رمضان [٨ ديسمبر ١٢٤٩] ، واقع الفرنج المسلمين ، فاستشهد العلائى أمير مجلس ، وجماعة من الأجناد ، وقتل من الفرنج عدة ، ونزل الفرنج بشار مساح . وفى يوم الأثنين سابعه نزلوا البرمون . فاشتد الكرب وعظم الخطب لدنوهم وقربهم من المعسكر . وفى يوم الأحد ١٣ رمضان وصلوا إلى طرف بر دمياط ،

---

(١) توفى الملك الصالح بالمنصورة فى منتصف شعبان سنة ٦٤٧ هـ (٢٤ نوفمبر ١٢٤٩ م) . وخلفه إبنه تورانشاه الذى كان وقتئذ فى حصن كيفا

ونزلوا تجاه المنصورة ، و صار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم . وكان معظم عسكر المسلمين في المنصوره بالبر الشرقي ، وفي البر الغربي أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وهم : الملك الأمجد والملك الناصر والملك المعظم والملك الأوحد ، في عدة من العسكر . وكان أولاد الملك الناصر داود ، الأكابر منهم والأصاغر الذين قدموا القاهرة ، إثنى عشر ولدا ذكراً . وكان بالبر الغربي أيضاً أخوا الملك الناصر داود : وهما الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز . فاستقر الفرنج بمنزلتهم هذه وخندقوا عليهم خندقاً ؛ وأداروا سوراً وستروه بالستائر ؛ ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين . ونزلت شوانيهم بإزائهم في بحر النيل ، ووقعت شواني المسلمين بإزاء المنصورة ؛ ووقع القتال بين الفريقين براً وبحراً .

[ذكر منازلة الفرنج للعسكر بالمنصورة]

وما زال الأمر على ذلك إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة [١٠ فبراير ١٢٥٠] ، دلّ بعض منافقي أهل الإسلام الفرنج على مخائض في بحر أشمون(١) . فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم في المعسكر . وكان الأمير فخر الدين(٢) في الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر ؛ فخرج مدهوشاً وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب ، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده . فلقيه طُلْب الفرنج الداوية وحملوا عليه ، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه . فطعنه واحد برمح في جنبه ، واعتورته

---

(١) فرع من النيل كان يفصل بين قوات الفرنج والمسلمين .

(٢) كان قد اتفق مع شجرة الدر — بعد وفاة الملك الصالح — على الاشتراك في تدبير المملكة إلى حين عودة تورانشاه إلى مصر ، وقام هو بالأتابكية وقيادة العساكر .

السيوف من كل ناحية ، فمات رحمه الله . ونزل الفرنج على جَدِيلة(١) ، وكانوا ألفاً وأربعمائة فارس ، ومقدمهم أخو الملك ريدا فرنس(٢) .

وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين ، وإذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة . فتفرق الناس وانهزموا يميناً وشمالا ، وكادت الكسرة أن تكون ، فإن الملك ريدا فرنس وصل بنفسه(٣) إلى باب قصر السلطان . إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية [المماليك] ، التي تعرف بالبحرية والجمدارية ، وفيهم ركن الدين بيبرس البندقداري الذي تسلطن بعد هذه الأيام . فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها وأزاحوهم عن باب القصر . فلما ولّوا أخذتهم السيوف والدبابيس(٤) ، حتى قتل منهم في هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم . وكانت رجالة الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه ؛ فلولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعديتهم الجسر . وكانت المعركة بين أزقة المنصوره ، فانهزموا إلى جديلة منزلتهم ، وقد حال بين الفريقين الليل ، وأداروا عليهم سوراً وخندقاً . وصارت منهم طائفة في البر الشرقي ، ومعظمهم في الجزيرة المتصلة بدمياط . فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج .

وعندما هجم الفرنج على المعسكر ، سرح الطائر بذلك إلى القاهرة ، فانزعج الناس انزعاجا عظيما . وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر ، فلم تغلق أبواب القاهره في ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين . وفي صبيحة يوم الأربعاء وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج ، فزينت القاهرة ، وضربت البشائر بقلعة الجبل ، وكثر فرح الناس وسرورهم . وبقي العسكر

---

(١) تل مطل على الشاطىء الجنوبي لبحر أشموم .

(٢) الكونت دارتوا .

(٣) لم يكن ملك فرنسا قد زحف بعد نحو المنصورة ، وإنما المقصود هنا الكونت دارتوا .

(٤) الهراوات .

يدبر أمره شجرة الدر . فكانت مدة تدبير الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، بعد موت الملك الصالح ، لمملكة مصر ، خمسة وسبعين يوماً . وفي يوم قتله نهب مماليكه وبعض الأمراء داره ، وكسروا صناديقه وخزائنه ، وأخذوا أمواله وخيوله ، وأحرقوا داره .

[ذكر المعركة بين الأسطول المصرى وأسطول الفرنج]

ونزل السلطان المعظم تورانشاه فى قصر أبيه [بالصالحية] ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح . ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته ، بل كانت الأمور على حالها ، والدهليز الصالحى والسماط ومجىء الأمراء للخدمة على ما كان عليه الحال فى أيام حياته ، وشجرة الدر تدبر أمور الدولة كلها ، وتقول : « السلطان مريض ، ما إليه وصول » فلم يتغير عليها شيء ، إلى أن استقر الملك المعظم بالصالحية ...

... وكانت الميرة ترد إلى الفرنج فى منزلتهم من دمياط فى بحر النيل . فصنع المسلمون عدة مراكب ، وحملوها وهى مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة ؛ وكانت أيام زيادة النيل . فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة ، وهذه المراكب مكمنة فيه ، خرجت عليها بغتة وقاتلتها . وللحال قدم أسطول المسلمين من جهة المنصورة ، فأخذت مراكب الفرنج أخذاً وبيلا ، وكانت إثنتين وخمسين مركباً ، وقتل منها وأسر نحو ألف إفرنجى ، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ، وحملت الأسرى على الجمال إلى العسكر ، فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم.

وفى أول ذى الحجة [٧ مارس ١٢٥٠] ، أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، ونجا من كان فيها من المسلمين . وفى

ثانى ذى الحجة تقدم أمر السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبي على بالمسير إلى القاهرة ، والإقامة بدار الوزارة على عادته فى نيابة السلطة ... وفى يوم عرفة وصلت مراكب فيها الميرة للفرنج ، فالتقت بها شوانى المسلمين عند مسجد النصر ، فأخذت شوانى المسلمين منها إثنين وثلاثين مركباً ، منها تسع بشوانى . فاشتد الغلاء على الفرنج ، وشرعوا فى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة . فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين بن أمير جاندار ، وقاضى القضاه بدر الدين السنجارى ، فسألوا أن يسلموا دمياط ويأخذوا عوضاً عنها مدينة القدس وبعض الساحل ، فلم يجابوا إلى ذلك . وفى يوم الجمعة ٢٦ من ذى الحجة ، أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب ، وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط . وخرجت السنة [٦٤٧ هـ] وهم فى منزلتهم .

[هزيمة الفرنج ووقوع ملك فرنسا فى الأسر]

فى ليلة الأربعاء ثالث المحرم [٦٤٨/٧ إبريل ١٢٥٠] رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط ، وانحدرت مراكبهم فى البحر قبالتهم . فركب المسلمون أقفيتهم بعد أن عدوا إلى برهم واتّبعوهم . فطلع صباح نهار يوم الأربعاء وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستولوا عليهم قتلا وأسراً . وكان معظم الحرب فى فارس كور ، فبلغت عدة القتلى عشرة آلاف فى قول المقل ، وثلاثين ألفاً فى قول المكثر . وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم المقاتلة وصناعهم وسوقتهم ما يناهز مائة ألف إنسان ؛ وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال مالا يحصى كثرة . واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل . وأبلت الطائفة البحرية — ولاسيا بيبرس البندقدارى — فى هذه النوبة بلاء حسناً ، وبان لهم أثر جميل .

والتجأ الملك ريدا فرنس وعدة من أكابر قومه إلى تل المُنْية ، وطلبوا الأمان ، فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي ، ونزلوا على أمانه . وأُخذوا إلى المنصورة ، فقيد الملك ريدافرنس بقيد من حديد ، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان — كاتبُ الإنشاء ، التى كان ينزل بها من المنصورة ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى (١) . واعتقل معه أخوه (٢) ، وأجرى عليه راتب فى كل يوم . وتقدم أمر الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطودى — أحد من وصل معه من بلاد الشرق — بقتل الأسرى من الفرنج . وكان سيف الدين يُخرج كل ليلة منهم ما بين الثلاثمائة والأربعمائة ويضرب أعناقهم ويرميهم فى البحر ، حتى فنوا بأجمعهم .

ورحل السلطان من المنصورة ونزل بفارس كور ، وضرب بها الدهليز السلطانى ، وعمل فيه برجا من خشب ، وأقام على ظهره . وكتب إلى

---

(١) أشار الشاعر جمال الدين بن يحيى بن مطروح إلى هذه الحادثة فى قصيدة له منها :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن يكن البابا بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة ... لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) هو أخ آخر للملك غير الكونت دارتوا الذى وقع قتيلا بالمنصورة . وكان هناك أخ ثالث أسر أيضاً .

الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتاباً بخطّه نصه : « من ولده ورانشاه . الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين . وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حلّ بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس إلى المنية ، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه . وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته » ، وذكر كلاماً طويلا . وبعث المعظم مع الكتاب غفارة الملك الفرنسيس ، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور ، وهى أشكرلاط أحمر بفروسنجاب فيها بكلة ذهب . فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل :

إن غفارة الفرنسيس التى ... جاءت حباء لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن ... صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال آخر :

أسيد أملاك الزمان بأسرهم ... تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ... ويلبس أسلاب الملوك عبيده

اغتيال الملك المعظم تورانشاه وتولية شجرة الدر

ولما جرى ما ذكرنا من تغير قلوب العسكر من تورانشاه خصوصاً مماليك أبيه البحرية ، اتفق جماعة من مماليك أبيه على قتله . فلما كان بكرة الإثنين ٣٠ محرم سنة ٦٤٨ [٢ مايو ١٢٥٠] مدّ الملك المعظم السماط فى دهليزه ، وجلس على طراحته ، وأكل الناس بين يديه وأكل معهم على ما جرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل ، وتفرّقت الأمراء إلى وطاقاتهم . وقام المعظم من مجلسه فطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة ؛ فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جمدارية أبيه وكان يعرف بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك . . . فضرب الملك المعظم بسيف فجرحه فى كتفه ، ورمى ركن الدين السيف من يده . ورجع الملك المعظم إلى مجلسه ، واجتمع حوله الناس وأصحابه و بعض مماليك أبيه . فقالوا له : « أى شيء جرى ؟ » فقال : « جرحنى أحد البحرية » . وكان ركن الدين بيبرس واقفاً ، فقال : « ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية » فقال المعظم : « ما فعل بى هذا إلا البحرية » . فخافت البحرية حينئذ واستشعروا منه(١) .

والتجأ [المعظم] إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارس كور . . . واستدعى المزين ليداوى يده . فقال البحرية بعضهم لبعض : « تمّموه وإلا أبادكم » ، فدخلوا عليه بالسيوف . ففر إلى أعلى البرج وأغلق بابه والدم يسيل من يده ، فأضرموا النار فى البرج ، ورموه بالنشاب . فألقى نفسه من البرج وتعلق بأذيال الفارس أقطاى ، واستجاربه فلم يجره . ومر المعظم هاربا إلى البحر وهو يقول : « ما أريد ملكا . دعونى أرجع إلى الحصن . يا مسلمين أما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ؟ » هذا وجميع العسكر واقفون ،

(١) الفقرة السابقة من « مفرج الكروب » لابن واصل (المخطوطة ٣٧١ – أو ٣٧١ ب)

فلم يجبه أحد ، والنشاب يأخذه من كل ناحية . وسبحوا خلفه فى الماء . وقطعوه بالسيوف قطعا ، حتى مات جريحا حريقا غريقا . وفرّ أصحابه واختفوا . وتُرك المعظم على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا ، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه ، إلا أن شفع فيه رسول الخليفة ، فحمل إلى ذلك الجانب ودفن . فكانت مدّة ملكه أحدا وسبعين يوما ...

... ولما قتل الملك المعظم .. اجتمع الأمراء المماليك البحرية وأعيان الدولة وأهل المشورة بالدهليز السلطانى ، واتفقوا على إقامة شجرة الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مملكة مصر . وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها ، وأن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية .

فتح دمياط

ولما حلف الأمراء والأجناد واستقرت القاعدة ، نُدِب الأمير حسام الدين محمد بن أبى على للكلام مع الملك ريدا فرنس فى تسليم دمياط . فجرى بينه وبين الملك مفاوضات ومحاورات (١) ومراجعات ، آلت إلى أن وقع

---

(١) أورد ابن واصل (مفرج الكروب ، المخطوطة : ص ٣٧٣ — أ) قصة إحدى تلك المحاورات ، ونصها : « حكى لى الأمير حسام الدين قال : كان ريدافرانس ملك الإفرنج عاقلا فطناً إلى الغاية . قال : قلت له فى بعض محاورتى ما معناه : كيف خطر للملك ، مع ما أرى فيه من فضله وعقله وصحة ذهنه ، أن يقدم على خشب ويركب متن هذا البحر ، ويأتى إلى هذه البلاد المملوءة خلقاً من المسلمين والعساكر ، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ، وإن فيما فعل غاية التغرير بنفسه وبأهل مملكته . قال : فضحك ولم يرد جواباً . فقلت له : إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى ، مغرر بنفسه وماله ، لا تقبل شهادته إذا شهد . فقال الملك : ولم ذلك ؟ فقلت : إنا نستدل بذلك على نقصان عقله ، ومن كان ناقص العقل لا ينبغى قبول شهادته . فضحك وقال : والله لقد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به » .

وقع الإتفاق على تسليمها من الفرنج ، وأن يُخَلَّى عنه ليذهب إلى بلاده بعد ما يؤدى نصف ما عليه من المال المقرر . فبعث الملك إلى من بها من الفرنج يأمرهم بتسليمها ، فأبوا ، وعاودهم مراراً إلى أن دخل العلم الإسلامى إليها فى يوم الجمعة ٣ صفر [٦٤٨ / مايو ١٢٥٠] ورفع على السور ، وأعلن بكلمة الإسلام وشهادة الحق . فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهراً وتسعة أيام .

وأفرج عن الملك ريدا فرنس بعدما فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، وأفرج عن أخيه وزوجته(١) ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة ممن أسر فى هذه الواقعة ومن أيام العادل والكامل والصالح . وكانت عدتهم اثنتى عشر ألف أسير ومائة أسير وعشرة أسارى . وساروا إلى البر الغربى ، ثم ركبوا البحر فى يوم السبت تاليه ، وأقلعوا إلى جهة عكا .

[لويس التاسع فى تونس]

واتفق أن الفرنسيس هذا ، بعد خلاصه من أيدى المسلمين ، عزم على الحركة إلى تونس من بلاد إفريقية ، لما كان فيها من المجاعة والموتان . وأرسل يستنفر ملوك النصارى ، وبعث إلى البابا(٢) . خليفة

---

(١) المعروف أن ملكة فرنسا « مرجريت دو بروفانس » رافقت زوجها فى تلك الحملة ، وبقيت بدمياط طول مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية . وهى التى جمعت المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية المقدرة .

(٢) كليمنت الرابع .

المسيح بزعمهم . فكتب البابا إلى ملوك النصارى بالمسير معه ، وأطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما شـــاء . فأتاه من الملوك ملك الإنكتار (١) ، وملك اسكوسنا [اسكتلندا] ، وملك ثورل [تولوز] ، وملك برشلونة واسمه ريداركون [ملك أراجون] ، وجماعة أخر من ملوك النصارى . فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله ابن الأمير أبى زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص عمر ، ملك تونس(٢) ، وبعث إليه رسله فى طلب الصلح ومعهم ثمانون ألف دينار . فأخذها الفرنسيس ولم يصالحهم ، وسار إلى تونس آخر ذى القعدة سنة ٦٦٨ [٢١ يوليو ١٢٧٠] ، ونزل بساحل قُرطاجَنَّة(٣) ، فى ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . وأقام الفرنسيس هناك ستة أشهر (٤) ، فقاتله المسلمون للنصف من محرم سنة ٦٦٩ [آخر أغسطس] ، قتالاً شديداً ، قتل فيه من الفريقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يُغلبوا ، فأتاهم الله بالفرج . وأصبح ملك الفرنجة [يوم ٢٥ أغسطس] ميتا . فجرت أمـــور آلت إلى عقد الصلح ومســـير النصارى . ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس ، اسمه ، أحمد بن اسماعيل الزيات ، قـــال :

---

(١) الانكتار المذكور هنا لم يكن ملكاً على انجلترا فى وقت هذه الحملة ، بل كان ولى العهد فقط واسمه إدوارد . أما ملك انجلترا إذ ذاك فهو هنرى الثالث والد إدوارد .

(٢) حكم تونس فى الفترة ما بين ١٢٤٩ و ١٢٧٧ م .

(٣) إحدى مدن تونس ، بينها وبين مدينة تونس إثنا عشر ميلا .

(٤) هذه المدة لا تتفق مع التواريخ المذكورة فى هذه الفقرة .

يا فرنسيس هذه أخت مصرٍ فتأهَّب لمــا إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قــبرا وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فألا عليه ، ومات .

وكان ريدا فرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مفكِّرا .

* * *

الجزء الرابع

المماليك واستئصال شأفة الصليبيين

الفصل الأول

فى الفترة ما بين عامى ١٢٦٥ و ١٢٩١ ، تمكّن ثلاثة من سلاطين المماليك ، وهم : الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) وقلاون (١٢٧٩ – ١٢٩٠) والأشرف (١٢٩٠ – ١٢٩٣) ، من القضاء على ما بقى فى أيدى الصليبيين بالشام . وسيكون إعتمادنا فى هذا الفصل على كتابات كل من المقريزى وعز الدين بن شداد وبدر الدين العينى ، ونورد خلاله نص الخطاب الشهير الذى بعث به الظاهر بيبرس إلى بوهيموند السادس عقب فتح أنطاكية .

(١)

[ذكر فتح الظاهر بيبرس لأنطاكية ورسالته إلى بوهيموند السادس]

[من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى ، الجزء الأول ، من صفحة ٥٦٦–٥٦٧]

سار السلطان [الظاهر بيبرس] إلى طرابلس ، وخيّم عليها فى النصف من شعبان [٦٦٦ / أواخر إبريل ١٢٦٨] . وناوش أهلها القتال ، وأخذ برجاً كان هناك ، وضرب أعناق من كان فيه من الفرنج(١) . وأغارت

---

(١) اقتصر الظاهر بيبرس هنا على مهاجمة البلاد المحيطة بطرابلس . ولم يستطع الأمير بيموند (بوهيموند) السادس ، وهو صاحب طرابلس وأنطاكية ، أن ينظم أى مقاومة ضد السلطان .

العساكر على من فى تلك الجبال ، وغنموا شيئاً كثيرا وأخذوا عدة مغاير بالسيف وأحضروا المغانم والأسرى إلى السلطان فضرب أعناق الأسرى ، وقطع الأشجار وهدم الكنائس ، وقسم الغنائم فى العسكر .

ورحل السطان عن طرابلس فى رابع عشريه ، فتلقّاه صاحب صافيتا وأنطرسوس بالخدمة ، وأحضر ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فشكره السطان ولم يتعرض لبلاده . ونزل السلطان على حمص ، وأمر بإبطال الخمر والمنكرات . ثم دخل إلى حماة ولا يعرف أحد أى جهة يقصد ، فرتب العسكر ثلاث فرق : فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخازندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان ، وفرقة مع السلطان . فتوجّه الخازاندار إلى السُّوَيْديّة ، وتوجه إيغان إلى درب بساك ، فقتلوا وأسروا . ونزل السلطان أفامية ، ووافاه الجميع على أنطاكية .

وأصبح أول شهر رمضان [١٢/٦٦٦ مايو ١٢٦٨] والسلطان مغير على أنطاكية ، وأطافت العساكر بها من كل جانب ، فتكملوا بخيامهم فى ثالثه . وبعث السطان إلى الفرنج يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم ، وفاوضهم فى ذلك مدة ثلاثة أيام وهم لايجيبون . فزحف عليها وقاتل أهلها قتالاً شديدا .وتسوّر المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا المدينة ، ففر أهلها إلى القلعة ، ووقع النهب والقتل والأسر فى المدينة ، فلم يُرفع السيف عن أحد من الرجال ، وكان بها فوق المائة ألف . وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لايفرّ منها أحد . واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النساء والأولاد : فبعثوا يطلبون الأمان ، فأمّنوا . وصعد السطان إليهم ومعه الحبال ، فكُتّفوا وفُرّقوا على الأمراء ، والكُتّاب بين يدى السلطان ينزلون الأسماء .

وكانت أنطاكية للبرنس بيموند بن بيموند ، وله معها طرابلس ، وهو مقيم بطرابلس . وكُتبت البشائر بالفتح إلى الأقطار الشامية والمصرية

والفرنجية ، وفى الجملة كتاب إلى صاحب أنطاكية — وهو يومئذ مقيم بطرابلس — وهو من إنشاء ابن عبد الظاهر رحمه الله تعالى ، [وإليك نصه] (١):

« قد علم القومص الجليل المبجّل المعزز الهمام الأسد الضرغام ، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ،كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته ، بأخذ أنطاكية منه ، من البرنسية إلى القومصيّة ،ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه. ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار . وكيف كُنِست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ؛ وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قُتِلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملّكت الحرائر ؛ وكيف قُطعت الأشجار ولم يُترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر ؛ وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشى ، وكيف استغنى الفقير وتأهّل العازب ، واستخدم الخديم وركب الماشى .

هذا وأنت تنظر نظر المغشىّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا : « علىّ هذا الصوت ! » . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخّرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود ؛ وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهى لدينا ماشية ، ولاجارية إلا وهى فى ملكنا جارية ، ولا سارية إلا وهى من أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعتك تلك المغاير التى هى فى رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التى

(١) نقلنا نص الرسالة من الملحق الثانى من ملاحق الجزء الأول لكتاب « السلوك » ، من ص ٩٦٦ إلى ص ٩٦٩ .

هى فى التخوم مخترقة وللعقول خارقة ؛ وكيف سُقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدّق أننا قد نبعد عنك، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وها نحن نُعلِمك بما تمّ ؛ ونفهمك بالبلاء الذى عمّ : كان رحيلنا عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرى شعبان ، ونزولنا أنطاكية فى مستهل شهر رمضان . وفى حالة النزول خرجت عساكرُك المبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نُصروا ، وأُسِر من بينهم كند اسطبل (١) ، فسأل مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأن رأيهم فى الخير مختلف ، وقولهم فى الشر واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدّر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : « نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول فى الإنذار والآخر » ، فرجعوا متشبّهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك . ففى بعض ساعة مرّ شان المرشان (٢) ، وداخل الرهبُ الرّهبان ولان للبلاء القسطلان (٣) ، وجاءهم الموت من كل مكان .

وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان [١٨ مايو] ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها . وما كان أحد منهم إلا وعنده شىء من الدنيا ، فما بقى أحد منا إلا وعنده شىء منهم ومنها .

---

(١) معرب اللفظ اللاتينى المركب « Comes stabuli » ومعناه حاكم القلعة وحارسها.
(٢) أى انتهى أمر المارشال . والمارشال فى مصطلح التأريخ الأوروبى فى العصور الوسطى « منظم الحفلات والمجالس » .
(٣) معرب اللفظ اللاتينى « Castellanus » وهو حارس القصر .

فلو رأيت خيّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهّابة فيها تصول ، والكسّابة (١) فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، وداماتك(٢) وكل أربع منهن تباع فتُشترى من مالك بدينار ، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزوّرة قد نُثرت ، وقبور البطارقة قد بُعثرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دُهموا بطارقة ، وأبناء المملكة قد دخلوا في المملكة ، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق : والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان (٣) وقد زلّت وزالت لكنتَ تقول . « ياليتني كنت تراباً ؟ وياليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً ! ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك . ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الإله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها ، والرب الذى أعطاك قلعتها منك قلعتها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعلم أنّا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام : وهو ديركوش وشقيف تلميس وشقيف كفر دنين ، وجميع ما كان في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ، وفرقناهم في الدّاني والقاصي ، ولم يبق شيء يُطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لما سُمّيَ بالعاصي ، وقد أجرى دموعه ندما ، وكان يذرفها عبرة صافية ، فما هو أحرها بما سفكناه فيه دما .

---

(١) أي الذين كان همهم كسب الغنائم .

(٢) تعريب للكلمة الفرنسية « dames » أي النساء .

« ٣ » كاتدرائية القديس بطرس بأنطاكية .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً . وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحىّ إذا شاهد الأموات . ولعل الله ما أخّرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات . ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبّرناك ، ولما لم يقــدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها ، باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك ، لتتحقق الأمر على ما جرى.

وبعد هــذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً » .

ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتدّ غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب .

(٢)

ذكر التفاوض مع صاحب عكا

من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى ،
الجزء الأول صفحة ٥٧١

وفى شوال وردت رسل صاحب عكا(١) بهدية ، فحصل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع ، وأن تكون مدينة عكا وبقيــة بلادها مناصفة هى وبلاد الكرمل ، وأن بلاد صيدا الوطاة للفرنج والجبليات للسلطان ، وأن الهدنة لعشر سنين ، وأن الرهائن تطلق . وبعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون نفساً من أسرى أنطاكية . وتوجه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث لاستحلافه

(١) كان صاحب عكا تلك السنة هيو الثالث ابن أخت صاحب قبرص .

فدخلا عكا فى عشرى شوّال [٦٦٦ / يوليو ١٢٦٨] ، وقد وصّاهما السلطان ألا يتواضعا له فى جلوس ولا مخاطبة . فلما دخلا كان الملك على كرسى ، فلما يجلسا حتّى وضع لهما كرسيين جلسا عليهما قبالته . ومدّ الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم يرضيا حتى مدّ الملك يده وأخذه . ولم يوافق على أشياء فتركوه ولم يحلف .

(٣)

[ذكر هدم حصن الأكراد](١)

[من كتاب « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة » لعزالدين بن شداد ، القسم الثانى ، من صفحة ١١٥ — ١١٧]

حكى منتجب الدين يحيى بن أبى طيء النجار الحلبي (٢) فى تاريخه ، فى سبب نسبته إلى الأكراد :

أن شبل الدولة نصر بن مرداس صاحب حمص أسكن فيه قوماً من الأكراد فى سنة ٤٢٢ [١٠٣١] ، فنسب إليهم ، وكان من قبل يُسمى « حصن السَّفح » . . . ولم أطّلع بعد سنة ٤٢٢ على شيء من أخباره ، إلى أن كانت أيام الأتابك ظهير الدين طغتكين بدمشق ، وقعت الهدنة [بينه وبين الفرنج على أن يكون حصن مصياف وحصن الأكراد داخلَيْن فى الموادعة ، ويحمل أهلها مالاً معيناً فى كل سنة إلى الفرنج] . ثم خرج بعدها طنكريد صاحب أنطاكية فى حشده وجنده ، فنزل على حصن الأكراد ، فتسلمه من أهله فى بقيـــة سنة ٥٠٣ [١١١٠] (٣) .

(١) بالفرنسية «Krak des Chevaliers» حصن يقع فى الشمال الشرقى من طرابلس ، وكان فى يد الإسبتار .

(٢) مؤرخ شيعى عاش فى القرن الثانى عشر ، ولم تصلنا من مؤلفاته سوى ما اقتبسه المؤرخون بعده من كتبه .

(٣) يقول أسامة بن منقذ فى « كتاب البلدان » وهو كتاب له مفقود : « إن الشهيد —

ولم تزل الفرنج فى هذا الحصن غير مكترثين بالجيوش ، ولو كانوا فى أكثر من القطر عدداً ، وأغزر من البحر مدداً . يشنّون منه الغارات ، ويدركون الثارات ، ويتوقلون منهما فى الرفعة برجىْ سماء ، ويتسلطون بهما على استنزال ما فى السحاب من ماء ، إلى أن قيض الله لفتحهما مولانا السلطان الملك الظاهر [بيبرس] ، فأنهد إليهما عزمات تُبارى الرياح الهُوج ، ويقصر عمّا يناله أيدى فتكاتها عُوج . فأوْطأ غَوْريهما ونجديهما رجاله وخيله ، ودأب فى قتالهما نهاره وليله ، حتّى أخذ من فيه بالنواصى وأنزلهم من أحسن القلاع والصّياصى .

نزل — أيده الله بنصره — على حصن الأكراد يوم الثلاثاء ١٩ رجب [٦٦٩/٣ مارس ١٢٧١] (١) ، ونصب على أسواره المجانيق . وكانت له ثلاثة أسوار وثلاث باشورات (٢) . وواصل الحصار إلى أن هدم الأسوار يوم الأربعاء العشرين من الشهر [٤ مارس] . ثم أخذت إحدى الباشورات فى الحادى والعشرين ، وتأخّر ما بقى منها لترادف الأمطار ، إلى أن فُتحت الثانية يوم السبت سابع شعبان [٢٢ مارس] ، وتُعرف بالحدّادية . ثم فُتحت يوم الأحد ١٥ من

= نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام — رحمه الله — كان قد عامل رجالة بعض التركمان المستخدمين من جهة الفرنج بهذا الحصن ، على أنه إذا قصد الشهيد هذا الحصن يقوم ذلك التركمانى وجماعته فى الحصن ، ويرفعون علم نور الدين على الحصن ، وينادون باسمه . وكان هذا التركمانى فى جماعة كبيرة من أولاده وأقاربه وعشيرته ، وقد وثق الفرنج بهم فى هذا الحصن . وكانت العلامة بينه وبين نور الدين أنه يقف على رأس الباشورة . واتفق للأمر المقدر أن نور الدين لم يظهر أحداً على هذا الاتفاق . وتقدمت أوائل العساكر ، فنظروا ذلك التركمانى واقفاً وهو آمن على رأس الباشورة ، فرموه بسهم فقتلوه . واشتغل أهله بموته ، فبطلت الحيلة ولم يقدر عليه نور الدين » .

(من كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » لابن أيبك الداودارى ، الجزء الثامن ، ص ١٥٤)

(١) فى « السلوك » للمقريزى ، و« تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات : أن نزول الظاهر على الحصن كان يوم ٩ رجب (٢١ فبراير) ، وهو الأرجح .

(٢) الباشورة : مقدم ما فى الحصن ، أو بناية متقدمة على الحصن لإيقاف العدو فى زحفه ، أو هى الحائط الظاهرى المحصون .

شعبان [٣٠ مارس] على يد نقّابيّ الملك السعيد (١) ومباشرة ملك الأمراء بدر الدين بيليك الخزندار . ثم دخلت العساكر الحصن بالسيف ، وقتلوا من فيه من الإسبتار ، وأسروا الجبليّة ، وعفا عن الفلاحين لعمارة البلد . فلما رأى أهل القلعة ما حلّ بأهل البلد طلبوا الأمان فأجيبوا . وتسلمها مولانا السلطان يوم الثلاثاء ٢٤ شعبان [٧ إبريل] ، وخرج من فيها إلى أطرابلس ، يسّر الله فتحها .

ثم رحل السلطان بعد أن ترك عليه الأمير عزالدين أيبك الأفرم لعمارة أسواره ، وولّى فيه نائباً (٢) .

(٤)

محاولة غزو جزيرة قبرص

[من كتاب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » لبدر الدين العينى
من صفحة ٢٢٩ — ٢٤٢]

يقول الحافظ ابن كثير (٣) إنه لما ملك السلطان السعيد ، ولد الظاهر ،

---

(١) الإبن الأكبر للظاهر بيبرس ، وقد خلف أباه فى السلطنة (١٢٧٧ — ١٢٧٩ م) .

(٢) كتب السلطان بيبرس بعد تسلم الحصن إلى رئيس فرسان الإسبتار ، وهو صاحب حصن الأكراد ، خطاباً هذا نصه : « إلى إفرير (Frére) أول جعله الله من لا يعترض على القدر ، ولا يعانده من سخر لجيشه النصر والظفر ، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ، ولا يحمى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر .

« نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد اللى حصنته وبنيته وخليته ، وكنت الموفق لو أخليته . وتكلفت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك . وماكانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى ، أو يخدم سعيداً ويشقى » .

هذا وفى الجملة الأخيرة من هذا الكتاب تورية ، فان المقصود بلفظ « سعيداً » هنا إبن السلطان بيبرس وولى عهده ، وهو اللى حاصر الحصن .

أما رئيس هيئة الفرسان الاسبتار فى تلك السنة فهو « Hugh Revel » .

(٣) مؤرخ عربى من القرن الرابع العشر .

حصن الأكراد ، جعل كنيسة البلد جامعاً ، وأقام فيه الجمعة ، وولى فيها السلطان نائباً و قاضياً ، وأمر بعمارة البلد . وبلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص كان قد ركب بجيشه إلى عكا نجدة لأهلها خوفاً من السلطان . فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة ، فبعث جيشاً كثيفاً فى ستة عشر شينياً ليأخذوا جزيرة قبرص فى غيبة صاحبها عنها . فسارت المراكب مسرعة . فلما قاربت المدينة جاءتها ريح قاصف ، فصدم بعضها بعضاً فانكسر فيها أحد عشر مركباً بإذن الله ، فغرق خلق ، وأسر الفرنج من الصناع والرجال قريباً من ألف وثمانمائة إنسان ، فإنّا لله وإنّا إليه رجعون .

ويقول بيبرس الدوادار (١) فى تاريخه إنه ... لما وصلت الشوانى إلى مرسى النمسون (ليماسول) تحت قبرص جنها الليل . وتقدّم الشينى الأول داخلا على أنه يقصد الميناء ، فصادف الشعاب فى الظلماء فانكسر . وتبعه الشوانى واحداً فواحداً ولم يعلم بما أصابه ، فانكسروا فى دجى الليل جميعاً ، وأسرهم أهل قبرص . وكان ابن حسون المقدّم قد أشار برأى تطيّر الناس منه ، وهو أن يطلى الشوانى بالقار ، ويعمل عليها الصلبان ليشبه على الفرنج بشوانيهم ، فتركن من موانيهم ، فاقتضى تغيير شعارها ما أراد الله من انكسارها .

وورد كتاب صاحب قبرص إلى السلطان بأن شوانى مصر وصلت إلى قبرص ، وكسرها الريح وأخذتها ، وهى أحد عشر شينياً . فأمر السلطان بأن يكتب إليه جوابه ، فكتب إليه هذه المكاتبة :

« إلى حضرة الملك أوك (هيو) ، جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ،

---

(١) أمير من أمراء المماليك ومؤرخ معروف . له كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » توفى عام ١٣٢٥ م .

ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخبر منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير ، وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرّفتنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك ينجح وبه يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين (١) وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ما كنا من العين (٢) ؟ وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح واتّكل واتّكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشىء في يوم واحد عدة قطايع ، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة . ونجهز مائة قلع ، ولا نجهز لكم في مائة عام قلعة . وما كل من أعطى مقذافاً قذف ، وما كل من أعطى سيفاً أحسن الضرب به عرف . وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد ، فعندنا من بحرية المراكب ألوف . وأين الذين يطعنون بالمقاديف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف ؟ وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول . وفرق بين من يجريها كالبحار ومن يقف به في الوصول ؛ وفرق بين من يتصيّد على الصفور من الخيل العراب ، وبين من إذا افتخر قال تصيّدت بغراب . فإن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة . وإن استوليتم على سكان ، فكم أخلينا بلادكم من سكان ، وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أينا أغنم . ولو أن في الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم » .

---

(١) قلعة في شمال شرقي عكا كانت معقلا للإسبتار .

(٢) ذكر المقريزي (السلوك : ج ١ ، ص ٥٩٤) أنه لما ورد خبر الحادثة على السلطان قال : « الحمد لله .. ! منذ ملكني الله تعالى الملك ما خذلت لى راية ، وكنت أخاف من إصابة عين ، فبهذا ولا بغيره » .

الفصل الثالث

لم تكن سلطنة قلاوون بأقل شهامة أو بسالة من سلطنة الظاهر بيبرس . وقد ميزت علاقاتها بالدويلات المسيحية الباقية فى الشام مجموعة من المعاهدات بين السلطان وبين فرسان الداوية وأهالى عكا ومرجريت صاحبة صور . وقد حفظ لنا محيي الدين ابن عبد الظاهر نص هذه المعاهدات فى كتابه « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » .

غير أن قلاوون استمر فى استيلائه على الأراضى اللاتينية فى الشام ، وسجل أعظم انتصاراته بفتحه طرابلس عام ١٢٨٩ ، وهو ما شهده المؤرخ أبو الفدا . ولم يبق فى أيدى الفرنج — بعد سقوط طرابلس — غير عكا وعدد قليل من المدن الساحلية .

(١)

[ذكر الهدنة التى استقرت بين السلطان قلاوون وفرسان الداوية بأنطرطوس (١)]

من كتاب « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور »
لابن عبد الظاهر ، ص ٢٠ — ٢٢

وفى هذه السنة (٦٨١ / ١٢٨٢) ، استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين على ، وبين المقدم أفرير كليـــام ديباجوك (٢) مقدم بيت الديوية

---

(١) طرطوس .
(٢) Frère Guillaume de Badjouk

(الداوية) ، بعكا والساحل ، وبين جميع الإخوة الديوية بأنطرطوس ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة شهور ، أول ذلك يوم الأربعاء خامس المحرم سنة ٦٨١ ، الموافق ١٥ من نيسان سنة ١٥٩٣ للإسكندر بن فيلبس اليونانى (١) (١٥ إبريل ١٢٨٢) ، على بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ، وبلاد ولده السلطان الملك الصالح علاء الدين على(٢)، وعلى كل ماهو داخل فى مملكتهمامن الديار المصريةوأعمالها وثغورها وموانيها وبلادالشام وحصونها وقلاعهاوسواحلها و موانيها ، والمملكةالحمصية وبلادها وأعمالها ، و قلاع الدعوة (الإسماعيلية) وبلادها وأعمالها ، ومملكة صهيون وَبلاَطُنس ، وجَبَلَة واللاذقية وما أضيف إلى ذلك ، والمملكة الحَمَوِيّة وبلادها وأعمالها ،والمملكة الحلبية وأعمالها وبلادها ، والفراتيّة وبلادها وأعمالها ، والفتوحات الساحلية ، وبلاد حصن الأكراد وبلادها وأعمالها ، وما هو داخل فيها ومنسوب إليها ومحسوب منها ، حين استقرار هذه الهدنة ، من بلاد وقرى ومزارع ومُرَاجات وأراض وأبراج وطواحين وغير ذلك ، ومملكة صافيناوبلادهاوأعمالهاوقراهاوأسوارها، وما استقر لهاوانضاف من القرى والبلاد إلى آخر وقت ، ومَيْعاز وأعمالها ، والعريمة وأعمالها ، وما هو مستقر لها ومنسوب إليها ، وجلَبَا وأعمالها ، وعَرْقا وأعمالها ، وطيبُوا وأعمالها ، وقلعة حصن الأكراد وأعمالها وبلادها ، والقُلَيْعات وأعمالها وبلادها ، ومَرْقيّة بكمالها وبلادها ، وما وقع الاتفاق عليـــه فى مناصفات بلاد المرقَب ، وكل ما تضمَّنته الهدنة معهم المستقرة فى الأيام المنصورية ، وكل ما فى هذه البلاد القريب منها والبعيد ، والمحادد والمجاور وغير ذلك من عامر وداثر ، وسهل ووعر ، وبر وبحر ، وموان وسواحل ، وما هو فى هذه البلاد من طواحين وأبراج وبساتين وأنهار ومياه وشجيرات

---

(١) تقويم يبدأ بعام ٣١١ ق.م.

(٢) ولى عهد قلاون الذى توفى قبل والده وذلك عام ١٢٨٨ م .

ودَحْل (١) ، وكل ما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور ، ويد ولده السلطان الملك الصالح ، وعلى يد مقدّمى جيوشه وعساكره، من حصون ومدن وقلاع وقرى وما يتخلّل ذلك من سهل وجبل ، وعامر وداثر ، وأنهار وبساتين ، وموان وسواحل وبرور ، وعلى أنطرطوس الجارية فى يد بيت الديوية ، وعلى بلادها المستقرة إلى آخر وقت عند استقرار هذه الهدنة المباركة، وما انضاف إلى بلادها من بلاد العريمة وميعار بمقتضى الهدنة الظاهرية (٢) التى حُمِل الأمر على حكمها . وهى سبعة وثلاثون ناحية على ما فُصِّل فى الهدنة ، على كل ما تحويه بلاد مولانا السلطان جميعها ، من المقدم أفرير كليام د بياجوك ، مقدم بيت الديوية ، ومن سائر الإخوة بأنطرطوس من جميع الخيّالة والتركبلية (٣) والفرسان، وسائر الأجناس الفرنجية .

لا يتخطّى أحد من أنطرطوس وبلادها وميناها وسواحلها إلى بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ، وبلاد ولده السلطان الملك الصالح ، ولا إلى قلاعهما، ولا إلى حصونهما ،ولا إلى بلادهما ، ولا إلى أراضيهما، ما عُيِّن فى الهدنةوما لم يُعيِّن،وتكون أنطرطوس وبلادها المعيّنةفىالهدنة ، ومن بها من الإخوة والفرسان والرعايا وغيرهم ، القاطنين والمترددين آمنين مطمئنين من مولانا السلطان الملك المنصور ، ومن ولده ، ومن عساكرهما ومن هو داخل فى حكمهما، ولا يتخطى أحد إلى أنطرطوس ولا إلى بلادها ولا رعاياها بمكروه ولا غارة ، إلى انقضاء الهدنة ، وعلى أن الممنوعات تستمر على قاعدة المنع .

وعلى أنه متى انكسر مركب أو انعاب ، من بلاد مولانا السلطان ومن

---

(١) الدحل : الصهريج يجمع فيه الماء .

(٢) نسبة إلى الظاهر بيبرس . ولم يحفظ لنا التاريخ صورة هذه الهدنة المشار إليها هنا .

(٣) أصحاب الصنعة .

المترددين إليها وغيرها من سائر البـلاد والأجناس والناس ، فى ميناء أنطرطوس وسواحلها وبروزها الداخلة فى الهدنة ، يكون كل من فيها آمنين على النفوس والأموال والمتاجر والبضائع والرجال . فإن وُجد صاحب الذى انكسر أو انعاب ، يسلَّم إليه مركبه وماله ، وإن عُدِم بموت أو غرق فيُحتفظ بموجوده ، ويسلَّم لنواب مولانا السلطان . ويكون هذا الحكم لما ينكسر فى بلاد مولانا السلطان من مراكب أنطرطوس .

وعلى أنه لا تُجدَّد فى بلاد أنطرطوس المعينة فى هـذه الهدنة قلعة ولا برج ولا حصن ولا ما يُتحصَّن به من حفر خندق ، ولا غير ذلك .

(٢)

هدنة عـكا

(من كتاب « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » لابن عبد الظاهر ، ص ٣٤ — ٤٣)

وفى هذه السنة (٦٨٢ / ١٢٨٣) أجاب مولانا السلطان مسألة أهل عكا عندما تكررت رسلهم إلى خدمته فى الشام ومصر ، بسبب الصلح ، ومنَعهم من الحضور فى البر ، وأنهم لا يحضرون إلا فى البحر إن أرادوا الحضور ، فحضروا فى البحر . وآخر الأمر أنهم نزلوا على حكمه بعد أن اشتطوا عند انقضاء الهدنة الظاهرية . ولما كان فى صفر من هذه السنة (مايو ١٢٨٣) ، حضرت رسلهم وأكابرهم وعقدوا الهدنة . وحلف مولانا السلطان عليها بحضور رسل الفرنجية ، وهم نفران من بيت الديوية إخوة ، ونفران من بيت الاسبتار إخوة ، ومن الملوكية فارسان : كليام والى الولاة ، والوزير فهد . وهى :

« استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور ، وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علىّ ، خلّد الله سلطانهما ، وبين الحكام

بمملكة عكا وصيدا وعَثْليث وبلادها التى انعقدت عليها هذه الهدنة ، وهم السنجال أود ، كفيل المملكة بعكا ، والمقدم أفرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية ، والمقدم افرير نيكول للورن مقدم بيت الاسبتار ، والمارشان افرير كورات نائب بيت مقدم اسبتار الأمن ، لمدة عشر سنين كوامل ، وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولهـا يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة ٦٨٢ للهجرة النبوية ، الموافق الثالث من حزيران سنة ١٥٩٤ لغلبة الإسكندر ابن فيلبس اليونانى (٣ يونيو ١٢٨٣) ، على جميع بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ، وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين على ، وجميع القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع والأراضى ، وهى (١) : مملكة الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية ، وثغر دمياط وثغر الإسكندرية ونستروة وسنترية وما ينسب إلى ذلك من الموانى والسواحل والبرور ، وثغر فوة رشيد ، والبلاد الحجازية ، وثغر غزة المحروس وما معها من الموانى والبلاد ، والمملكة الكركيّة والشوبكيّة وأعمالها ، والصّلت وأعمالها ، وبصرى وأعمالها ، ومملكة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، ومملكة القدس الشريف وأعمالها ، والأردن وبيت لحم وأعماله ، وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها ، وبيت جبريل ، ومملكة نابلس وأعمالها ، ومملكة الأطْرون وأعمالها ، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها ، ومملكة يافا والرملة وميناها وأعمالها ، وأرسوف

(١) تنطق القائمة الطويلة التالية التى تذكر ممالك سلطان مصر الكثيرة من الشمال إلى الجنوب ، والأراضى القليلة للطرف الآخر فى الاتفاقية ، بحقيقة انكماش أراضى الفرنج بالشام فى ذلك الوقت. وقد تضاءلت مملكة القدس بحيث باتت قاصرة على شريط ساحلى ضيق يمتد من عكا حتى الكرمل . وكل ما كان يملكه الفرنج فيما عدا ذلك هو صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعض مواقع الشام كانت فى يد الداوية والاسبتار . والواقع أن قائمة ممالك السلطان قلاون ابتداءاً من القدس هى قائمة بالأراضى التى فقدها الصليبيون خلال القرن السابق على الاتفاقية ، أو حاولوا عبثاً الاستيلاء عليها .

وأعمالها وميناها ، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها ، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها ، ولد وأعمالها ، وأعمال العَوْجا وما معها من الملاّحة ، وبلاد الفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها ، وبيسان وأعمالها وبلادها ، والطور وأعماله ، واللجون وأعماله ، وجنين وأعمالها ، وعين جالوت وأعمالها ، والقيمون وأعماله وما ينسب إليه ، وطبريةو بحيرتها وأعمالها وما معها ، والمملكة الصفدية وما ينسب إليها ، وتبنين وهونين وما معها من البلاد والأعمال ، والشقيف المعروف بشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه ، وبلاد القرن وما معه خارجاً عما عين فى هـــذه الهدنة ، ونصف مدينة إسكندرونة ، ونصف ضيعة مارن بقراهما وكرومهما وبساتينهما وحقوقهما ، وما عدا ذلك من اسكندرونة المذكورة ، يكون جميعه بحدوده وبلاده لمولانا السلطان ولولده ، والنصف الآخر لمملكة عكا والبقاع العزيزى وأعماله ، ومشغرا وأعمالها ، وشقيف تيرون وأعماله ، والعامر جميعها فى لايا وغيرها ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة وما معها من البحيرات وأعمالها ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجاون وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية وما لها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها ، وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزية وأعمالها ، وفتوحات حصن الأكراد وأعماله ، وصافيثا وأعمالها ، وميعار وأعمالها ، والعريمة وأعمالها ، وقدفيـــا وأعمالها ، ومرقية وأعمالها ، وحلب وأعمالها ، وحصن عكار وأعماله وبلاده ، والقليعة وأعمالها ، وقلعة شيرز وأعمالها ، وأفامية وعمالها ، وجبلة وأعمالها ، وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو منضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل فى الفتوحات المباركة ، وبغراس وأعمالها ، والدربساك وأعماله ، والراوندان وأعمالها ، وجازم وأعمالها ، وعينتاب وأعمالها ،

وتبزين وأعمالها ، رسيخ الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف ديركوش وأعمالها ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزاعا وأعمالهما ، والبيرة وأعمالها ، والرجية وأعمالها وسلمية وأعمالها ، وشميميس وأعمالها ، وتدمر وأعمالها ، وما هو منسوب إلى جميع ذلك ، ما عُيّن وما لم يعين ، من الحكام بمملكة عكا وهم : كفيل المملكة ، والمقدم إفرير كنيام ديباجوك مقدم بيت الديوية ، والمقــدم إفرير نيكول لورن مقدم بيت الاسبتار ، والمـــارشان إفرير كورات نائب مقدم بيت اسبتار الأمن ، ومن جميع الفرنج الإخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية ، الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينـــال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ، وبلاد ولده السلطان الملك الصالح ، ولا حصونهما ولا قلاعهما ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربهمـــا ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس والأنفار ، ولا ما تحويه من المواشي والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية أيديهم ، وكذلك كل ما يستفتحه مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح على يدهما ويد عساكرهما ونوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات ، براً وبحراً ، سهلا وجبلا . وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة من البلاد الساحلية وهي : مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وطواحينها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها ، وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة ، وعدتها بما فيها من مزارع ثلاثة وسبعون ناحية خاصا للفرنج . وكذلك حيفا والكروم والبساتين والعدة بحيفا سبع نواحي . وكذلك مارسا بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج . وكذلك دير السياج ، ودير مار لياس ، يكون للفرنج . ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصاً عفا والمنصورة وباقي بلاد الكرمل ، وهي ثلاث عشرة ناحية للفرنج ، وعثليث القلعة

والمدينة ، والبساتين التى قطعت ، والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها . ويكون لها من البلاد ست عشرة ناحية وتكون خاصاً لمولانا السلطان ما يذكر : وهو قرية الهراميس بكمالها وحقوقها ومزارعها ، وبقية بلاد عثليث تكون مناصفة خارجاً عما للخاص الشريف وعما لخاص عثليث يكون مناصفة ، وهى ثمان نواحى . وفلاحة الاسبتار يعمل قيسارية يكون خاصاً للفرنج بما فيها . ونصف مدينة إسكندرونة ونصف قرية مارن بما فيها للفرنج ، وما عدا ذلك يكون خاصاً لمولانا السلطان . ومهما كان فى اسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والغلّة يكون مناصفة . وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصاً للفرنج ، ويكون لها من البلاد خاصاً خمس عشرة ناحية ، وما فى الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقى أراضيهم يكون خاصاً لهم . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان ولولده بكمالها .

وتكون هذه البلاد العكاوية وما عين فى هذه الهدنة آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه ، وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة فى هذه الهدنة المباركة ، ما هو خاص وما هو مناصفة ، آمنة مطمئنة ومن بها . وليس للفرنج أن يجددوا فى غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار فى هذه الجهات الثلاث ، سورا ولا قلعة ولا برجا ولا حصنا قديماً ولا مستجداً ، وعلى أن شوانى مولانا السلطان وشوانى ولده متى عمرت وخرجت ، لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التى انعقدت الهدنة عليها . وإذا قصدت الشوانى المذكورة جهة غير هذه الجهات ، وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التى انعقدت الهدنة عليها ولا تتزود منها . وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التى تقصدها الشوانى معاهداً للحكام بمملكة عكا ، فلها أن تدخل إلى بلادها

وتتزود منها . وإن انكسر شيء من هذه الشواني — والعياذ بالله — في ميناء من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها ، فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهد أو مع مقدمها ، فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمى البيوت حفظها ، ويمكن رجالها من الزواد وإصلاح ما انكسر فيها والعود إلى البلاد الإسـلامية . ويبطل حركة ما ينكسر منها أو يرميه البحر ، فإن لم يكن الذى تقصده الشوانى معهم وانكسرت فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة ، وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها . ويعتمد هذا الفصل من الجهتين . وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك البحر الفرنجية وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لمضرة مولانا السلطان أو مضرة ولده فى بلادهما المنعقدة عليها هذه الهدنة ، فليلتزم نائب المملكة والمقدمون بعكا تعريف مولانا السلطان بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين ، وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون برآء من عهدة اليمين فى هذا الفصل. وإن تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق إليه من الجهتين فيعرف الجهة الأخرى ، وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية — والعياذ بالله — عدو من التتار وغيرهم ، فى البر ، وانحازت العساكر قدامهم ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فلكفيل المملكة بعكا [والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه .

فإن حصل جفل (١) — والعياذ بالله — من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، فليلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين ،

---

(١) انتقال .

حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم ، وعلى أن نائب المملكة بعكا والمقدمين يوصون فى سائر البلاد الساحلية التى وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمكّنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء ، وإن ظفروا بأحد منهم يمسكوه ، وإن باعوا عندهم بضائع ، يمسكوا حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد مولانا السلطان فى أمر الحرامية هذا الاعتماد . وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب ، كبيرهم وصغيرهم ، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة . ويصلى بالكنيسة الأقسّاء والرهبان . وتكون البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين فى توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة فى هذه الهدنة . وإذا نقبت الحجارة التى بالكنيسة ترمى برّا ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء . ولا يتعرض إلى الأقسّاء والرهبان فى ذلك على وجه الهبة بغير حق(١) » .

وتضمنّت الهدنة تقدير الشروط الجارى بها العادة .

ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة ، توجه الأمير فخر الدين أياز أمير حاجب ، والقاضى بدر الدين بن رزين ، لتحليف الفرنج ، فحلفوا ، واستقر ذلك .

---

(١) كان يسمح ببقاء الكنائس بالديار الإسلامية بشرط الامتناع عن تجديدها أو بناء غيرها . وكانت بعض السلطات المحلية تتلقى فى بعض الأحيان « الهبات » من القساوسة والرهبان ، نظير السماح لهم بهذا التجديد أو البناء .

(٣)

نسخة اليمين التى حلف السلطان عليها فى هذه الهدنة

[من كتاب « تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات
الجزء السابع ، صفحة ٢٧٠]

أقول وأنا ...(١) ، والله والله والله ! وبالله وبالله وبالله ! وتالله وتالله وتالله ! والله العظيم الطالب الغالب ، الضار النافع ، المدرك المهلك، عالم ما بدا وما خفا ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم . وحق القرآن ومن أنزله ، ومن أنزل عليه ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقال فيه من سورة سورة وآية آية ، وحق شهر رمضان ، إننى أفى بحفظ هذه الهدنة المباركة التى استقرّت بينى وبين مملكة عكا والمقدمين بها ، على عكا وعثليث وصيدا وبلادها ، التى تضمنّها هذه الهدنة ، التى مدّتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة ٦٨٢ للهجرة ، من أولها إلى آخرها ، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها ، وأجرى الأمور على أحكامها ، إلى انقضاء مدتّها ، ولا أتأوّل فيها ولا فى شىء منها ، ولا أستفتى فيها طلبا لنقضها(٢) ، ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليث ، وهم كافل المملكة بعكا ، ومقدم بيت الديوية ، ومقدم بيت الإسبتار ، ونائب مقدم بيت إسبتار الأمن الآن ، ومن يتولى بعدهم فى كفالة مملكة ، أو مقدم بيت عنهم بهذه المملكة المذكورة ، وافين باليمين التى يحلفون بها لى ولولدى الملك الصالح ولأولادى ، على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن ،

---

(١) بياض فى الأصل ، والمقصود به أن يوضع اسم السلطان أو من ينوب عنه فى ذلك .

(٢) كان طلب الفتوى سبيلا معهوداً لنقض الإلتزامات ، سواء عند المسلمين أو الفرنج فى ذلك العصر .

عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها ، إلى انقضاء مدتها، ملتزمين بأحكامها. وإن نكثت فى هذه اليمين فيلزمنى الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة ، حافيا حاسرا ثلاثين حجة ، ويلزمنى صوم الدهر كله إلا الأيام المنهى عنها » .

ويذكر بقية شروط اليمين .

« والله على ما نقول وكيل » .

(٤)

نسخة يمين الفرنج التى حلفوا بها فى هذه الهدنة

[من كتاب « تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات ،
الجزء السابع ، صفحة ٢٧١]

« والله والله والله ! وبالله وبالله وبالله ! وتالله وتالله وتالله ! وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح ! وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب ! وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، المكنى بها عن الأب والإبن والروح القدس إله واحد . وحق اللاهوت المكرّم الحالّ فى الناسوت المعظّم . وحق الإنجيل المطهّر وما فيه ، وحق الأناجيل الأربعة التى نقلها متّى ومرقس ولوقا ويُحَنّا ، وحق صلواتهم وتقديساتهم ، وحق التلاميذ الإثنى عشر ، والإثنين وسبعين ، والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة ؛ وحق الصوت الذى نزل من السماء على نهر الأردن فزجره ، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، وحق الستّ ماريا أم النور مارت مريم ، ويوحنا المعمودين ومرتمان ومرتمانى ، وحق الصوم الكبير ، وحق دينى ومعبودى وما أعتقده من النصرانية ، وما تلقنته من الآباء والأقساء المعمودية ، إننى من وقتى هذا وساعتى هذه ، قد أخلصت

نيتي ، وأصفيت طويتي ، في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما ، بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد الصلح عليها ، على مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها ، التي مدتها عشر سنوات كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم الخميس ثالث حزيران سنة ١٥٩٤ للإسكندر ابن فيلبس اليوناني ، وأعمل بجميع شروطها شرطاً شرطاً ، والتزم الوفاء بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى انقضاء مدتها .

وإني والله ! وحق المسيح ! وحق الصليب ! وحق ديني ! لا أتعرض إلى بلاد السلطان وولده، ولا إلى من حوته وتحويه من سائر الناس أجمعين ، ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، بأذية ولا ضرر ، في نفس ولا في مال . وإني والله ! وحق ديني ومعبودي ! أسلك في المعاهدة والمهادنة ، والمصافاة والمصادقة ، وحفظ الرعيـــة الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية ، والصادرين منها وإليها ، طريق المعاهدين المتصادقين ، كفّ الأذية والعدوان عن النفوس والأموال ، والتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة إلى انقضائها ، ما دام الملك المنصور وافياً باليمين التي حلف بها على الهدنة ، ولا أنقض هذه اليمين ولا شيئاً منها ، ولا أستفتي فيها ولا في شيء منها طلباً لنقضها . ومتى خالفتها أو نقضتها فأكون بريئاً من ديني واعتقادي ومعبودي ، وأكون مخالفاً للكنيسة ، ويكون عليّ الحج إلى القدس الشريف ثلاثين حجة ، حافياً حاسراً ، ويكون عليّ فك ألف أسير مسلمين من أسر الفرنج وإطلاقهم ، وأكون بريئاً من اللاهوت الحال في الناسوت ، واليمين يميني ، وأنا فلان ، والنية فيها بأسرها نية السلطان الملك المنصور ، ونية ولده الملك الصالح ، ونيّة مستحلفي لهما بها على الإنجيل المكرّم ، لا نية لي غيرها ، والله والمسيح على ما نقول وكيل» .

(٥)

ذكر فتوح حصن المرقب

[من كتاب « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور »
لابن عبد الظاهر من صفحة ٧٧ — ٨١]

وهو حصن عظيم منيع ، مازال مولانا السلطان الملك المنصور ، نصره الله ، يدأب فى أمره ، ويتحيل فى تحصيله للإسلام ويستفيد الرأى والتدبير فى افتتاحه وإصحاب جماحه ، لأنه كان قد أعجز الملوك ، ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه ، فكيف النزول عليه .

واجتهد الملك الظاهر فى الإغارة عليه مراراً فما قدّر الله ذلك ولا سهّله ولا عاج عن قسْميّته ولا عجّله . وتوجه إليه مرّة من حماة فصادفته ثلوج وبَرَد وأمطار ، وحجبته عنه وحجزته المضايق والأوعار . ومرة من غير حماة ولم يحصل له منه قصد بالجملة الكافية . وخبّأه الله لمولانا السلطان ليكون من فتوحاته المنيرة ولتطرّز به أحسن سيرة . وكان بيت الإسبتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم ، وكثر فسادهم ، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كأنهم فى حبس ، بل فى رمس . وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا حيلة ، وأن الحياة فيه قليلة ، واستمروا على هذا الطغيان ، ولم يقفوا عند الأيمان . وعملوا فى نوبة القُلَيْعات كل قبيح من الغدر والأسر والنهب (١) ، ومولانا السلطان المنصور رابض لهم كالأسد الهصور ، وهو يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار . وكلما أوقدوا ناراً لحرب أمدّته من الهداية الربانية الأنوار .

(١) كان الاسبتار قد هاجموا القليعات قبل التوقيع على اتفاقية الهدنة السابق الإشارة إليها بوقت قصير .

وجهّز المجانيق من دمشق ولا يعلم أحد إلى أين تسير ، ولا إلى أين المصير . والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعددهم ، وهى كثيرة لا تُحصى كثرة . ومن الناس من يقول إن العزم إلى قلعة الروم (١) ، ومنهم من يقول إلى غير ذلك . وكان قد جهّز مولانا السلطان زردخاناه عظيمة من مصر ، فيها أحمال كثيرة من النّشاب وغيره . وكذلك فرّق على الأمراء والجندنشاب يحملونه معهم ليحضروه إذا طلب منهم . وجهزت آلات من الحديد والنّفط مما لا يوجد إلا فى ذخائره وخزائن سلاحه . كل ذلك سبق تجهيزه قبل سفره وتوجهه . واستخدمت جماعة كبيرة من الصناع الذين لهم خبرة بالحصارات ، ودربة بالمنازلات . وجهزت المجانيق التى فى القلاع المجاورة ، وجرّدت رجالها من غير رهج ولا إظهار شىء . وحملت المجانيق والآلات على الأعناق والرؤوس . ورحل مولانا السلطان من على منزلة عيون القصب مجدا ، فنازل حصن المرقب فى يوم الأربعاء العاشر من شهر صفر [٦٨٤/ ١٧ إبريل ١٢٨٥] . وللوقت حملت المجانيق على الأكتاف فى تلك الأكناف ، وطاف البلاء بهذا الحصن من كل مكان ، ونفذوا فى حصاره بأعظم سلطان . ونصبت المجانيق الفرنجية والقرابغا (٢) ومن جملة ذلك مجانيق فرنجيـة كبارا ثلاثة ، ومجانيق قرابغا ثلاثة ، ومجانيق شيطانية (٢) أربعة ، بحيث إنها طافت بها من كل مكان ، واستمرت ترمى من الحجارة بما يتطاير شرره ، ويتنوع ضرره . وأُخِذَت النقوب من كل جانب .

واتفق أن المجانيق الفرنجية كسرت مجانيق الفرنج ، وتقدمت الإسلامية إلى قريب القلعة . فأصلح الفرنج مجانيقهم ورموا على المجانيق الإسلامية ،

(١) عند أعالى نهر الفرات .

(٢) مجانيق قرابغا ومجانيق شيطانية : نوعان من المجانيق .

فكسروا بعضها ، وقتل تحتها جماعة من المسلمين . ولا خلاف فى أن الحرب سجال ؛ وما فى كل موطن تسلم فى الحرب الرجال . وانتهى النّقب السلطانى وحُشى بالأحطاب ، وأوقد فى يوم الأربعاء ١٧ من شهر ربيع الأول [٢٥ مايو] ، فعملت النيران فى وسط النقب فى البرج الذى فى قُرنة الباشورة . وزحف المسلمون ليطلعوا الباشورة ، واشتد القتال ، وقصد المسلمون الصعود فما تمكنوا ، فبطل الزحف . وانفصل هذا النهار وسقط البرج ، وتوهم الناس عُسر التوصل إلى الحصن . وبات الناس فى قلق عظيم لأجل ذلك ، لأن الحيلة من المجانيق بطلت بسبب ما عرض ، والنقوب انتهى الحال فيها ، وما بقى تدبير إلا من الله عز وجل .

فلما كان يوم الجمعة [١٩ من ربيع الأول] أنزل الله تعالى لطفه وأجمل عطفه ، وأنجد ملائكته المقربين وجنوده أجمعين . فنزلت لنصرة الإسلام مسرعين ، وخيّل الله للفرنج أن النقوب فى بقية الأسوار على هذه الصورة ، وأن النقوب تخرج إلى الخنادق ، ومنها إلى الأبراج ، وتتعلق حينئذ فى الأسوار . وكانت النقوب قد أخذت من تحت الخنادق فى أسربة إلى تحت الأبراج ، والفرنج لا يشعرون بذلك . فاطلعوا على ذلك فسقط فى أيديهم ، وحلّ الخذلان فى ناديهم ، وتحققوا أنهم قتلى بغير شك ، وأن أسيرهم لا يفلت . وطلبوا الحديث فى الأمان ، والمعاملة بالعفو والإحسان . وبعد أن كانوا يؤثرون الموت على الحياة ، صاروا يؤثرون الحياة على الموت . وتحقّقوا أنهم إن غفلوا عن أنفسهم فات فيهم الفوت . فطلبوا رحمة مولانا السلطان وعفوه . فاقتضى الحال أن مولانا السلطان رأى اختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم أولى من التطويل فى حصاره ، وأن التأخير له آفات ، والأولى الاهتمام بما هو آت ، وأن الفرنج الذين بهذا الحصن إن سلموا من نار السيوف ، لا يسلمون من

نار الحتوف . فأجابهم إلى العفو والأمان ، ووثقوا بأن قول مولانا السلطان هو أعظم من الأيمان . فسيّروا أكابرهم إلى الدهليز المنصور ، ولم يسألوا غير الأمان على النفوس لا غير ، وألا يخرج معهم لا مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصة . ومن له مال يتعلق بنفسه ينعم عليه به . وشفع الأمراء فيهم ، وقبّلوا الأرض بين يدى مولانا السلطان ، ورغبوا فى إجابة سؤالهم . فأطلق لهم لركوب أكابرهم من الخيل والبغال خمسة وعشرون رأساً وملبوساً . وما عيّنوه من مال لبعضهم ، وهو ألفان ديناراً صوريا . وكُتبت لهم أمانات . وصعدوا ومعهم الأمير فخر الدين المقّرى الحاجب ، فحلّف الجسْطلين وبقية الفرسان ، وسلموا الحصن جميعه فى ثامن ساعة من نهار الجمعة ١٨ من شهر ربيع الأول [٢٥ مايو] وصعد السنجق الشريف السلطانى المنصورى المنصور ، وارتفعت ألسنة العالم بالأدعية لمولانا السلطان الذى أرّتهم أيامه هذا الفتح الذى طالما تقاصرت عنه الهمم، وشابت دون الإلمام به اللّمم .

وطلع المسلمون وأُعلن أعلاه بالأذان والتسبيح ، والشكر لله على إهلاك عبدة المسيح ، وإخلاء ديارهم منهم ، وأنهم لم تغن نيّتهم شيئاً عنهم . وكُتبت البشائر إلى جميع الأقطار ، وسُيرّت به البريدية إلى كل جهة . وطلع مولانا السلطان إلى الحصن يوم السبت ، واجتمع الأمراء والأكابر فى خدمته ، وضرب مشورة بين يديه فى هدم القلعة أو إبقائهم. فمنهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بهذا . ورأى مولانا السلطان يتّقد نوره نفاذا ، فرأى إبقاءها لحصانتها ومنعتها ، وتحسينها وتزيينها ، وصمّم على إبقائها حسرة فى قلوب الكفار ، وعضدا للحصون التى لها عليها حق الجوار ، ورتب بها ألف راجل أقجية وجرخية (١) ومقاتلة ، أربعمائة من أرباب الصنائع . ورتب بها جماعة من الأمـــراء أصحاب

---

(١) الأقجية والجرخية : فرقتان من فرق الجيش .

الطبلخانات ، وجماعة من البحرية الصالحيـة والمنصورية مائة نفر وخمسون نفراً. ونقل المنجنيقات التي كانت ترمى عليها فصارت ترمى منها. وكذلك الآلات والأخشاب والأحطاب والنشاب والزردخاناه ، والنفط ، ومن كل شيء كان في الصحبة الشريفة من أصناف الحصن وآلاته ، ورتّب لها خاصا من بلاد كفر طاب ومدينة أنطاكية ومدينة اللاذقية والمينا وبلاد المرقب التي كانت خاصا له ، وما كان مقطعا قبل الفتح. وجملة ما يتحصل منه عند عمارته ألف ألف درهم . ورتب كُلَف عمارته ونفقات رجاله على البلاد إلى أن تعمر وتتراجع أهلها .

ولما تمت هذه الأمور ، رحل مولانا السلطان — نصره الله — فنزل بالوطأة على مدينة بليناس.

(٦)

ذكر افتتاح مَرَقيَّة وحصنها وهدمها

[من كتاب « تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » لابن عبد الظاهر ، من صفحة ٨٧ — ٩٠]

ولما فرغ مولانا السلطان — نصره الله — من مهمات المرقبَ ، ونزل بالوطأة على ما ذكرناه ، وشرع في أمر حصن مَرَقيَّة ، وأعمل الرأى في افتتاحه ، وتحقق أنه بين أحشاء تلك الحصون داء دخيـل ، وأنه لا يحصل راحة ولا أمن بوجوده وبقائه . وصاحبه يعرف ببرتلما [برتُلوميو] أحد أكابر الفرنج . وكان لما فُتح حصن الأكراد لم يطق الإقامة بهذه البلاد وضاقت به ، فهجّ على رأسه ، ودخل إلى التتار مستجيرا ومستميرا ومستنصراً ومستكثرا . وأقام سنين على هذه الحالات .

ولما مات الملك الظاهر — رحمه الله — عاد إلى هذه البلاد ، واغتنم الفرصة وطلب عمارة مرقية ، فعجزت قدرته وخاف أن تؤخذ منه .

فعمر حصنا قبالتها وحصّنه وحسّنه وأعانه الأبرنس صاحب طرابلس عليه ، وأمدّه وأعانه آخرون من الفرنج الاسبتارية أهل المرقب وغيرهم. وهذا البرج بين أنطرطوس وبين المرقب فى البحر المالح قُبالة مدينة مرقية ، وبينه وبين البحر رَمْيتان للسهم السريع وأكثر . وصفته أنه برج مربع ، عرضه قريب من طوله ، كل جانب منه خمسة وعشرون ذراعاً ونصف بالعمل ، وعرض سوره سبعة أذرع . وهو سبع طباق، وبنى على مراكب غُرِّقت فى وسط البحر ، فيها أحمال كثيرة من الحجارة ، تحت كل قُطْر منه مُغَرَّق تسعمائة مركب فيها حجارة ، وبين كل حجرين فى أسوارها قضيبين من الحديد متّصلين ، وعليهما شَبَك الرصاص . وداخله صهريج عظيم ، وفوق الصهريج قَبْو ، وفوق القَبو أخشاب ، وفوق الأخشاب حَصىً صغار ، وفوق الحصى خَيْش ، وفوق الخيش حبال قِنَّب مشدّدة ،حتى إذا نُصب المنجنيق من البرّ ، ورمى به ، لا يُبالى بما يُرمَى فيه ، ويقع الحجر من أعلاه فى الماء . وفيه مائة مقاتل . وخلف هذا البرج برج متصل به ؛ وفيه ثلاثة مجانيق منصوبة ، لا يؤخذ هذا الحصن بحصار ولا بمضايقة .

وكان النواب بحصن الأكراد وتلك الجهات لما بُنى هذا الحصن وعجزوا عن منعهم من عمارته لأن الأصناف والآلات إنما تحضر فى البحر ، ألجأهم الحال إلى عمارة برج بالقرب منه بقرية تسمّى مَيْعار ، وجُرِّد خمسون راجلا بالبَدَل . فما أفاد ذلك ولا أغنى غَناء .

ولمـــا شاهد مولانا السلطان هذا الحصن على هذه الصورة من الحصانة والمنعة ، وأن البرج المبنى قُبالته ضَرّ بانيه وما نفعه ، وأن حصاره لا يمكن لكونه فى البحر وما للمسلمين مراكب تقطع عنه الميرة ، ولا تمنع الداخل إليه ولا الخارج منه، وأن أمره بطول ومسألته تعول ، وأن الأمر الذى منه بدأ إليه يعود ،وأن افتتاحه بجنود التدبير لا بالجنود،

فسيّر إلى صاحب طرابلس فقال له : «إن العساكر قد تفرّغت ،وما بقى لها إلا أنت . وهذا البرج أنت الذى عمرته فى الحقيقة ، ولولا إعانتك لما بُنى ، وأنت المؤاخذ به . فإما أن يُهدم ، وإلا أخذنا قبالته من بلادك ما لا ينفعك فى الدّفع عنه صاحب مرقية ، وتندم حيث لا ينفعك الندم ، ويُكشف الغطاء ويُستردّ العطاء» .

فلما علم الأبرنس [صاحب طرابلس] هـذا التصميم العظيم ، وتحقق ما يترتب على هذا القول من إخراب بلاده وحصونه وإتلاف أحواله ، وأن مَلِك البسيطة وجيوشه العظيمة على أبواب مدينته ، وأنه بربوعه قد خيّم ، وأن القصد له أو هدم هذا الحصن قد تحتّم ، توصّل فى تسليمه وهدمه ، وأرضى صاحبه بما وصلت قدرته إليه بجملة من المال وتمليك ضياع ، بعد صعوبة من صاحب مرقية . وكان ولد صاحب مرقية قد حضر مستخفيا إلى أبواب مولانا السلطان ، وتدرّك تحصيل هذا الحصن وتسليمه لمولانا السلطان ، وتوجه إلى عكا مختفيا على البريد ، فأمسكه أهل عكا . واتصل خبره بأبيه فحضر من طرابلس إلى عكا وتسلّمه وقتله بيده فى وسط عكا ؛ وبطل ذلك السعى . وبعد ذلك وافق على تسليمه بوساطة الإبرنس ، وأذعن وأجاب إلى تسليمه للمسلمين . وسيّر الإبرنس جماعة من الفرنج للمساعدة فى هدمه ، فكانوا كما قال الله تعالى : (يُخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) .

وسيّر صاحب طرابلس شخصاً من أعيان أصحابه للحضور على هدمه مُقدّما للجماعة المسيّرين من الفرنج لذلك ، ومزيلا للأعذار فى استدعاء آلات الهدم من حديد وغيره . وجُرِّد الأمير بدر الدين بكتاش النجمى أمير جاندار ، وصحبته مائة حجّار لهدمه . وكان الأمير

الاسفهسلار ركن الدين طقصوا المنصورى ، وصحبته جملة من العساكر المجرّدين ، قبالة جَبَلة . فرسم مولانا السلطان له ولهم بالحضور إلى قبالة البرج للمساعدة والمعاضدة على هدمه . فهُدم حجراً فحجرا ، وما أبقى الاجتهاد له عينا ولا أثراً . وذلك بعد تعب عالت المعاول من شدته ، وقست الحجارة من حدّته ، وتضجّرت القوى من طول مدته . ولطف الله فى إزالة آثارها ، وإزالة قرارها ، وكفى الله المؤمنين شرّه ، وكفّ ضرّه ، وأبطل مكره ، وبقى مكانه فى قلوب الكفار حسرة .

(٧)

ذكر فتوح طرابلس

[من كتاب « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفداء الجزء الرابع ، صفحة ٢٣]

خرج السلطان الملك المنصور [قلاون] بالعساكر المصرية فى المحرم من هذه السنة [٦٨٨ / فبراير ١٢٨٩] ، وسار إلى الشام . ثم سار بالعساكر المصرية والشامية ونازل مدينـــة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول [٢٥ مارس] من هذه السنة . ويحيط بالبحر بغالب هذه المدينة ، وليس عليها قتال فى البر إلا من جهة الشرق ، وهو مقدار قليل . ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار ، ولازمها بالحصار . واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاث رابع ربيع الآخر [٢٧ إبريل] من هذه السنة ، بالسيف . ودخلها العسكر عنوة فهرب أهلها إلى المينا ؛ فنجى أقلهم فى المراكب، وقتل غالب رجالها ، وسبيت ذراريهم ، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة . وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته ، وكنت حاضراً فيه

مع والدى الملك الأفضل وابن عمى الملك المظفر صاحب حماة . ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم ، أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الأرض .

وكان فى البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس [سانت توماس] ، وبينها وبين طرابلس المينا . فلما أخذت طرابلس ،هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التى فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء . فاقتحم العسكر الإسلامى البحر ، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة ، فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا ما بها من النساء والصغار . وهذه الجزيرة — بعد فراغ الناس من النهب — عبرتُ إليها فى مركب ، فوجدتها ملأى من القتلى ، بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى .

ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها ، عاد إلى الديار المصرية ، وأعطى صاحب حماة الدستور فعاد إلى بلده . وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس فى سنة ٥٠٣ فى حادى عشر ذى الحجة [١٢ يوليو ١١٠٩] ، فبقيت بأيديهم إلى أوائل هذه السنة ، أعنى سنة ٦٨٨ [١٢٨٩] ، فيكون مدة لبثها مع الفرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة [هجرية] وشهور .

(٨)

[فتح طرابلس]

[من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى ، الجزء الأول ، من صفحة ٧٤٦ — ٧٤٨]

فى يوم الخميس عاشر المحرم [٦٨٨ / ٤ فبراير ١٢٨٩] خيم السلطان بظاهر القاهرة ، ورحل فى خامس عشرة . واستخلف إبنه الملك

الأشرف خليلا بالقلعة ، والأمير بيدرا نائباً عنه ووزيراً ، وكتب عند الرحيل إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس. وسار إلى دمشق فدخلها فى ١٣ صفر [٧ مارس] ، وخرج منها فى العشرين منه إلى طرابلس فنازلها ، وقد قدم لنجدة أهلها أربعة شوان من جهة متملك قبرس . فوالى السلطان الرمى بالمجانيق عليها والزحف والنقوب فى الأسوار ، حتّى افتتحها عنوة فى الساعة السابعة من يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر بعد ما أقام عليها أربعة وثلاثين يوما . ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا ، وعمل فيها ألف وخمسمائة نفس من الحجارين والزرّاقين . وفرّ أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس ، فخاض الناس فرسانا ورجالا وأسروهم وقتلوهم وغنموا ما معهم . وظفر الغلمان والأوشاقية بكثير منهم كانوا قد ركبوا البحر فألقاهم الريح بالساحل . وكثرت الأسرى حتّى صار إلى زَرَدْخاناه السلطان ألف ومائتا أسير . واستشهد من المسلمين الأمير عز الدين معن ، والأمير ركن الدين منكورس الفارقانى ، وخمسة وخمسون من رجال الحلقة. وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت ، وكان عَرْض سورها يمر عليه ثلاثة فرسان بالخيل ، ولأهلها سعادات جليلة ؛ منها أربعة آلاف نَوْلقـزازة (١) . وأقر السلطان بلدة جُبَيْل مع صاحبها [برتُلوميو] على مال أخذه منه ، وأخذ بيروت (٢) وجَبَلة وما حولها من الحصون .

وعاد السلطان إلى دمشق فى نصف جمادى الأولى [يونيو ١٢٨٩]،

---

(١) النول : آلة نسج القماش ، والقزازة : صنعة نسج الحرير خاصة .

(٢) الواقع أن فتح بيروت تم بعد ذلك الوقت بعامين ، وذلك بعد أن فتحت عكا .

واستقرّ العسكر على عادته بحصن الأكراد مع نائبه الأمير سيف الدين بلبان الطباخى . ونزل اليَزَك إلى طرابلس من حصن الأكراد وأضيف إلى الطباخى ، واستقر معه خمسمائة جندى وعشرة أمراء طبلخاناه ، وخمسة عشر أمراء عشرات ، وأقطعوا إقطاعات . ثم عمرّ المسلمون مدينة بجوار النهر فصارت مدينة جليلة ، وهى التى تُعرف اليوم بطرابلس .

الفصل الثالث

توفى السلطان قلاون وهو يستعد للقيام بحملة ضد الفرنج فى عكا. وفى عام ١٢٩١ أتم إبنه السلطان الملك الأشرف خليل ما بدأه أبوه ؛ وتوّج بالظفر جهود كافة أسلافه فى صراعهم ضد غزاة الصليبيين . وقد وصف لنا ما صحب فتح عكا من مناظر دامية ومقاومة عنيفة ، المؤرخ أبو الفداء الذى اشترك فى هذه الحملة . وكان فتح عكا بشيرا بانتهاء الحكم الصليبى فى الأراضى المقدسة . وقد وصف ابن تغرى بردى ، المؤرخ المصرى ، حادثة ذبح الأسرى الفرنج ممن اشتركوا فى الدفاع عن المدينة ضد المسلمين ، وهو ما يذكّر القارئ بمذبحة أخرى وقعت قبل ذلك بمائة عام ، حين قتل ريتشارد قلب الأسد أسرى المسلمين عند عكا . وبهذه المذبحة يسدل الستار على آخر فصول الحروب الصليبية

(١)

ذكر فتوح عكا

[من كتاب « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفداء، الجزء الرابع، ص ٢٤ — ٢٥]

فى هذه السنة [٦٩٠ / ١٢٩١] ، فى جمادى الآخرة ، فتحت عكا . وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا ، وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور ، وأن يحضروا صحبتهم

المجانيق . فتوجه الملك المظفر صاحب حماة ، وعمه الملك الأفضل (١) وسائر عسكر حماة صحبته إلى حصن الأكراد ، وتسلمنا منه منجنيقا عظيما يسمى المنصورى ، حمل مائة عجلة ، ففرقت فى العسكر الحموى . وكان المُسلَّم إلىّ منه عجلة واحدة لأنّى كنت إذ ذاك أمير عشرة . وكان مسيرنا بالعجل فى أواخر فصل الشتاء ، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك ، بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد ، شدة عظيمة . وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهرا ، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة . وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها .

وكان نزول العساكر الإسلامية عليها فى أوائل جمادى الأولى من هذه السنة [أوائل مايو ١٢٩١] . واشتد عليها القتال ، ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها ، بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها . وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم ، فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا . وكان يحضر إلينا مراكب مقبية بالخشب الملبس جلود الجواميس . وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ . وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر . وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمنا من جهة البحر ، فكنا منه فى شدة ، حتى اتفق فى بعض الليالى هبوب رياح قوية ، فارتفع المركب وانحط بسبب الموج ، وانكسر المنجنيق الذى فيه ، بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك .

---

(١) المظفر ، هو ابن عم المؤرخ أبى الفدا ، والأفضل أبوه . وقد أصبح أبو الفدا نفسه فيما بعد حاكما لحماة .

وخرج الفرنج فى أثناء مدة الحصار بالليل ، وكبسوا العسكر ، وهزموا اليزكية ، واتصلوا إلى الخيام ، وتعلقوا بالأطناب . ووقع منهم فارس فى جوة مُستراح بعض الأمراء ، فقتل هناك . وتكاثرت عليهم العساكر ، فولى الفرنج منهزمين إلى البلد ، وقتل عسكر حماة عدة منهم . فلما أصبح الصباح ، علق الملك المظفر صاحب حماة عدة من رؤوس الفرنج فى رقاب خيلهم التى كسبها العسكر منهم ، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف .

واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم فى يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة [٢٤ يونيو ١٢٩١] بالسيف . ولما هجمها المسلمون ، هرب جماعة من أهلها فى المراكب . وكان فى داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج ، وتحصنوا بها . وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته . ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ، ولم يتأخر منهم أحد . فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا . (١) ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكا .

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ ، واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم . فقدّر الله عز وجل فى سابق علمه أنها تفتح فى هذه السنة فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين [خليل] . فكان فتوحها مثل اليوم الذى ملكها الفرنج فيه ، وكذلك لقب السلطانين .

---

(١) لم يذكر أبو الفدا ما ذكره ابن تغرى بردى من أن السلطان كان قد أمن المتحصنين بالأبرجة على حياتهم إن هم خرجوا إليه .

ذكر فتوح عدة حصون ومدن

لما فتحت عكا ، ألقى الله تعالى الرعب فى قلوب الفرنج الذين بساحل الشام . فأخلوا صيدا وبيروت ، وتسلمها الشجاعى فى أواخر رجب [أواخر يوليو] . وكذلك هرب أهل مدينة صور ، فأرسل السلطان وتسلمها . ثم تسلم عثليث فى مستهل شعبان [٣٠ يوليو] ، ثم تسلم أنطرطوس فى خامس شعبان ، جميع ذلك فى هذه السنة ، أعنى سنة ٦٩٠. واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب . وأمر بها فخربت عن آخرها .

وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام . وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام .

فلله الحمد والمنة على ذلك .

٢
[فتح عكا]

[من كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة »
لابن تغرى بردى ، الجزء الثامن ، من ص ٥ — ٩]

ولما استهلّت سنة ٦٩٠ [١٢٩١] أخذ الملك الأشرف فى تجهيزه إلى السفر للبلاد الشامية ، وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا . وأرسل إلى البلاد الشامية ، وجمع العساكر ، وعمل آلات الحصار ، وجمع الصناع ، إلى أن تم أمره :

خرج بعساكره من الديار المصرية فى ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين المذكورة [٦ مارس] ، وسار حتى نازل عكا فى يوم الخميس

رابع شهر ربيع الآخر ، ويوافقه خامس نيسان [إبريل] . فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة . وكان المُطَّوِّعة أكثر من الجند ومَن فى الخدمة . ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجية خمسة عشر منجنيقا ، منها ما يرمى بقنطار دمشقى وأكبر ، ومنها دونه . وأما المجانيق الشيطانية وغيرها فكثيرة ، ونقب عدة نقوب . وأنجد أهلَ عكا صاحبُ قبرس بنفسه . وفى ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانا عظيمة لم يُر مثلها ، فرحا به . وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام ، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم مادهمهم. ولم يزل الحصار عليها والجدّ فى أمر قتالها إلى أن انحلّت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم . هذا والحصار عمّال فى كل يوم . واستشهد عليها جماعة من المسلمين .

فلما كان سَحَر يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ، ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس . وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحس عظيم مزعج. فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج ومُلكت المدينة بالسيف . ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها . وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل . ونُهب ما وُجد من الأموال والذخائر والسلاح ، وعمل الأمر والقتل فى جميع أهلها ، وعَصَى الدّيوية والإسبتار واستتر الأرمن فى أربعة أبراج شواهق فى وسط البلد فحُصروا بها .

فلما كان يوم السبت ثامن عشر الشهر ، وهو ثانى يوم فتح المدينة ، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذى فيه الديوية ، فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان ، وسيّر لهم صنجقا ، فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب . فطلع إليهم جماعة كثيرة

من الجند وغيرهم ، فلما صاروا عندهم تعرّض بعض الجند والعوام للنهب ، ومدّوا أيديهم إلى من ندهم من النساء والأصاغر . فغلّق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف ، فقتلوا جماعة من المسلمين ، ورموا الصنجق وتمسّكوا بالعصيان . وعاد الحصار عليهم . وفى اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد الأمير زين الدين كَتْبُغا المنصورى . وتمّ القتال على برج الديوية ومَن عنده إلى يوم الأحد ١٩ من جمادى الأولى ، طلب الديوية ومن بقى فى الأبراج الأمان . فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجهوا حيث شاءوا . فلما خرجوا قَتَلوا منهم فوق الألفين ، وأسروا مثلهم ، وساقوا إلى باب الدهليز النساء والصبيان . وكان من جملة حَنَق السلطان عليهم مع ماصدر منهم ، أن الأمير آقبُغا المنصورى ، أحد أمراء الشام ، كان طلع إليهم فى جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه ، وعرْقبوا ماعندهم من الخيول ، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه ، فتزايد الحنق عليهم . وأخذ الجند وغيرهم من السبى والمكاسب ما لا يحصى .

ولما علم من بقى منهم ما جرى على إخوانهم ، تمسّكوا بالعصيان ، وامتنعوا من قبول الأمان ، وقاتلوا أشد قتال ، واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورموهم من أعلى البرج ، فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة . ثم فى يوم الثلاثاء ٢٨ جمادى المذكورة ، أخذ البرج الذى تأخر بعكا ، وأنزل من فيه بالأمان ، وكان قد غُلّق من سائر جهاته . فلما نزلوا منه وحوّلوا معظم ما فيه ، سقط على جماعة من المسلمين المتفرجين وممن قصد النهب ، فهلكوا عن آخرهم . ثم

بعد ذلك عزل السلطان النساء والصبيان ناحية ، وضرب رقاب الرجال أجمعين ، وكانوا خلائق كثيرة .

والعجيب أن الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكا فى مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه ، ومثل الساعة التى أخذوها فيها ، فإن الفرنج كانوا استولوا على عكا فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ فى الساعة الثالثة من النهـار ، وأمّنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غَدْرا . وقدّر الله تعالى أن المسلمين استرجعوها منهم فى هذه المرّة يوم الجمعة فى الساعة الثالثة من النهار ، ووافق السابع عشر من جمادى الآخرة ، وأمّنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين ، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم .

وكان السلطان عند منازلته عكا قـد جهز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير علم الدين سَنجَر الصّوابى الجاشَنكير إلى صور لحفظ الطرق وتعرّف الأخبار ، وأمـره بمضايقة صور . فبيْنما هو فى ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التى لصور . فحال بينها وبين الميناء . فطلب أهل صور الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويُسلّموا صور . فأجيبوا إلى ذلك فتسلّمها . وصور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المنيعة ، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح من الساحل ، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكانا وأمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها ومنعتها . فألقى الله تعالى فى قلوب أهلها الرعب حتى سلموها من غير قتال ولا منازلة ، ولا كان الملك الأشرف فى نفسه شئ من أمرها البتة . وعندما تسلّمها

جهّز إليها من أخربها وهدم أسوارها وأبنيتها ، ونُقل من رخامها وأنقاضها شئ كثير . ولما تيسر أخذ صور على هذه الصورة ، قوى عزم الملك الأشرف على أخذ غيرها (١) .

تم الكتاب

(١) فى صيف نفس العام (١٢٩١ م) أخلى الفرنج صيدا وبيروت ، كما سلموا عثليث وأنطرطوس إلى المسلمين دون قتال . وبقيت جزيرة رواد الصغيرة المقابلة لأنطرطوس فى يد فرسان الداوية حتى عام ١٣٠٣ م .

المصادر

١ ـ « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير
(دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٥) .

٢ ـ « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى
(طبعة بيروت ١٩٠٨ ، تحقيق أميدروز) .

٣ ـ « زبدة الحلب من تاريخ حلب » لابن العديم
(طبعة المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ١٩٥٤
تحقيق سامى الدهان)

٤ ـ « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزى
(طبعة حيدر أباد ١٩٥١) .

٥ ـ « كتاب الاعتبار » لأسامة بن منقذ
(طبعة برنستون ١٩٣٠ ، تحقيق فيليب حتى) .

٦ ـ « كتاب العصا » لأسامة بن منقذ
(فى المجموعة الثانية من « نوادر المخطوطات » ، مطبعة
السعادة بمصر ١٩٥٢ ، تحقيق عبد السلام هارون)

٧ ـ « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين بن شدّاد
(الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ ؛ تحقيق
جمال الدين الشيال) .

٨ ـ « الفتح القدسى » للعماد الكاتب الإصفهانى
(الدار القومية للطباعة والنشر بمصر ؛ بدون تاريخ :
تحقيق محمد محمود صبح)

٩ — «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين» لأبى شامة
(مطبعة وادى النيل بالقاهرة ؛ ١٨٧٠)

١٠ — «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لابن وصل
(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٢ ؛ تحقيق حسنين محمد ربيع) .

١١ — «التاريخ المنصورى» لأبى الفضائل الحموى
(معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، موسكو ١٩٦٠) .

١٢ — «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزى
(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

١٣ — «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» لعز الدين بن شداد (المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ١٩٦٢ ، تحقيق سامى الدهان) .

١٤ — «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» لبدر الدين العينى

(Recuil des Historiens des Crosades, Historiens Orient-aux, II, Paris, 1887)

١٥ — «تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور» لابن عبد الظاهر (طبعة وزارة الثقافة بمصر — سلسلة تراثنا ١٩٦١ ، تحقيق مراد كامل) .

١٦ - « تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات
(بيروت ١٩٣٦ ، تحقيق قسطنطين زريق)

١٧ - « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفداء
(المطبعة الحسينية بالقاهرة ، ١٩٠٧) .

١٨ - « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن
تغرى بردى (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ -
١٩٧٢) .

كتب أخرى للمؤلف

١ – دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك
في القرن العشرين . دار الشروق

٢ – ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي
القديم (تصدر في عشرة مجلدات
مصورة . وصدر منها المجلد الأول) . دار الشروق

٣ – فضل الإسلام على الحضارة الغربية . دار الشروق

تحت الطبع :

« الإمام » مسرحية .

رقم الايداع ٢٤٩٠ لسنة ١٩٨٣

مطابع سجل العرب